مذاهب وشخصيات



حافظ ابراهيم

شاعر القومية العربية

بقلم: محمد هارون الحلو

مذاهب وشخصيات

حافظ ابراهيم

شاعر القوميّة العربيّة

بقلم : محمد هارون الحلو

بسم الله الرحمن الرحيم

هبل ..

إِذَا اللهُ أَحْيَا أُمَّةً لَنْ يَرُدَّهَا

إِلَى الْمَوْتِ قَهَّارٌ وَلَا مُتَجَبِّرُ

حافظ

انصاف ..

ياحافظ الفصحى ، وحارس مجدها
وأمام من نجلت من البلغاء

مازلت تهتف بالقديم وفضله
حتى حميت أمانة القدماء

وغدا سيذكرك الزمان ولم يزل
للدهر انصاف ، وحسن جزاء

أحمد شوقي

فنون الكتاب

لوحات فنية

بريشة حافظ ابراهيم

إيه يا طير ألا من مسعدٍ..؟

أيها الزَّهر أفقْ من سِنَةٍ
واصطبحْ من خمرةٍ لم تعتصرْ
من رحيقٍ أمُّـه غـاديةٌ
ساقها تحت الدجى روحُ السحر
وانفح الروض بنشرٍ طيِّبٍ
علَّه يوقظ سكان الشجرْ
إنَّ بي شوقًا الى ذي غُنَّـةٍ
يؤنس النفس وقد نام السَّمَرْ
إيه يا طير ألا من مسعدٍ
إنني قد شفَّني طول السَّهر
قم وصفق واستحر واسجع ونحْ
وارو عن اسحق مأثور الخبر
ظهر الفجر وقد عوّدتني
ان تغنيني اذا الفجر ظهر

حافظ ابراهيم

متى أرى الشرق..!

متى أرى الشرق أدناه وأبعده
عن مطمع الغرب فيه غير وسنان

تجرى المودة فى اعطافه طلقاً
كجرية الماء فى أثناء أفنان

ان دام ما نحن فيه من مدابرةٍ
وفتنةٍ بين أجناس وأديان

رأيت رأى المعرى حين أرهقه
ما حل بالناس من بغيٍ وعدوان

لا تطهر الأرض من رجس ومن درنٍ
حتى يعاودها نوح بطوفان

حافظ ابراهيم

خير الصنائع

خير الصنائع فى الأنام صنيعة
تنبو بحاملها عن الإذلال
واذا النوال أتى ولم يهرقْ له
ماء الوجوه فذاك خير نوال
من جاد من بعد السؤال فإنه
وهو الجواد يعدّ فى البُخّال
إنى أرى فقراءكم فى حاجة
لو تعلمون لقائل فعّال
والمحسنون لهم على إحسانهم
يوم الإثابة عشرة الأمثال
وجزاء رب المحسنين يجل عن
عدٍّ وعن وزنٍ وعن مكيال

حافظ

تغيرت الدنيا

تغيرت الدنيا وقد كان أهلها
يرون متون العيس ألين مضجع
وكان بريد العلم عيرا وأينقًا
متى يُعْيِها الايجاف فى البيد تظلع
فأصبح لا يرضى البخار مطيةً
ولا السلك فى تياره المتدفّع
وقد كان كل الأمر تصويب نبلة
فأصبح بعض الأمر تصويب مدفع
لدى كل شعب فى الحوادث عدة
وعدتنا ندب التراث المضيّع
فيا ضيعة الأقلام ان لم نقِمْ بها
دعامة ركن المشرق المتزعزع

حافظ

عـزيـز علينا..

عزيز علينا يا بني الشرق أن ترى
كواكبه في أفقه غير طلّع
وأعلامه من فوقه غير خفّق
وأقلامه من تحتها غير شرّع
فإن كنت قوالا كريما مقاله
فقل في سبيل النيل والشرق أودع

حافظ

أيها الرافلون في حلل الوشي..

أيها الرافلون في حلل الوشي
يجرون للذيول افتخارا
ان فوق العراء قوما جياعا
يتوارون ذلةً وانكسارا
قد شهدنا بالأمس في مصر عرسًا
ملأ العين والفؤاد ابتهارا
سال فيه النضار حتى حسبنا
ان ذاك الفناء يجري نضارا
بات فيه المنعمون بليلٍ
أخجل الصبح حسنهُ فتوارى
يكتسون السرور طورا وطورا
في يد الكأس يخلعون الوقارا

حافظ ابراهيم

من لي بحظ النائمين..

أُحياؤُنا لا يرزقون بدرهم

وبألف ألفٍ ترزقُ الأمواتُ

من لي بحظّ النائمين بحفرةٍ

قامت على أحجارها الصلوات

يسعى الأنام لها ويجري حولها

بحر النذور، وتقرأُ الآيات

ويقال: هذا القطب باب المصطفى

ووسيلة تقضى به الحاجاتُ!

حافظ

سلامة الأذواق

ما البابلية في صفاء مزاجها
والشرب بين تنافس وسباق
بألذ من خلق كريم طاهر
قد مازجته سلامة الأذواق
فإذا رزقت خليقة محمودة
فقد اصطفاك مقسم الأرزاق

حافظ

عمامة!!

لا تحسبنّ العلم ينفع وحده
ما لم يتوّجْ ربّه بخلاق

كم عالم مدّ العلوم حبائلا
لوقيعة وقطيعة وفراقِ

وفقيه قوم ظلّ يرصد فقهه
لمكيدة أو مستحلّ طلاق

يمشي وقد نصبت عليه عمامة
كالبرج لكن فوق تلّ نفاق

حافظ

دعوة الى التجديد..

ملأنا طباق الأرض وجداً ولوعةً
بهندٍ، ودعد، والرباب وبوزع
وملت بنات الشعر منا مواقفاً
بسقط اللوى والرقمتين ولعلع
واقوا منا فى الشرق قد طال نومهم
وما كان نوم الشعر بالمتوقّع

حافظ ابراهيم

وأديبُ قوم..

وأديبِ قوم تستحق يمينه
قطع الأنامل أو لظى الإحراق

يلهو ويلعب بالعقول بيانه
فكأنه في السحر رقية راقِ

في كفه قلم يمجّ لعابه
سمّا وينفثه على الأوراق

يرد الحقائق وهي بيض نصّعٌ
قدسيّةٌ علوية الإشراق

فيردها سودا على جنباتها
من ظلمة التمويه ألف نطاق

لو كان ذا خلق لأسعد قومه
ببيانه ويراعه السبّاق

حافظ

وفي الشعر ما يُغني ..

ففي الشعر حث الطامعين إلى العلا
وفي الشعر زهد الناسك المتورع
وفي الشعر ما يغني عن السيف وقعه
كما روع الأعداء بيتٌ لأشجع
وفي الشعر إحياء النفوس وريها
وأنت لري النفس أعذب مشرع

حافظ

من لي بتربية النساء..

من لي بتربية النساء فإنها
في الشرق علة ذلك الاخفاق

الأم مدرسة إذا أعددتها
أعددت شعباً طيب الاعراق

أنا لا أقول دعوا النساء سوافرا
بين الرجال يجلن في الأسواق

يفعلن أفعال الرجال لواهياً
عن واجبات نواعس الأحداقِ

في دورهن شئونهن كثيرة
كشئون رب السيف والمزراق

كلا ولا أدعوكم أن تسرفوا
في الحجب والتضييق والارهاق

ليست نساؤكم حلى وجواهرا
خوف الضياع تصان في الاحقاق

فتوسطوا في الحالتين وأنصفوا
فالشر في التقييد والإطلاق

ربوا البنات على الفضيلة انها
في الموقفين لهن خير وثاق

حافظ

تقـــديم

حين نتحدث عن شـــاعر القومية العربيه ، لا نجـد بدا من مصاحبته والسير معه فى درو بالحياة الادبية ، فالحديث ذو شجون ٠

كما لانجد بدا من الانصراف عنه بين آونه وأخـرى لمناقشة رأى من الآراء أو تناول مذهب من المذاهب فيما يتصل بفنه وأدبه ٠

وفى حياة حافظ مايغنى عن القول فيما نعرفه عن وفائه لمجتمعه وتنكر هذا المجتمع له ٠

وهذا الذى نسوقه عن حافظ انما هو باقة من باقات التكريم نمايز بها قمة من شوامخ القمم الانسانيه التى ارتبط وجدانهـا بوجدان الامة العربية ٠

واضطراب حافظ فى مجتمعه الذى ارتبط به ، وتنفس فيـه ، ومنحه كل مواهبـه وأصفاه بما حبـاه الله من ذوق رفيع وفن أصيل ٠ هو ذلك المنهج الذى نحتفل له اليوم فى مذاهب الادب الجـــاد ، الذى تنادى به « الميثاق » ٠

فهو الشاعر الذى عاش حياته يسجل أحداث وطنه فى دور ايجابى بناءلم يتوان لحظة عن مشايعته والذود عنه بكل ما آتاه الله من قوة ٠

ولعلنا ونحن نجنى ثمرات النضال، ونفتح قلوبنا على الحقائق الذهبية التى كانت أحلام الزمان على عهـد حافظ نذكر له أنه رسم لوطنـه سياسة المستقبل على مدى ربع قرن من الزمان ٠

لقد كان خيال الشاعر كقلبه أوسع من أن يحيط بما حوله من أحداث وطنه ٠

فقد انسرح خياله ، وانفسح قلبه الى آمال الامة العربية كلها ، يذود عنها ويرود حلبات نضالها ، ويستفتح لهـا مواكب النصر ، ورحبـات الخلود

فاستحق بذلك ان يكون شاعر القومية العربية على مدى الزمان .

محمد هارون الحلو

الشعلة المقدسة

أى معنى شريف يمكن أن يساوق الفكرة التى اصطلح عليها الادباء الأبيناء فى تعليل النبوغ ؟

هل هو من عمل الانسان وكسبه ، أم أنه هبة يلقاها الانسان ، ويدرج بها فى حياته ؟

أحسب أن السنن الكونية توحى فيما نطالعه من حياتنا ، أن يد الخالق سبحانه تتفضل بهذه المنح الكريمة على الانسان لتربط بها بين الخالق والمخلوق ، بالتأمل والتدبر فى حكمة التنويع فى الخلق ، والتلوين فى الملكات • والوقوف على آيات الله فى الاعجاز ، والابداع ، وتبيان تلك الألواح التى خط فيها القدر بدائعه وأفانينه للنفوس والأرواح .

ولا ارى فى معرض الحديث عن شاعرنا ، « حافظ ابراهيم » أن نسرف فى تناول النظريات الحديثة ، والآراء المتصلة بتعليل العبقرية والنبوغ فان الحديث عن الادب عامة، والشعر خاصة، ينبغى أن يكون سائغا سهل المتناول ليتسق مع ما يبتدعه الأدب من أفانين ، وما يتركه من أثر فى تربية الوجدان ، وصقل المشاعر ، وامتاع الذوق .

وحسب الشعر العربى صفاء أنه يصادق القلب ، ويوائم الفطرة فيأتى الجيد منه بالحكمة الرائعة ، والمثل الشرود •

وعمل الشاعر ، هو التحليق ، والسمو ، ثم الفيض بالرائق الخلاب . فالشاعر هو الفنان الموهوب ، هو المبتدع الخلاق . .

والشعر هو ذلك النغم الاقدس الذى يوقعه الشاعر على قيثارته، فتطرب له المشاعر ، وتحس بنبض الحياة وخفقها ، وومضات الحسن والاشراق فى لألاء سحرها ، فتهتز له القلوب وتهيم فى نشوة الأحلام،

والعمل الفنى الخالد ، هو تلك الأنشودة العذبة التى يقف أمامها القلب فى ظمأ والتياع سهمان حيران •

هو حديقة الزهر النضر تبتسم فتخشع العيون لجمالها ، ويأخذها الاعجاب ، ويرق الجمال ،ويدق الحسن ، فتسجد القلوب للصانع البديع فى صوغه لهذا النسق العالى من ملامح الحسن والانسجام .

هو السحر الذى أشار اليه القرآن الكريم فيما حكاه عن رب العالمين ، على لسان الذواقة ، من دهاقين الادب ، ولهاميم البيان ، حين أخذتهم روعة البيان فى اعجاز القرآن فلم يصدعوا الحق اذ جاءهم على لسان الرسول الكريم ، فقالوا : ساحر ، ووصفوا ماآتاه الله من

حكمة ، وما أصفاه به من هدى ،وهم يخادعون أنفسهم ، يلجلجون بالباطل ، ويومئون الى الشعر فيقولون « ان هذا الا سحر يؤثر »

ينبوع الادب

وملكة الاديب ، من أرفع المنح السماوية التى اختص الله سبحانه بها من أراد له الكرامة والتشريف من الجنس البشرى

وهى احدى القوى التى زودت بها الطبيعة الحياة الأدبية والفنية ما تستعليان به وتنهضان الى المستوى المرموق .

وعندما تصبح تلك الملكة الفطرية قوة فكريه ، بالتدريب ، والمران على معالجة شتى الموضوعات تصبح أقوى عامل ، وادق ميزان لدفع حياة الشعوب والأمم الى الامام .

وينبوع الأدب يدفق بخوالج النفوس ، ويفيض بمشاعر القلوب ، يدفق بما يوائم الأحاسيس العامة والفطر المستقيمة ، ويفيض بكل ما يستعلى بالانسانية ويرقى بها . وذلك اذا سار فى الطريق الطبيعى له بدون عوج ، أو انحراف .

وقد يكون من تأويل قول الله سبحانه ، فى كتابه الكريم ، أو تطبيق ماترمى اليه الآية الشريفة « ومايعلم جنود ربك الا هو » ، على تلك الطاقات الأدبية والمواهب اللامعة ، وهى تهيىء الاذهان ، وتدفع المجموعات الى النهوض والعمل والسعى ، بل والى الثورة وهدم أركان الزيغ والضلالات .

وحكمة المختار سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، نزلت فى روح الأدب الرفيع الذى يهز النفس ، ويحفز الى العمل ، ويدعو الى المثل العليا .

فكيف اذن نعطل هذه القوى الهائلة ، ولا نفيد من اشعاعاتها ، وما ذخرته من قوى عارمة ؟

أيمكن أن نحد من انبثاق هذا الشعاع ذلك الذى يشرق ويتألق ، ويشق طريقه فى هداية الحياة ، وتوجيهها ؟

كيف نفرض على الأديب الا يعالج نوعا ما من أفانين الحياة الى حيث يتجه وجهة ترسم له حدودها ، وتحدد له اقطارها ؟

والأديب خير جندى مسلح يفتح الفتوح على أسلوب لا يعدله فيه جيش ولا سلطان .

وزكاة الخالق على الأديب تفرض عليه أن يشارك بنى جنسه ووطنه فيما يعتمل حياتهم فهو جندى وطنه ، وسلاحه ، وذخيرته ، بل وسلطانه، وصولجانه .

ولم يشهد التاريخ فتحا مبينا كما شهد فتوحات الادباء وانتصاراتهم ..

يقول الدكتور طه حسين فى حديث له عن الأدب والقومية العربية ، ذلك الحديث الذى أدلى به عام ١٩٥٧ ، فى مؤتمر أدباء العروبة

« الشيء الذى أستطيع أن أؤكده ... وأنا مطمئن الى أنى لاأتجاوز الحق هو أن كل هذه الأحداث ـ مشيرا الى أحداث الشرق وبعث القومية العربية ـ انما أنشأتها الثقافة ، وأنشأها الأدب ، والمؤسسون الحقيقيون لكل هذه الثورات انما هم الادباء ، والكتاب ، والشعراء .

ولا شيء غير هؤلاء »

أباريق الوطنية

وحين نحاول ان نجلى للقارىء الكريم صفحة مشرقة من تلك الشعلة المقدسة التى اختص القدر بها شاعرنا « حافظ » ليكون مركزا لاشعاعها تنبثق عنه تلك الطاقات المضيئة الهادية . حين نتحدث عن شاعر الحرية هذا ، لانجد بدا من الوقوف معه فى الدروب الوعرة التى سلكها فى حياته ، لنرى مع الرائين كيف نبع هذا الينبوع ، وتفجر بسلسال من البيان العذب الرائق ، وكيف كان الندمان يلتقون على أباريق الوطنية ، ينسمون من رياها ما يلذ لهم ويطيب ، ثم ينفضون وقد برقت أساريرهم عن فكرة جديدة أو خطرة نابضة ، فاذا بين يدى القارىء العربى كتاب « جديد » يحدثنا عن شاعرنا المختار .

يوم العروبة

يجتمع ندامى الأدب على شئون ، وشجون ، يجتمعون على يوم من أيام الشرق الحافلة بأمجاده ، ويتذاكرون أيام العرب الخالدة . ويربطون ذلك بيوم العروبة الجديد وماسجله تاريخنا عنهم من صفحات مشرقات . ذلك هو يوم القناة .

وقد استخلصت مصر حقوقها كاملة من المغتصب ، مضحية مفتدية ما وسعتها التضحية والفداء .

صوت حافظ

ويتردد على أسماعهم فى ذلك اليوم هتاف « حبيب » من الشرق انه أذان الحرية نداء من السماء . فيتذاكرون مزمورا من مزامير الكنانة

وقيثارا من قيثائر الوطنية قطع عمره يعزف بنشيده الخالد ، ويرجعه ، ويدق بصداه على القلوب والمشاعر يستثير الحمية ، ويستنهض الهمة ، ويهيب بقومه ، حتى اذا ما استنفد سنى حياته ، كان قد وعى عنه التاريخ ماوعى .

تذاكر الندمان ، هذه الأوتار المشجية ، واستعادوا ذلك النداء الصادح فأصاخوا الى اللحن ، وأرهفوا الى الصدى .

القومية العربية

وحين أشير الى مافطنت اليه الامة العربية من التفات الى هذه الثروة الضخمة من التراث الأدبى ، الذى يمكن الانتفاع به فى رسم مستقبل أمة مجيدة ، وتخطيط هذا المستقبل مما يصلح من هذا التراث ، بل واضاءة الطريق أمام المذخور من هذه الكنوز فى قرائح المفكرين ، ورجالات الأدب ، واثارة خواطرهم لاضاءة المشاعل أمام الجيل الجديد والأمة العربيه ، وهى تنشط فى تكتيل قواها متحدة نحو عدوها ، لاشك واجدة نفسها أحوج ما تكون الى الافادة من تلك القوى الروحية التى تستطيع بها أن تواجه احتياجات الشعب وتربيته وتلفته الى الغاية وتقطع الطريق على أساليب المستعمر وختاله ، وحماية الشعب من سمومه ، وآثامه التى ينفثها فى جميع الميادين ، وبوسائله المختلفة فى شتى صورها ، ومنها شراء الأقلام ، أو محاولة ذلك ، لتفل من سلاح النصر ، وتعوق التقدم فى الزحف .

آمنت طوائف الشعب العربى ، وحكوماته الوطنية بالرابطة الجامعة التى تبعثهم على غاية واحدة واذ وجدوا أن هذه القومية هى المارد الجبار الذى يرتعد من رهبته العدو الغاشم هبوا جميعا لارساء الدعائم ، واستكمال أسباب السيادة ، والعزة لهذه القومية الجامعة .

نبضات القومية فى شعر حافظ

واذا كان شاعرنا قد عاش عمره يتغنى بأمجاد هذه القومية ، بل ويسرف فى اثارة المشاعر والاحاسيس لاعزازها، فانه وبعد أن استأثر به الله سبحانه الى جواره ، وعلى ربع قرن من الزمان بعد وفاته يقف معنا وقفاته الرائعة فى غمار الهول ، ووقدة البأس ، يسقى المستعمر بأناشيده المجلجلة ، وحماسه المتدفق . كأس الخسران مترعا .

أجل ، وقف حافظ بيننا فى محنة القنال يستصرخ شعبه ، وعروبته بقوة روحية خارقة لا تعدلها قوة الجيوش الكرارة ذات المراس الشديد .

كان صوت حافظ يصون الجبهة الداخلية للقومية العربية ، ويشد على كل متخاذل رعديد ، وما فى الأمة العربية الوفية متخلف ، كانت العروبة تتكتل للنصر ، وتؤازر مصر فى محنتها . وأذان حافظ ابراهيم يدوى فى سمع العروبة :

انا ان قدر الاله مماتى لاترى الشرق يرفع الراس بعدى

ويثب الشعب يظاهر الجيش ، وتقف المرأة الى جانب الرجل ، وتنشط وسائل التدمير والتخريب لانزال الخسائر بجيش الطغيان ، وتدمير خطوطه ووسائله . فيهتف النشيد بصوت الفخر :

انا تاج العلاء فى مفرق الشر ق ودراته فرائد عقدى
مارمانى رام ، وراح سليما من قديم ، عناية الله جندى

ويهتز هذا الصوت الاطهر بالحجة الدامغة يخاطب الضمير العالمى فى الأمم المتحدة ، حيث يجتمع أعضاؤها ثم ينفضون حول النظر فى ذلك العدوان الغاشم فيخاطبهم حافظ بمنطق فاضح للظلم . والعدوان :

أمن العدل انهم يردون الما ء صفوا وأن يكدر وردى
أمن الحق أنهم يطلقون الاسد منهم ، وأن تقيد أسدى

ثم يثبت قلوب المفتدين بهتافه :

نظر الله لى فأرشد أبنا ئى فشدوا الى العلا اى شد
انما الحق قوة من قوى الد يان امضى من كل أبيض هندى

ثم يحيى أبطال الجهاد فى روعة البيان العربى :

قد وعدت العلا بكل ابى من رجالى ، فانجزوا اليوم وعدى

عاش معنا حافظ ، وأخذ مكانه من جيش التحرير ، ومضى مع الاوفياء يقرع الحجة بالحجة وأخذت العـــروبة تتراص أمام العدو ، فى زحف باسل ، وهل هناك أروع من الهزج المشبوب بالحماس الواغل فى التحدى يفزع أشياع هؤلاء المعتدين ، ويروع قلب الغاشم المستبد:

وقف الخلق ينظرون جميعـــا كيف أبني قواعد المجد وحـدى
وبناة الاهرام فى سـالف الدهر كفونى الكلام عند التحـــدي

بهذه الشعلة المقدسة جاء حافظ ابراهيم ، منحـة سـماوية ، خص الله بها قلب العروبة ، ذخيرة حية ، وســلاحا مرهـــوبا ، وفرق كبير بين سلاح وسلاح ، فسلاح الميدان يعمل عمله فى المعارك وقـد يذهب بددا ، أما هذا السلاح ، سلاح التعبئةالروحية .. سلاح الشاعر فهو قوة رهيبة تخترق الحصار ، وتنفذ الى الصميم ، وتخـلد على مدى الزمان .

كذلك كان حافظ سلاحا بارقا يعمل عمله ، والمستعمر جاثم فى أرباض الوطن على عهد الاحتلال ، كالنار المبثوثة فى الرماد . وفى الجد يزأر زئير الليث الباطش ، ويهدر هدير الاعصار المدمر .

فقد كان إذان حافظ على الشباب المصرى دعاء يحدو قلوبهم ونداء يقرع سمعهم ، وهو يخاطبهم ويلمح للغاصب بأن مصر يقظه ، ولن تؤخذ عن غرة بقوله :

مضى زمن التنويم يامصر ، وانقضى
ففى مصر أيقاظ على النيل تسـهر

ويصل الى قمة الاعجاز والابداع حين يصدع العدو بهذه الصيحة

اذا الله أحيـــا أمة لن يردهـــا
الى المـــوت قهــار ولا متجـــبر

ثم يتلفت على الشبيبة المذخورة لجلائل الاعمال :

رجال الغـــد المأمول انا بحاجـة
الى قادة تبنى وشـــعب يعمــر

رجال الغـــد المأمول انا بحاجـــة
الى حـــكمة تملى وكف تحـــرر

رجال الغـــد المأمول انا بحاجـــة
اليكم فسدوا النقص فينا وشمروا

رجال الغـــد المأمول ان بـــلادكم
تناشـــــــــدكم بالله أن تتذكروا

عليـــكم حقوق للبــلاد ، أجلهــا
تعهد روض العــلم ، فالروض مقفر

قصارى منى أوطانــكم أن ترى لكم
يدا تبتنى مجدا . وراســا يفــكر

فــكونوا رجالا عاملين أعــــزة
وصونوا حمى أوطانــكم تتحـرروا

ثم يلهم الحكمة الفاصلة فى قوله :

فما ضــــاع حق لم ينم عنه أهله
ولا ناله فى العالمـــين مقصـــر

العرق دساس ..

كان حافظ صادق النظر فى تصويره لأحوال الشعوب ، وما تلاقيه من نكال على أيدى الطغاة من حكامها • كان يحس بأن دخيلة الشعوب العربية والاسلامية وهواها فى التضام وكان يدرك ان الحكام غير الوطنين من عملاء المستعمرين ينزعون لصوالحهم الشخصية واطماعهم وكانت الدائرة تدور على هؤلاء الخونة ، وتنجو قضايا الشعوب

وذلك كان حال الترك : .

وأدال من عبد الحميد لشعبه
فهوى ، وحاول أن يعود فأخفقا .

امسى يبالى حارسا من جنده
ولقد يكون ، وما يبالى الفيلقا

فاعجب معى لفراسة هذا الشاعر الوطنى ، وتسجيله لأحداث التاريخ الكبرى ، واستعد معى ذكريات الشعوب ، ومواقف حكامها المتسلطين • والتاريخ يعيد نفسه •

فهاك موقف حكام الترك منا فى مطلع القرن العشرين ، وبالتحديد قبل خمسين عاما من تأميم القنال ذاك هو موقف « عبد الحميد » سلطان الترك من القنال فى قول الشاعر :

حصدت مناجله غراس رجائنا
ولو أنها أبقت عليه لأورقا

وأتى يساوم فى القناة خديعة
ولوانها تمت لتم بها الشقا

حقا ان العرق دساس ـ وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم

***

وطالما بكى صاحبنا (حافظ) فى التياع وحسرة لمصاب يلم بشقيقة عربية •

اى نار تلك التى تؤج فى صدر الشاعر هذا الباكى الثاكل ، وهو يزفر حسرة وألما ويخاطب دولة الطليان حين أغارت على طرابلس عام ١٩١٢ ؟!

كبلوهـــم ، قتلوهـــم ، مثلوا
بذوات الخـــدر طاحوا باليتامى

فماذا بالله ابقوا ؟! وای اسراف فی العدوان والتشفی فی الانتقام وعلام هذا الظلم أيها الغرب ؟!

كشـفوا عن نية الغـرب لنـــا
وجلوا عن أفـق الشرق الظــلاما
فقـــرأناها ســـطورا من دم
اقســمت تلتهم الشرق التهـــاما

ويصور القسوة الوحشـية والعنف وهو يقارن ، بين قذائف البركان من قذائف البطش والظلم :

لم يـــكن فيزوف أدهى حممـــا
من كـــرات تنفث الموت الزؤامـا
ايه يا فيزوف نم عنهـــم فقـــد
نفضت افريقيا عنهـــا المنـــاما

ويخاطب الوحدة بقوله :

ياقـوم انجيـــل عيسى وامـــة القـــرآن
لا تقتلوا الدهر حقـــدا فالملـــك للديـــان

يمثل هذا النغم المستعذب ، وفي مثل هذه الروحية المنسرحة عن وفاء وايمان ، كان يضرم الشاعر النار فی الهشيم ، ولا تغمض له عـين الا اذا بكى ، واستبكى ، وأثار ، واستثار ، ونهض ، واستنهض وبذر فى الشرق بذور التحرير • ومضى يسقى شجرة الحرية ، ودوحة القومية فقد هدته حاسته الصادقة ، وفطرته السليمة وعروبته الصريحة ، وفراسته بأن القومية العربية هي حصن الأمان • والمـــارد الجبار الذى يرتعد له المستعمر •

أبى حافظ أن ينام وادعا فى قبره ، والعروبة فى محنتها تغالب الشر وتجاهد الشره • فمضت روحه تنشـــد أناشيد الحرية ، فتستاق الجموع الزاخرة من الشعب الأبى الى ساحات البطولة ، والفداء •

هذه العاطفة

مضى حافظ يرسم لنا فى شعره معالم الطريق ، ويستن للعروبة خير السنن ، فعاطفته المشبوبة ، صادقة الحس ، أمينة التعبير ، وذوقه من الدقة ، بحيث يلتقى مع الفطر الصحيحة من نفوس قرائه ومواطنيه ، يأخذهم العجب ببراعته ، والتقدير لفنه والتحليق بمذهبه ، انهـا عاطفة الوطنية التى صهرتها الأحداث وحنكتها التجارب ، وأعتورتهـا السنون

ولقد كان شـــاعرنا ينفس عن نفسه بروح الدعابة والفكاهة فى مجالسه وسمره بين ندمائه فاذا ماتحمس لتسجيل حادثة اهتزت لها جوانب نفسه ، جاء بالسحر الحلال من القول ، وبالمثل الشرود من المعانى ، ونفض عن نفسه تلك السخرية اللاذعة الى حيث الجد الصراح

أن عروبته الخالصة ، ومصريته الصريحة ، وقـوميته العتيدة لم تكن جميعا لتدع له فى مجال الجد بقية من عبث أو لهو ، ومن هنا كان حافظ شاعر الوطنية فى عصره ، غير مدافع . وكانت عاطفته طاغية بتلك الترنيمات الخالدة .

لقد كان يدافع عن وطنه وعن عروبته ، بالقدر الذى كان يسمح له بالحجاج والقراع ، وحسبه وقد أسرف فى كل ذلك ، أن يتوج تاريخ مصر بهذه اللمحات الصادقة التى تبهر العـالم ، حيث يتطلع الى شاعر مصر ، وهو يكتب الأحداث الكبرى ، ويوقع بمزهره أنغـام شعبه وهى حبيسة فى صدر أمته ، خشية بطش المستعمر ، وجبروته .

أجل لقد سجل حافظ كل ذلك فى شعره ، وهو ينطوى على روح من روح الزعامات الموجهة فلم يكن يبكى ويستبكى فحسب ، وانمـا كان يرسم ويخطط ، ويدفع ويناشد ، ويلاحى ، ويحاجى .

(يريد منا أن نتبوأ مقعدنا بين الأمم ، وأن نرفع عنا نير الاحتلال ، وأن يتعادل الشرق والغرب وأن تكون حياتنـا الاجتماعية خيرا مما هى ، فلا تواكل ، ولا استنامة ولا خنوع ، ونحو ذلك من وجوه الاصلاح) .

كما يشير الاستاذ أحمد أمين . فيما سجله عن حافظ فى مقدمة ديوانه .

وهذه الوطنية ..

أما وطنية حافظ ، فلا يكفى أن نلم بهـــا فيما ألمعنا من حديث عن جانب من عاطفته ، فان وطنية حافظ مدرسة، لا ، بل شعلة متقدة ، وكان لهب هذه الشعلة ينبثق أخيرا من عصره الذى كان يعيش فيه .

أما فطرته ، فانه نزع بقوميته بوجه عام ، وبمصريته بوجه خاص الى حب هذا الوطن فقد شب فى أحضانه ، وترعرع فى ضفافه ، واكتسب مقومات المواطن الصالح . انه مصرى تقلب فى شعاب الوادي ، وعبر شطريه مصره وسودانه ، والتقى بآماله وآلامه ، حفظ أغانيه ، وترنح بأشجانه ، وأستظل بصفائه ، وسمائه .

فصادفت فطرته الاسلامية وعروبته العربية بمـــا فيهما من مناقب وأمجاد ، هذا الغذاء الموائم لمثل هذه الفطرة العليا .

واذا كان والده « ابراهيم افندى » مهندسا يخطط السبل العامة، ويشيد المعابر ، والقناطر . ويهدى طريق النيل فى انسياب خلجـــانه بمصر العليا فقد جاء حافظ صورة من والده ، يخطط ويمهد ، ويرسم ولكن فارقا واضحا وبونا شاسعا بين الوالد والولد .

فقد كان حافظ يخطط أهداف أمة ، ويرسم غايات شعب ، ويمهد طريقا الى حضـــارة وعزة واذا كان أبوه مصريا صريح الأرومة فى مصريته ، فكذلك كان ابنه « حافظا » بعيدا فى استمساكه بهذه الآصرة المقـــدسة . فقد كان وفاؤه لمصر وللعروبة مذهبا ، نلقبه نحن بالوطنية وهى التطرف فى الوفاء والاغراق فى السخاء . فلم ينزع اليه من العرق التركى عن أمه مايشوب النوازع العليـــا من مصريته . فقد كانت أمه تركية، وكان جده لامه آنذاك (أمين الصرة فى الحج) ولعل «أمير الحج» هذا على عصره كان مصدر الاشعاع الدينى فى حياة الشـــاعر اذ أن حنين الشاعر الى صحبة الاخيـــار من رجال الدين وقادة النهضة العربية ما كان ليجىء الا من بيت له بذلك اللواء المضىء ومضات وتلماح .

ولعل ما جاء فى شعر حافظ مما ترنح به من صبوات نحو الترك ، انما كان تمجيداً لشأو الاسلام . الذى كان يتمثل فى الخلافة الاسلامية . وهى قائمة فى بيت السلاطين !

ولى أمر الولد بعد وفاة والده خاله ، وانتقـــل الطفل من ديروط فى الصعيد ــ حيث ولد ــ الى القاهرة . حيث يقيم راعيه الجديدالذى دفع به الى مدارس تشابه مدارس « محو الأمية » على عهدنا وهى المرحلة الابتدائية ، فدخل المدرسة الخيرية بالقلعة ، ثم القربية ، ثم المبتديان .

وختم طوافه بالسفر لاقليم آخر حيث ضرون العيش فأقام مع خاله (بطنطا) أى أنه انتقل من الصعيد الى القاهرة ثم الى قلب الدلتا ..

وكانت يد القدر الحانية فى انتظار هذا الموهوب ، لتتولى اخراجه على النهج المحدد له . لقد بدأ يستقى من روح الله . من نبع الدين ، من أصل الهداية ، .

اخذت الملكة تنمو فى ظل التوجيه الراشد ، والهدى الصحيح ، كان يقرأ القرآن ويقيم الصلاة ويصوم رمضان وتلك سمات الشباب المستقيم ، وكان من صحابته أمثال الشيخ عبد الوهاب النجار ، وكان النبع الذى يستقى منه هو وخلصانه (المعهد الأحمدى) . فصحبته لاخوانه طلبة ذلك المعهد ، وهم يجتمعون معا فى صـــلاة ، وصيام ، تضىء جوانب نفسـه .

من هنا نشـــأ حافظ ، وجاء غراس ذلك الدوح السـامق ، من هذه الجبلة الطاهرة ، والصحبة المختـــارة ، والطريق الواضحة بدأت وطنية حافظ .

عبد الوهاب النجار

يحدثنا الشيخ عبد الوهاب النجار عن حافظ بقوله :

« لقد أحسست من نفسى ميــلا اليه ، بجاذب من الأدب الذى كان نهمة نفسى حتي آل ذلك الى غرام بأدبه ، وما يشتمل عليه من ظرف ولطف محاضرة ، وطبيعة مطاوعة ، وسرعة خاطر ، وحضور نادرة » احســـاس كريم ، وميل فطرى الى موهبة نامية ، وشعلة مقدسة ، أضاءت جوانب هذه النفس الحرة . فلم تخف على الخلان والعشراء .

وفى سن السادسة عشرة تتألق هذه الطاقة بمثل ماأشار اليه هذا العالم الكبير في مذكراته « غرام بأدبه وما اشــتمل عليه ، طبيعة مطاوعه ، وظرف ولطف » .

بهذا كان يعد القدر حافظا ليشارك فى بناء أمة واذ يعود الشيخ الجليل فيسرف فى التعبير عن ذكرياته مع الشاعر بقوله :

« وقد قضينا رمضان هذه السنة نصلى المغرب والعشـــاء ، والتراويح معا ، ثم لا نلبث فى سمر ممتع ومطارحة للشعر ، ومذاكرة لنوادر الأدب ، وما كان يطرفنى به ممـا يقف عليه من جيد القريض الى أن يأتى وقت السحور ... الخ »

دأب فى عبادة ، ومذاكرة فيما يفتق الذهن ويصـــقل الموهبة ، ومطارحة فيما تبدع الخاطرة وتجيد وسـائل التربية ، والخلق والابتداع بل والتهذيب ، مما هدته اليه العناية . ليقطع الطريق الى حياة عليــا ، تبرز فيها مكتنزات الملكة بفن وضىء ، لماح .

ثم يدخل الشاعر دربا جديدا من دروب الحياة ، ليزداد فيه صقلا ، ويتزود خبرة وتجربة بفنونها ، وشئونها . فسوف يكون له اللواء المعقود فى التحدث باسم أمة ، والشكاة عن آلامها ، والتغني بأمانيها .

كرامة الفتيان

وحين تتفتق الموهبة ، ويلمح بصيص النور من شـعاب روحه ، وتستيقظ حاسة الكرامة فيه . يدرج الى سن الشباب ، ويرى ما هـو فيه من فقر ويتم ، وما يلحظه من ملل فى نظرات القيـم عليه ، لا يتردد فى أن يترك حياة المذلة . كما تراءت له فيفارق هذا البيت ، ويترك لخاله تحية رقيقة يعتب فيها عليه ، ويودعه بأسلوبه الساخر :

ثقلت عليك مؤونتى   انى أراها واهيـة
فافرح فانى ذاهب   متوجه فى داهيـة

هى العقدة التى يقررها اليوم علماء النفس . والتى لازمت حافظا من صـباه الى شيخوخته يشكو ، ويشتكى لغيره ، ويتوجع ، ويأسى لاخوانه .

لم يكن يدور بخلد أحد من معاصريه أن هذا الفتى الذى يناغى الموت ويتودد اليه ليخلص من حياة الفاقة ويستريح من التشكى .

لم يكن فى حسبان أحد ، على أيامه تلك ان هـذا الطير الحزين اللهفان انما هو صـداح الشرق المطرب ، بل ، وأذان الحرية المذخور لوقته .

مدرسة الحياة

ولكنها الحياة مدرسة لصقل الانسان ، تقوم عليه بشتى التجارب حتى تعركه . ثم تعده لما ندب له من رسالة كريمة ، وهداية سامية .

لنله مع حافظ أوبه فى تلك السنين وهو يبكى ويردد شكاته :

عجبت لعمـرى كيف مد فطالا   وما أثرت فيه الهمـوم زوالا
وللموت مالى قد أراه مبـاعدا   وجل مرادى أن أوسـد حالا
فللموت خير من حياة أرى بها   ذليلا ، وكنت السيد المفضالا .

سـوف نضحك نحن الشيوخ ، ثم نضحك ، لشأن الانسان حين يلم به اليأس من الحياة والشـكوى من الزمن ، لا يعلم ما أخفى له من قرة عين . وحسن الذكرى .

انه الاعداد الطبيعى ، انهـا الطاقات النفسـية ، التى يدخرها الخالق سـبحانه ، وعلى قدر ، وكيف يصـدح هذا الطائر بأناشيد البشر والبهجة ، وهـو وتر التحرير الذى رصده الله سبحانه ، ليناغى أمة بأسرها . يحدو شكاتها ، ويمسـح عبرتها ويحمل لواء القافلة الى قصد الطريق .

وانتقل شـاعرنا الى درب جديد من دروب الحياة ، وطوعت له نفسـه ، واستعداده أن يشـتغل بالمحاماة ، فولج هذا الباب واشتغل بمكتب « الشيخ محمد الشيمى » بطنطا .. فلم يقض عنده لبانة .

وانما تركه مودعا ، كما ودع خاله من قبل ، وترك له معنى التحية الكريمة التى أزجاها بالأمس ، على قدر بيانه ولسانه الذى آتاه الله .

جراب حظى قد افرغته طمعا ... بباب أستاذنا الشيمى ولا عجبا
فعاد لى وهو مملوء ، فقلت له ... مما ؟ فقال من الحسرات واحربا

.. ان مع العسر يسرا ..

ويريد القدر الحانى ، الآن يمسح بيده الرحيمة دمع هذا اليتيم، فينتقل الشاعر الى مكتب المحامى (محمد أبى شادى بطنطا أيضا) ويحسن المحامى الى الشاب ويرعى أدبه ويقدره حق قدره : ويغتبط الفتى لعمله . ويحتفل له ، ذلك لأن المحامى (أبا شادى) كانت روحه الى فن الأدب أقرب منها الى مهنة المحاماة !

فاتفق الأديبان ، وتغنيا معا ما شاء لهما الزمان .. ثم انتقل الشاعر الى مكتب محام آخر ، ومضى فيه فترة أخرى من الزمن .

ولكن طبيعة الشاعر لا تقف عند مشهد بعينه ، فهو طير يقع كل يوم على غصن ، وينزل الرياض متنقلا بين أزاهيرها ، وخمائلها يصدح ، وينوح هناك ، تلك هى حياة الشاعر فلم يكن بدعا أن يمل حرفة المحاماة .

غمار جديد ..

وتشاء السماء الا أن يدخل شاعرنا فى غمار جديد ، ومن نوع جديد ، يدخل الطير القفص لتحوطه الاسلاك ، والأشواك . ليمتحن نفسه ، ليكبت حريته ، درس جديد ، بل هو الدرس فى حياة حافظ ، ذلك أن يلتحق بالكلية الحربية ، ويخضع لنظمها ، وينساق في غمارها ويصدع لما يلقى عليه من أوامر تجافى روحه وطبيعته .

ان لحافظ أستاذا سطع نجمه ، وذاع صيته ذلكم هو البارودى ، رب السيف والقلم ، انه المدرسة الحقيقية التى درس عليها واستقى منها حافظ مع غيره من شعراء الجيل على عهده .

وطماح الفتى يدلف به الى هذا المعترك ، أو هو الميل الى وظيفة مرموقة ، تجزئة برزق كريم أوفى ، أو هو السمت والبزة . فى مظهر الضباط ، أو كل ذلك أو بعضه على نهج البارودى بل هو القدر المتاح ، يعد من هذا الشاعر أمرا .

وكيف ، وأنى ؟ كان يتأتى لمثله أن يدخل فى غمار العسكريين ، والسياسيين من غلاة المستعمرين ، ودهاة القراصنة . اذا لم يكن من برنامج حياته المعد أن يدخل الكلية الحربية .

الشاعر فى السودان

أخذ حافظ مكانه من وظائف الدولة عقب تخرجه فى الكلية الحربية ضابطا ، ثم سافر الى السودان . فى حملة « اللورد كتشنر » ، وهناك عاودت الشـاعر طبيعته ، فحن الى الحياة فى مصر ، فراح يناغيها على شوق :

متى أنا بالغ يا مصر أرضـا ... اشم يتربها ريح الملاب

واذا كان لنا أن نقف مع الشـاعر هنا وقفة أستشراف لحاله فى السودان وبحث وراء عوامل نفاره من الأقامة بها ، فان أمانة القلم تملى علينا أن نقتطف طرفا مما سـجله فى هذا الجو الاسـتاذ المرحوم أحمد امين ، اذ يسوق فى ذلك :

« تبرم حافظ من عمله بالسـودان ، وأكثر من الشـكوى الى أصـدقائه ، وعاوده داء الملل القديم . ولم يطق جو السودان ، وأكثر من الشكوى الى أصدقائه ، وعاوده أصدقاؤه فى مصر وليالى الأنس بها وجوها البديع ، وعيشـها الناعم : كما يدل على ذلك شـعره فى هذه الفترة » .

قال فى ذلك يصف حاله :

وما أعـذرت حتى كـان نعلى ... دما ، ووسـادتى وجه التراب
وحتى صـيرتنى الشمس عبـدا ... صبيغا بعـد ما دبغت أهابى
وحتى قلم الامـلاق ظفـرى ... وحتى حطم المقـدار نـابى
متى أنا بالغ يا مصر أرضـا ... أشـم يتربها ريح المـلاب

« وزاد حاله سوءا فى السودان كراهية كتشنر له . اذ كان حافظ غير معنى بنظام ، ولا مراع لحسـن هندام . وعبر عن ذلك بما كتب به الى الاستاذ الامام من السودان اذ يقول :

وقعدت همة النجمين ، وقصرت يد الجديدين عن ازالة ما فى نفس

ذلك الجبار العنيد : فلقد نما صبضغنه على ، وبدرت بوادر السوء الى .
فأصبحت كما سر العدو ، وساء الحميم » .

وكان رئيس فرقته « رفعت بك » يكرهه ويرفع التقارير السيئه عنه ، اذ كان حافظ يعمل الأراجيز فى ذمه يحدو بها هو وأصحابه . فمنها قوله :

تراه اذ ينفخ فى المزمار — تحسبه فى رتبة السردار
يجتنب العاقل والنبيها — ويعشق الجاهل والسفيها

ويواصل الأستاذ أحمد أمين عرضه فى قوله :

« وأفادته أيام عمله فى المحاماة ،فاستغلها فى السودان ،فقد عرف بين اخوانه بقوة الحجة وحسن البيان ، فكان كثيرا ما ينيبه الضباط المتهمون فى الدفاع عنهم أمام المحاكم العسكرية . .

حتى اذا جاءت سنة ١٨٩٩ م حدثت ثورة السودان . اتهم فيها ثمانية عشر ضابطا كان من بينهم حافظ ، فحوكموا ، واحيلوا الى الاستيداع »

أحداث ، وأحداث، تمر بهذا الضابط فى سنى تجربته فى الحياة ، وأنى له الصبر فيستقر على حال ؟ وهو يهزأ بكتشنر ويعيبه بين صحابته من الضباط ، لا بل ، ويسخر من رئيس فرقته سخرية لاذعة !

يقول الاستاذ أحمد محفوظ فى كتاب له عن حافظ «انه كان يكتب الاستقالة من عماله فى الجيش ظهرا ، حتى اذا أقبل الأصيل بنسائمه مزقها . فأى حال تلك التى كان يتقلب فيها هذا الشاعر ، وأى ضنى كان يواكبه ويغاديه ؟ .

لقد ابتلى بهذه المحنة العسرة ، ولافكاك له من حياة العسف ، فرئيسه حنق عليه ورئيسه الأعلى يعمل على البطش به . « فقد بلغ حنق كتشنر من حافظ انه كتب امام ملفه الخاص . « لا يرفت ، ولا يرقى »

لقد كان يخرج من نكال الى نكال ، من ليل الى أحلك منه . فهو يعيش فى جو من الدس والكيد والوقيعة ، وانى له أن يجيد هذه الفنون من وسائل الحياة الدنسة ؟

ويسوق لنا حافظ نفسه فيما سجله عن هذه الايام وقد أخذ

بتهمة التمرد مع نفر من زملائه يصف نزاهة المحقق الانجليزى المفقودة ، وضروب الارهاق التي كانوا يسلطونها على الابرياء :

« ولما اهتــدى المحقق الى مالا تهتدي اليه الكهنة والمنجمون من معرفة الغيب ، وجمع فى خريطته ما يربو على ثمانين اســـما خف الى كبيره وقد حمل ظلما ، فو الذى علم آدم الاسماء كلها ، ما اشـــتملت خريطة المحقق على اسم وصاحبه ، غير مكذوب عليه . فقال له كبيره ، وقد نظرفى الأمرنظرة الحكيم :انني لا أرى رأيك فى عقاب هؤلاءالثمانين، وما جرت الثورة العرابية الى ما يقارب ذلك العدد ولـكن نضرب عليهم القداح فمن صـادف النحس سـهمه حق عليه العقاب و لاتجاوز تلك القداح أنامل الكفين عدا ، فاذا فعلنا ذلك أمنا شر العاقبة وفزنا بالغاية من ارهابهم ، وما أحسبهم بعد ذلك الا قـــد صدفت قلوبهم وانصرفت وجوه بعضهم عن بعض ، ومتى انتهى فصــــل العقاب عمدنا الى النظر فى وجوه مطالبهم ، فأدخلنا بعض التعديل على قانون معاشهم ، وحبونا بعضهم النياشين »

وبهذا أحيل الشاعر الى الاستيداع على نحـــو ما أسلفنا ، وأصبح راتبه أربعة جنيهات وجرر ذيل الأسى الى القـــاهرة ، وبدأ كفاحه من جديد .

سعيت الى أن كدت انتعــل الدما ... وعــدت ، وما أعقبت الا التندما
لحى الله عهد القاسطين الذى به ... تهدم من بنيانـنـــا ما تهـــدما
اذا شئت أن تلقى السعاده بينهم ... فلاتك مصريا ، ولا تك مســلما
ســـلام على الدنيا سلام مودع ... رأى فى ظلام القبــر أمنا ومغنما
أضرت به الأولى فهام بأختهـــا ... وان ساءت الأخرى فويلاه منهما
فهبى رياح المــوت نكباء واطفئي ... سراج حياتي قبل أن يتحطمــا

ويشكو ، ثم يشكو :

وقد غدوت وآمالى مطـــرحة ... وفى أمورى ماللضــــب من ذنب
فان تكن نسبتى للشرق ما نعتى ... حظـــا فواها لمجد الترك والعرب

لقد عركته الأحداث وصهرته الكوارث ، فهو بكاء ، قد استبد به الألم وخاصة بعد أن احيل الى المعاش بناء على طلبه ، فتملكه اليأس ، ولم يكن له من أنيس أو سمير غير شــعره الذى ينفثه ترويحا عن أحزانه وأشجانه ، ورصدت حركاته وسكناته .. فهو يقول :

اذا نطقت فقاع السجن متكأ　　وان سكت فان النفس لم تطب

ولم تكن تلك الحادثة التى أطاحت بحافظ من السهولة بحيث تمر به ولا يأبى لنتائجها فقد كانت فتنة كقطع الليل المظلم

ويذكر اللورد كرومر طرفا منها فى كتابه « عباس الثانى » فيقول:

عندما شبت حرب جنوبى أفريقية عاد كثير من أفضل الضباط البريطانيين الذين كانوا يقودون فرق الجيش السودانى ، الى فرقهم الاصلية ، فى الجيش البريطانى ونظرا لبعض الملابسات التى لا حاجة بى الى ذكرها • والتى ما كانت تقع لو لم يضطر هؤلاء الضباط الخبيرون الى السفر ـ حدث استياء فى الجيش ، وجاهرت فرقة من فرق الجيش السودانى بالعصيان . وقد كثرت الاشاعة بأن الخديو قد قال أقوالا تجعل الثائرين يعتقدون انه راض عنهم عاطف عليهم ، على أن الثورة أخمدت بدون اراقة دماء ، وحوكم عدد من الزعماء أمام المجالس العسكرية ، وحكم عليهم بالسجن مددا مختلفة . وارسلوا الى السجن ليقضوها به •• ولما حادثت الخديو فى هذه المسألة رأيت من الحكمة أن أتجاهل ما كان يقال عن اشتراكه فى الثورة • لأن ذلك لا سبيل الى اثباته . واقتصرت فى حديثى على وصف الحادثة ، والخيانة العظمى التى ارتكبها بعض جنده نحو سموه ، واقترحت عليه أن يرى المحكوم عليهم ، ويخاطبهم بكلمات اخترتها ، وعربتها له ، فوجد الخديو نفسه فى مأزق حرج ـ وموقف لا يدرى كيف يخرج منه ، لأنه اذا رفض يعرض نفسه للشبهة فى أنه حرض على الثورة فى جيشه ، كما فعل جده من قبله ، واذا قبل يتضح للثائرين أن لا أمل لهم بمساعدته ، وبذلك يفقد كثيرا من احترامه ونفوذه فى الجيش على أنه ـ كما كنت أتوقع ـ اختار الامر الاخير »

هذه هى الحال التى أتيح لشاعرنا أن يشهدها ، حرب باردة اساليب لم يألفها ، وليس له اليها من طلب . مواقف حرجة يزج فيها زجا ، ثم لايجد له منها مخرجا وينتهى به الأمر الى أن يعود من حيث بدأ .

دروس وعبر ••

خرج حافظ من هذه التجربة بدروس وعبر من أهمها :

أنه لم يعد يحفل لحادثة تمر به بعيد وسيان عنده الحياة ، حلوها

ومرها . وبذلك تزود من زاد الفلاسفة زادا رفيعا استطاع به فيما بعد أن يدلى بالحجة البالغة ، والمثل الشرود .

كما انه درس طبائع هؤلاء السادة المخادعين ، ووقف على جوانب من دقائق حياتهم السياسية ، فأخذ يواجههم بصراحة ، وصرامة فيما بعد ، وحفل شعره الوطنى فى هذا الميدان بلون من الادب اتجه فيه الى الجمع بين وظيفتى المحاماة ، والجندية فكان مدافعا ، منافحا . كما استطاع أن يصادق الأدب ، ويتابع البحث والدرس والوقوف على نتائج قرائح الشعراء السابقين . محتفلا بحياتهم الأدبية غارقا الى الاذقان فيها فوعى بذلك ما وعى من هذه الفنون الرائعة ، مستكملا ثقافته الأدبية التى حرمها بسبب نقص تعليمه واتجاهه ، الى الكلية الحربية . واذ كانت هذه السنى من حياته هى سنوات شبابه وفتوته ، فقد كان عراكه فيها وجلاده : استزادة من زاد الحياة الواقعية ، يدخر منها لشيخوخته مارضى به فى أخريات حياته ، كل الرضى .

فى دار الكتب

وقد انتهى به السعى والبحث عن وظيفة يخلد اليهـــا أن عين بدار الكتب بمرتب مرضى فاستطاع بهـــذا الوضع أن يتزود من معين الأدب الصافى فى يسر وسعة وأن يسترد ما حرم منه من مورد للعيش المطمئن الهنىء .

يقول الدكتور طه حسين :

« فى سبيل الله هذه الاعوام الطوال التى قضاهـــا حافظ فى دار الكتب لا يعمل شـيئا ولا يقول شـيئا ، وانما يقضى صباحه بالدار يعبث بالموظفين ويتندر عليهم ، أو على باب الدار ، يدخن ســيجاره الضخم ، أو قهوة دار الكتب يدخن الشيشة ، فاذا كان المساء أنفق وقته بين أصدقائه فى الاندية الخاصة . أو العامه » .

« على هـــذا النحو قضى حافظ ثلث حياته يرثى من مات ولكن بحساب ، ويقول هذا الشعر الذى يقـــال فى المناسبات ، والذى لا يدل عادة على شىء ، ولا تـكاد ترد الحـرية الى حافظ باحالته الى المعاش حتى يتنفس »

« واذا هو قد اتصل بالشعب من جديد . واذا هو يتأهب لينفجر وليرســل زفرات الشعب نارا مضطرمة تلتهم ما حولها . ولكنه شيخ قد تقدمت به السن وذهبت بقوته الراحة فى دار الكتب .وضاع نشاطه هباء مع دخان الشيشة والســـيجار . فلا تثبت قواه الفانية ، لهذه الأمانة الثقيلة التى نهض بها شـــابا وكهلا . وكان يستطيع أن يستقل من حملها حين بلغ الاربعين ، وحين أسند اليه المنصب فى دار الكتب ، فيقضى بها ، وان أصدق ما يقال فيه قول الشاعر القديم فى عمر :

قضيت أمورا ثم غادرت بعدها   بـــوائق فى أكمـــامها لم تفتق

دفاع

ومن الانصاف لهذا الشاعر الا نترك حافظا معلقا برأى الدكتور طه ذلك الرأى الذى أوردناه • وهو حقيقة واقعة ، دون أن ننبه الى الظروف التى الجأته الى ذلك .

وقد أشار الى هذا المعنى الدقيق المرحوم الاستاذ احمد أمين يدفع عن حافظ القعود والكسل عن الانتاج وهو فى دار الكتب • بقوله :

« ظل حافظ يغنى بشعره التقليدى ـ أولا ـ والجديد ـ ثانيا ـ نحو خمسة عشر عاما تنتهى سنة ١٩١١ ، لما عرضت عليه وظيفة دار الكتب .

وطبيعى أن الوظيفة الحكومية ، لم تكن تتفق وشعر حافظ السياسى ، والاجتماعى فهو يدعو المصريين الى الثورة . والانجليز الى الجلاء ، وحرام على الموظف وقتذاك ان يتكلم فى السياسة ، وان يتصل بالجرائد فكيف يسمح بالشعر السياسى عامة • ولشعر حافظ خاصة ؟ .

« كان حافظ يفهم كل هذا حق الفهم ، فلما قبل الوظيفة كان معنى قبولها سكوته فى هذا الباب ، وقد بر بوعده ، ووفى بشرطه غالبا ، فلم يقل من الشعر الا قليلا . وفى مناسبات ملحة ، بتحفظ تام وحذر شديد . أو أن تحميه الظروف » .

« عيره كثيرون بذلك وبقبوله الوظيفة ، ولكن لماذا نعيره وحده بالوظيفة ولا نعير من ألجأه اليها ؟ لماذا نطلب منه التضحية بقوته ، ونؤنبه على سكوته ، ولا نؤنب الأمة وقتذاك تعجب به ، ثم يتبخر هذا الاعجاب ولا يتحول الى قليل من مال يتبلغ به ؟ » •

حظ الشعراء

ويجهر الاستاذ أحمد أمين بقولة الحق في انصاف الرجل على هذا النحو ، ويفيض في هذا بقوله :

« الحق ان الأمة فى تاريخها الماضى ، ابدت جمودا عجيبا وشحا اليما فى حافظ وأمثاله ، تصفق لهم طويلا ، وتتركهم يالموت . من الحاجة الىضروريات الحياةوتعينهم اذا ركنوا الىالوظيفة .ولاتشجعهم بقليل مما فى أيديها ، وتنعم وتغرق في الترف . وتدعو المغنى ان يغنى لها ، ثم تضن عليه بأجره ، فاذا طالبها به غضبت منه .

اذا فليس من العدل أن نسرف فى نقده على صمته ، ونعيبه بكسر عوده وقيثارته . فله انيفعل ما فعله غيره من قبله .

غزلت لهم غزلا رقيقا فلم أجد لغزلى نساجا فكسرت مغزلى

انما يصبح أن يوجه اليه نقد من نوع آخر ، وهو أن حافظا لم يكن يستطيع ـ حقا ـ وقد قبل المنصب فى دار الكتب أن يقول الشعر فيما كان يقوله فيه من قبل من اجتماعيات وسياسيات ، ولكن لماذا سكت عن فنون الشعر الأخرى ، والمجال أمامه فسيح ؟ فليس كل شعره سياسة واجتماعا ، فهناك شعر الطبيعة ، وهناك شعر القصص ، وهناك شعر الوصف ، وغيره من أنواع الشعر ، ولم تكن وظيفته تمنعه أن يقول فى كل ذلك أو فى شىء من ذلك ..

« ولكن ماذنب حافظ ، ونبوغه انما كان فى ثورته ، واجادته فى فورته ـ وطبيعته وتعليمه ، ودربته تدعو الى النبوغ فى سياساته واجتماعياته ، لا فى غزله وخمرياته وما يعيب الموسيقى أن يكون ملك العود ، وليس ملك القانون ، أو ملك الكمان وليس ملك الناى ، فملك فى احداها خير عندى من سوقة فى جميعها » .

وبهذا أوضح لنا الاستاذ أحمد أمين كيف أن الشاعر انما كان يصدر عن طبيعة مميزة وأن التكلف لم يأخذ عليه سبيله فى الحياة . وهى ميزة الشاعر الملهم المطبوع .

ولعل حافظا يصادق ذلك بقوله فى استقالة « اسماعيل صبرى » من منصبه وكان وكيلا للحقانية :

فاطرح معاذير السكوت وقل لنا هلا وجدت الى الكلام سبيلا
واضرب على الوترالذى اهتزت له اعطافنا زمنا وحى النيلا

الشعر ورسالة الادب

فطنت الحكومات العربية الوطنية ، والشعوب العربية الى مدى هذه القوة الجارفة فى هزيمة المستعمر ، القوة الروحية التى ايقظتها تلك الاناشيد الحماسية ،والأغانى الوطنية وكان لابد من أن تفيد الدولة من كل أسلحتها لخوض المعركة .

وكان لا بد من اعداد تنسيق وتنظيم أسلحة جديدة لمواصلة الزحف المقدس . فالغاية بعيدة ، والنصر حتم والطريق طويل ، ومن بين هذه الاسلحة سلاح التعبئة الروحية ، ومن أهمها سلاح الأدب . ذلك السلاح الذى يشير اليه الرئيس جمال عبد الناصر فى افتتاح مؤتمر أدباء العرب العام سنة ١٩٥٧ . فى قوله المأثور :

الرئيس جمال ...

« الأدب والفلسفة سلاحان أساسيان فى هذه الحرب ، فأنتم قادة الفكر ، عليكم واجب أساسى فى توضيح الأمور . وفى اقامة أدب عربى متحرر مستقل . خال من السيطرة الأجنبية ، أو التوجيه الأجنبى ، وبهذا يمكن أن تساعدوا ، وأن تعملوا فى سبيل التضامن العربى ، وفى تدعيم القوميه العربية ، وتحقيق أهدافها »

قائد نهضة ، ورائد أمة ، يجتمع بأدباء العرب ليشارك معهم فى رسم الطريق ؛ والتوجيه والارشاد ، فيشيد بما لهذا السلاح من أثر وخطر .

ان فى هذا المعنى لتكريما لكل قلم ، وتقديرا لتلك القيم التى عاشت وتعيش لرسالة مرجوة ، مطلوبة فى دعم الحرية ، وانارة طريق الحضارة .

هذه كلمة الرئيس جمال ،وهو ينظم الطريق الى عزة هذا الشعب وسيادته ، ويضىء الطريق ويفيد من كل سلاح .

وفى هذا أيضا يتحدث رئيس المؤتمر السيد كمال الدين حسين مفصلا هدف المؤتمر وغاياته ، وارتكازه على دعم القومية العربية .

كمال الدين حسين

يقول السيد كمال الدين حسين .

« حين نلتقى فى هذا المؤتمر لنبحث موضـــوع الادب والقومية العربية ، نستهدف غايتين ، نحس بالحاجة اليهما احساسا عاما »

أما أولهما : فهو المحافظةعلى هذا التراث الادبى المشترك وتجليته، ودراسته على نحو جديد ، فى ضوء ايماننا بالقومية العربية الجامعة .

وأما الأخرى فهى المـــلاءمة بين ما ننـــتج من فنون الأدب ، وبين أهداف نهضتنا القومية الحاضرة ويضـــع الوزير المســـئول عن الأدب والثقافة فى مصر آنئذ النقط فوق الحروف • فى ذلك التخطيط • بقوله:

((ان كل نهضة قوميةلابد لكى تستكمل عناصر القوةوالاستمرار ، ان يكون الأدب دعامة من دعائمها • ، ولابد من ابتكار وسائل التشجيع للعاملين فى هذه الميادين ، والعمـــل على الارتفاع بمســـتوى الانتـــاج الفكرى)) •

((ولابد أن تستند كل نهضة الى دعائم من فنون الادب تدعو لها وتساندها الى غايتها لتكون مبادئها عقيدة راسخة فى كل قلب ، وانفعالا واعيا فى كل نفس ، وحركة ايجابية فى كل جامعة » •

« ان كل النهضات القومية التى باشرها التاريخ انمـــا صنعها أدباء ومفكرون قبل أن يصنعهـــا القادة ، والقادة من النهضـــات القومية هم الصورة المتبلورة من روح الجماعة وهمالتعبير الصريح من وعى الشعب، صدى الانفعال القومى العام)) •

((الادباء وأهل الفكر هم الذين ينفخون فى الشعوب تلك الروح ، ويوقدون الوعى ، ويحدثون هذا الانفعال)) •

زكى مبارك

واذ يحدد لنا الدكتـــور « زكى مبارك » مفهـــوم القومية العربية يبعد بنا عن لغط المتخرصين فى أن القـــومية العربية أن هى الا عنصرية متعصبة ، تقوم على أســـاس الجنس ، وتفضيل الدم العربى ، على غيره من دماء البشر . وهل هنـــاك اليوم دم عربى صريح بعد هذا الامتزاج ، وعقب الفتوحات الاسلامية ، وتداخل الشعوب بعضها ببعض ، عـــلى مرور الاجيال ؟

يوضح لنا المرحوم الدكتور مبارك ذلك بقـــوله « العروبة لغة

لا جنس ، وقوميتنا عنصريةولذلك فهى لا تعادى الشعوب، ولا تحقرها، ولا تصبو الى الفتح والتوسع واضطهاد القوميات الأخرى . بل هى قانعة بأرضها مغتبطة بما فيها من خيرات تريد أن تحررها من كل نفوذ أجنبى ، وأن تشيع فى أرضها العدالة الاجتماعية . والحرية الداخلية ، وترغب فى أن تقيم مع جميع الشعوب علاقة حب ومودة ، وهى معتزة بنفسها وبتراثها ، من الثقافة والخبرة ، فلا ترضى بحال أن تذوب فى قومية من القوميات أو تخضع لها . وانما همها أن تتعاون تعاونا مثمرا مع الشعوب المحبةللسلام . لتقليم أظفارالمستعمرين . وأصحاب المطامع الشريرة . ولارساء قواعد السلام على الأرض .

وهى مع اعتزازها بشخصيتها وتراثها مرنة . تقبل بصدر رحب ثقافات الشعوب وتجاربها . وتضيف منها ما يلائمها . وتضمه الى كيانها المتطور فيزداد به خصبا ونماء .

طه حسين

ويؤيد هذا ، ويصادقه ، بل ويشرحه ، ويثبته . قول الدكتور طه حسين بما يشير اليه فى تضاعيف حديثه عن الأدب والقومية العربية .

« لم يكد القرن الثانى ينتهى حتى تنظر الى القومية العربية فترى عجبا من العجب ، ترى مهد القومية العربية قد هجر ، أو كاد يهجر ، ونرى الجزيرة العربية قد عادت أوصالها الى بداوتها القديمة ، وظلت المدينة ومكة محتفظتين بما كان يدرس فيهما من الدين والعلم . ولكن البيئات القديمة،البدوية فى نجدعادت الى بداوتها وعادت الى شىء كثير من عزلتها القديمة وكادت الصلة تقطع بينها وبين البلاد الأخرى » .

واذن فالقومية العربية ليست فى الجزيرة العربية وحدها ، وانما هى قبل كل شىء فى هذه البلاد التى فتحت ، والتى امتزج فيها العرب بغيرهم ، من سكان البلاد الأصليين » ويواصل عميد الأدب حديثه فى تبيان معنى القومية العربية من واقع التاريخ بقوله :

« ومعنى هذا خطير كل الخطورة ، فهؤلاء السكان كانوا يتكلمون لغات مختلفة جدا ، وكان الفرس يتكلمون لغتهم الفهلوية ، وكان للشام لغات سامية ، وكذلك فى العراق ،وفى الجزيرة .وكان المصريون يتكلمون لغتهم القبطية ، وكانت لغة الثقافة ، والسياسة فى البلاد الشامية والمصرية هى اللغة اليونانية ، ولغة السياسة والثقافة فىالعراق وبلاد فارس هى اللغة الفارسية . ولغة الثقافة والسياسة فى شمال افريقية وفى أسبانيا هى اللغة اللاتينية ، وننظر فى أواخر القرن الثانى فاذا كل هذه اللغات قد تركت أماكنها من ألسنة الناس وعقولهم وقلوبهم لهذه العربية . »

« فالفرس يتكلمون العربية ويكتبونها ويزاحمون العرب أنفسهم فيزحمونهم ، اذ الفرس هم الذين يضعون كتب وأصول النحو العربى . واذا هم يعنون بجمع اللغة وتدوينها ويشاركون العرب فى هذا كله ، ويغلبونهم عليه أحيانا » .

« واذن هناك قومية عربية جديدة أنشأها الاسلام ، لم تكن تأتلف من عنصر عربى خالص ، وانما كانت تأتلف من جميع هذه العناصر التى رأيتموها من العناصر التى كانت تسكن كل هذه البلاد ، فأنشأ الاسلام اذن أمة جديدة وجعل هذه الامه عربية » .

« ان الشعر لم يكد ينشأ بين القبائل العربية المتفرقة المذاهب واللهجات حتى فرض لهجة بعينها على الأمة العربية كلها فى جميع أطرافها وأقطارها من الجزيرة العربية »

« فكان الشاعر العربى اذا أنشأ قصيدة وأنشدها فى جمع من الجموع فهمها عنه الناس مهما تكن قبائلهم ، ومهما تكن لهجاتهم أو لغاتهم الخاصة . ثم لم يكتفوا بفهمها ، ثم كان الرواد يتناقلونها عن الشعراء ،وكانت القصيدة لا تكاد تنشد حتى تشيع فى الجزيرةالعربية، ويحفظها كثير من الرواد فى الاقطار المختلفة من أقطار الجزيرة ، فأول توجيه للعقل جاء من هذه الناحية ، من هذا اللسان الذى أتاح للغة العربيه فى العصر الجاهلى أن تكون لغة اجتماعية » .

« فالمكون الأول فى محاولة ايجاد وحدة لهذه القبائل العربية انما هو الأدب والشعر من الأدب بنوع خاص » .

محمد صلى الله عليه وسلم

ثم يشير الى أن المكون الحقيقى للوحدة بجميع أنواعها ، وفروعها الوحدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية واللغوية ، انما **هو النبى صلى الله عليه وسلم .**

ولم ينتقل النبى الى جوار ربه الا وقد تمت وحدة الجزيرة العربية ، ووجدت قومية عربية منظمة لها قانونها ، وهو القرآن » .

.. المؤسسون الحقيقيون ..

وما أروع ما يقرره عميـد الأدب فى حديثـه عن الأدب والقومية العربية ومكانة الأديب ورسالته فيهما فى قوله :

« الشيء الذى أستطيع أن أؤكده ، وأنا مطمئن الى انى لا أتجاوز الحق ، هـو أن كل هذه الاحداث ، انما أنشـأتها الثقافة ؛ وأنشـأها الأدب والمؤسسون الحقيقيون لكل هذه الثورات ، انما هم الأدباء ، والكتاب والشعراء ، ولا شيء غير هؤلاء » .

قوالب الشعر

واذا كان لنا أن نتنفع بهذا الايضـاح والعرض فى بيان الدكتور طه حسين عن حقبة هامة من حقب تاريخ الادب ، فذلك فيما يشير به الى ظاهرة يرشـد اليها أستاذنا العميد فى حديثه ، ونحن اذ تسوقه اتماما للفائدة فانما نرد بها أيضا على أولاء المجددين فى صـور الشعر وأشكاله وهيكله ، يقول الدكتور :

« ومن الغريب أن الظواهر الأدبية التى تلاحظونها فى حياة القومية العـربية الجديدة التى أنشأها الاسلام ، والتى ألغى فيها الفروق بين الأجناس ، وألغى فيها أن يكون لعربى على أعجمى فضل الا بالتقوى ، من أغرب **الظواهر** التى ترونها **أن الشعراء الذين اسـتأثروا بالشعر ، وامتازوا فيه ، وأصبحوا هم ألسنة الأمة العربية بمعناها الجديد ، لم يكن منهم شاعر عربى خالص .**

« وكان بعضهم فارسيا ، وبعضهم نبطيا ، وبعضهم يونانيـا ، لم يكن منهم شاعر عربى خالص ، وانما كانوا جميعا من هذه الأمم التى استعربت وأعربت عن شعورها القديم ، وعن عقولها القديمـة ، وعن وجدانها القـديم فى الشعر العربى ، والعقل العـربى ، والوجدان العربى » .

غلاة المجددين

وعندى أننا ، بهذه الحقيقة نرد على غـلاة المجددين فى الشـعر الداعين الى التحلل من الوزن والقافية .

نرد عليهم ، فننبههم الى ما أشار اليه الاستاذ العميد من أن هؤلاء الشعراء المبرزين لم يتناولوا صياغة الشعر العربى على الطريقة ألتى وفدا بها على آداب العربية وكان أولى بهم أن يدعوا هم الى التجديد الذى يدعى اليه اليوم ٠ لكى يتيسر لهم السبيل ٠

ولكن الأداة عندهم كانت قد اكتملت بالاضافة الى الموهبة الاصلية فى أحاسيسهم ، فاختاروا الطريق الصحيح المساوق لفطرة اللغة ، وأركان القصيدة بعد مراحل الدراسة والاستيعاب وانى لا أعرض بأحد حين ألقى بالرأى فى هذا العوج الطارىء على آذاننا وما تناول الشعر منه خاصة فى هذه الناحية ٠

المقلدون

فلو أن متشاعرا ما اجتمعت لديه أدوات القصيد ، لما دعا الى ما يدعو اليه المقلدون ومن لم يسطع عليه نور الحقيقة الأجلى ٠

انهم يقاربون عروبتهم من الهجنة التى ألفوها والى العجمة التى اقتبسوها ، ودعوا اليها وان الأفكار الجديدة ومشاكلات العصر لا تمتد الى مثل هذه الدعوة ، وعلى هذا النحو ، من الطفرة ٠

فكم من شعراء جمعوا الى العربية ثقافات عدة ، وكان ذلك سببا فى صفاء قرائحهم وسمو انتاجهم ، ومدعاة الى ايغالهم فى الابتداع فى الشعر على النهج العربى الخالص ، بالتلوين الجديد الذى لا يمس القوالب والصور ٠

الشعر الجديد

وما دمنا بصدد الحديث عن الشعر والأدب ، فانى أستميح القارىء عفوا اذا استطردت فى البحث فى أدق مناحى الأدب الشاغل للاذهان المبلبل للأفهام ذلك الذى تصطرع النظريات الأدبية ، ولا تلتقى عند مفاهيمه ، وأعنى به الشعر الجديد ، أو الحديث •

وقد أكون أكثر توفيقا فى خدمة هذه القضية ، بعرض آراء أعلام الأدب على عصرنا ممن عنوا بتجلية هذا الموضوع ، وذلك أوفق لانارة السبيل أمام الشبيبة المذخورة ممن يتطلعون الى آفاق هذا الطريق المضىء .

يقول الشاعر الكبير الاستاذ عزيز اباظة فى تقديم لديوان احد الشعراء المجيدين وهو الاستاذ عبد الله شمس الدين صاحب نشيد « الله أكبر » أو نشيد النصر فى رأيى لما حالفه من توفيق فى حينه :

« بيد رواد الثقافة وضعت لبنات المدرسة الجديثة فى الشعر المصرى ، ونشط أساتذتها فى الدعوة لها ، حتى شغلوا الناس ردحا طويلا من الزمن ، وتوارد على منابر هذه الدعوة ، الأساتذة الاعلام : محمد السباعى ، عبدالرحمن شكرى ، عباس محمود العقاد ، ابراهيم المازنى » .

وكانت هذه المدرسة تتميز بسمات وخصائص فى انتاج أساتذتها . ثم برزت هذه السمات وتلك الخصائص فى انتاج طائفة من شعراء الشباب بقدر ما فى طاقتهم من فهم هذه المدرسة والتأثر بها . وبجانب هذه المدرسة استقام بناء مدرسة ثانية على دعائم من ثقافة أجنبية اخرى هى اللغة الفرنسية وآدابها ، وقد حمل لواء الدعوة لهذه المدرسة فى سبيل التمكين لها الشعراء الكبار ، مطران ، وناجى ، وأبو شادى رحمهم الله . وطيب ثراهم ...

وقد التقت المدرستان عند هدف واحد وغاية متفقة ، ذلك انهما جهدتا فى تهوين العناية بالاسلوب والحفاوة بالديباجة والاحتشاد للتعبير المشرق الجميل ، وقد ظفرتا بقدر غير قليل من النجاح فى هذا الصدد ، ولكنهما ــ مع ذلك ــ بقيتا مدرستين يصدر عنهما شعر رقيع المقام ، وأدب عريق القيم .

وقد أشار هذا الالحاح من ناحية هاتين المدرستين على شـــعراء آخرين ، كان يتمتع عملاق منهم بشهرة جارفة ٠

أشار هذا الالحاح فى قوة وعنف الى مدرسة ثالثة ، وقف على قمتها « شوقى » فى قدرة وثقة واصرار ٠ ولعله كان يعنى بهـــذا البيت فى مرثيته لحافظ شدة الهجوم ، وتساقط المهاجمين من حوله :

ما حطموك وانما بك حطموا   من ذا يحطم رفرف الجوزاء

مدرسة الشعر المنثور

ويوضح الشاعر عزيز أباظة فى جهر الحق حين يصـدع الباطل رأيه فى الشعر الحديث ، بمواصلته فى القول :

« ثم انشقت الأرض عن مدرسة رابعة ارتجلت ارتجالا وفجأت الناس كما يفجأك النتوء فى عرض طريق مزدحم ، وأنت آخذ سـمتك الى غاية جادة ، فاذا أصوات ملهوجة تملأ سمعك بما **هو أشبه بهذيان المحمومين ، تلك هى مدرسة الشـــعر المنثور ، أو النثر المشـــعور** التى عدلت عن الابانة الى الرطانة ، ولجـأت الى علامات الاســـتفهام والتعجب تملأ بها السطور ، لتقوم مقام الأبيـــات الكاملة ، والقوافى المتماثلة ، وقذفت برسالتها تحمل أمثال هذه التعبيرات :

الأنين المشـــنوق ، الحزن الراقص ، الصمت القمر ، الشمس المربدة ، اللانهائية الخرساء ، الى آخر هذا الفتح المبين فى لغة الجمال اللألاء ! !

وكان الشاعر « عبد الله شمس الدين » من مدرســة الشعر المصقول، القديم فى رأى الشاعر الكبير . فهو ليس من هؤلاء المشعوذين .

الدكتور مهدى علام

ولعلى أزيد الحقيقة وضوحا ، اذا عرضت هنا **الى أحـدث رأى للجامعة المصرية** عن هذا الشعر الحديث ، على لسان عميد من عمدائها ، المتخصصين فيه .ذلكم هو الاستاذ الدكتور مهدى علام . يرد على أحد الشعراء ممن له رأى خاص فى الشعر القديم ويرى أن يوضع تخطيط لـما **يسميه بالشعر الحديث** المنطلق من كل قيد . حتى قيد المعرفة . . !

يقول الدكتور مهدى علام فى مؤتمر ادباء العرب :

« **أريد أن أتكلم فى هذه النقطة التى أشار اليهـا صديقنا الشاعر الحديث الذى دعا الشعراء والنقاد والأساتذة لان يتنـاولوا تدريس الشعر والأدب ، أن يخططوا للشعر الحديث ويدعوا اليه .**

« وأنا كأحد هؤلاء الذين يقومون على خدمة هذه المادة مع زملائى المشتغلين فى الجامعة استميحه عفوا باسم هؤلاء الأساتذة ، أرجو ان تأذنوا لنا ، اننا لا نخطط فى هذا ، لأن الشعر باعتبـاره فنا من الفنون لا تقدم فيه القوانين ، ولا ترسم الخطوط وانما هو انفعال تلقائى » .

« ليتقدم به شاعر حديث فى أيةصورة يشاء ، وبعد ذلك سيثبت جداره ، أو يختفى « فأما الزبد فيذهب جفـاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » .

حافظ ابراهيم والشعر الحديث

وانى بدورى لمطمئن أستاذنا الدكتور مهدى عـلام مذكر زميلنا الشاعر المستحدث بأن الشعر العربى ، قد امتحن وابتلى ، وتعرض لمثل هذه الآفات على عهد شاعرنا « حافظ ابراهيم » اذ يقول فى قصيدة له يوجه القول فيها الى أمير الشعراء « أحمد شوقى »

أشـــكو اليك من الزمان وعصبة　　جرحت فؤاد الشعر فى أعيانه
كم خارج عن أفقه حصب الورى　　بقريضه ، والعجب ملء جنـانه
كم حك مسمعنا بجنـدل لفظه　　وأطال محنتنا بطول لســانه

التفاتة وطنية لا تفارق طبيعة شـاعر الحرية ، وردت فى سـياق استقبال أمير الشعر من منفاه بالأندلس - وردت فى سـياق غرض من الأغـراض التى عن له أن لا يخفيه . وهو قوله « وأطال محنتنـا بطول لسانه »

فهو ينعي على ذلك الشاعر الذى جرح فؤاد الشعر ، ولم يرفق بنا ونحن فى محنة الاستعمار ، ثم يستطرد فى وصف هؤلاء النفر من الشعارير بقوله :

ما زال يعلن بيننـا عن نفسـه　　حتى استغاث الصم عن اعلانه
نصح الهداة لهم فزاد غرورهم　　واشتد ذاك السـيل فى طغيانه

ويصل الى الحكمة الساخرة منهم فى قوله :

أو لم تر الفرقان وهو مفصـل　　لم يخرج البـوذى عن أوثانه

* * *

الموازين القسط

ثم يضع الموازين القسط للشاعر الذى يجرى ولا يجرى معه على حد تعبير العرب فى تقسيم الشعراء الى مراتب بقولهم :

« والشـــعراء فأعلمن أربعه فشاعر يجرى ولا يجـرى معه
وشاعر من حقه أن تسمعه وشاعر من حقك أن تصـــفعه

يضع حافظ ابراهيم فى قصيدته هذه الموازين القسط للشـاعر المبدع بقوله :

الشـــعر فى أوزانه لو قسته لظلمته بالدر فى ميـــزانه

الشعر التقليدى .. أيضا

واذ عرضنا لرأى حافظ فى الشعر على نحو ما قدمنا ، لابد لنا من الاشارة الى ما سجله من رأى فى الدعوة الى التجديد . ومظهر ذلك التجديد عنده .

وخير ما نعرضه فى هذا الســـياق ، ما جاء فى تقـــديم لديوانه بقلم الاستاذ أحمد أمين اذ يقول :

« قامت حركة فى مصر من بعض الأدباء والمثقفين ثقافة عربية ، وبعض قادة الرأى ، تعيب على الشعراء هذا الشعر التقليدى فى أسلوبه وفى أغراضه . وفى أوزانه وقوافيه ، وتشكو شوقيا وحافظا مر الشكوى لانهما قديمان فى اقطارهما مقلدان فى أغراضهما محافظان فى أوزانهما .

« وكان من آثار هذه الحركة فى حافظ أن ثار هو أيضا على الشعر القديم ، فأنشد قصيدته المشهورة فى الشعر والتى مطلعها :

ضعت بين النهى وبين الخيـــال يا حكيم النفوس يابن المعالى .

عاب فيها شعراء الشرق شعرهم فى الكأس ، والمدح ، والهجاء ، والرثاء ، وحب سلمى ، وليـــلى ، ومكان الآثار والاطلال ، والرحال ، والجمال . ثم يقول :

آن يا شـــعر أن نفك القيـــودا قيـــد تنـــابهـــا دعاة المحـــال
فارفعوا هذه الـكمائم عنـــا ودعونا نشـــم ريح الشـــمال

فكانت ثورة صاخبة على الشعر القديم ، فهل جدد حافظ بعد ذلك فى شعره هل جدد فى بحوره وأوزانه ؟ أم جدد فى أسلوبه وبيانه ، أم فى تفكيره وخيـاله ؟ **لقد جـدد فى شىء هو فوق ذلك كله ، جدد فى موضوعه ، وأغراضه ، فبدلا من أن ينظم فى موضوعات امرىء القيس ، وطرفه ، وجرير ، والفرزدق ، وبشار وأبى نواس ، نظم فى موضوعات عصره ، وآمانى قومه .**

وقد بنى شعره الجديد فىالوطنيات ،والاجتماعيات، والسياسيات وكان فى شعره يقف موقف الصحافة الوطنية ، وقادة الرأى الاجتماعيين يغشى مجالس كل هؤلاء • ويتشرب من أرواحهم • ويستمد من وحيهم ثم يخرج ذلك كله شعرا قويا . ملتهبا ، يفعل فى النفوس ، ــ وذلك شأن الشعر الحى ــ ما لا تفعله الخطب والمقالات •

فكان حافظ حقا شاعر الوطنية ، وشاعر الشعب وشاعرالسياسة، والاجتماع ، ولم يجاره أحد فى ذلك من شعراء عصره •

ونحن بدورنا نسوق للقارىء طرفا من تجديد الشاعر والاغراض التى تناولها ، استمع اليه يستحث المصلحين بأسلوبه الساحر :

واذا سئلت عن الكنانة قل لهم   هى أمة تلهو ، وشـعب يلعب

انها الاستثارة ، فى الصياغة الجيدة .

ويقول متوعدا :

النسر يطمع أن يصـيد بأرضنا   سنريه كيف يصـيده زغلول !

***

اما الذى اصطاد الأسد ، وقطع ذيله فى بورسعيد ، وخلاه بعد أن ترك به سمة المذلة . فهو بطل ثورتنا « جمال » فتحقق بذلك حدس حافظ ولكن على يد « زغلول » آخر أشد شكيمة وأقوى مراسا .

وبنفس أساوبه الساحر اللاذع يلهب ظهر الشباب ناعيا على الأمة استسلامها للغاصب . والقعود عن الجهاد :

أمة قد فت فى سـاعدها   بغضـها الأهل ، وحب الغـربا
وهى والأحداث تسـتهدفها   تعشـق اللهو ، وتهوى الطربا
لا تبـالى ، لعب القوم بها   أم بها صرف الليـالى لعبـا

***

ان حافظا بهـذا النهج فى التقـريع كان يربى الشـباب ، ويستحثهم ليقظة من سبات :

أفقنـا بعـد نوم فوق نوم   على نوم كأصـحاب الرقيم

.. حافظ يفك قيود الشعر ..

فاذا نحا شاعرنا الى فك قيود الشعر فى قوله :

آن يا شـعر أن نفك القيودا قيـدتنا بها دعاة المحال

فانما كان يعنى ترسم الأقدمين مشيرا الى ذلك بقوله :

حملوك العنـاء من حب ليلى وسليمى ، ووقفة الأطـلال

وبـكاء على عـزيز تولى ورسوم راحت بهن الليـالى

واذا ما سـموا بقـدرك يوما أسـكنوك الرحال فوق الجمال

هذا هو حافظ فى مذاهب الشعر ، ورأيه فى التجديد : ترسـم للأقدمين فى القوالب والصور ، وتحرر من المعانى القديمة ، بالتطور مع مقتضيات الحال ، ومجاراة لخصائص الحياة الجديدة فى عصره ..

ويجمل بنا قبل أن نخلص من هذا البحث فى الشعر الجديد ، أن نفيض قليلا فى تناول كثير من آراء الأعلام والأدباء فيه اتماما للفائدة . وبهذا نعرض لرأى الدكتور محمد مندور وهو أحد أساتذة الجامعة الذين أسهموا فى رسالة الادب وعلم من أعلام الصحافه ـ يقول الدكتور مندور فى مقال له عن التيار الواقعى فى شعرنا المعاصر :

« ينادى الجيل الجديد الناهض من شعرائنا الشبان بمذهب جديد فى الشعر ، بل فى الادب عامه **هو المذهب الواقعى الذى يعبرون عنـه أحيانا بقولهم :** الأدب الملتزم ، او الادب الهادف أو الادب فى سـبيل الحياة ، وحتى اليوم لم تتضح بعد حدود فكرية وفنية حاسمة لهـذا المذهب الذى لا يزال فى طور التكوين والتجديد ، وهو ما يمكن أن يعتبر تجديدا مطلقا » .

« ولو أننا قصرنا حديثنا على مجال الشعر لوجدنا أن **شـعر هذا الجيـل الناهض لم يتخلص ولا يمكن أن يتخلص من التيار الوجدانى ، لأن الشعر اذا جفت فيه العاطفة ، وخمد الوجدان لم يعد شـعرا ، وانما الذى يريده هذا الجيل** ، هو أن يستعيض عن الوجدان الفـردى بالوجدان الاجتماعى ، أى أن يصبح الشعر موضوعيا ، بدلا من أن يظل خواطر متناثرة متداعية وعواطف منسابة أو متفجرة ، وهذا التغيير فى مضمون الشعر لم يكن بد من أن يصحبه أيضا تغيير فى صورته » .

ولسـنا فى حاجة الى أن نعلق على رأى الدكتور مندور ، فهو اوضح من ان يحتاج الى تعليق ، وان كنا نرى ان اضطراب الشاعر فى حياته لابد له من رابطة بهذه الحياة ، وان انتاجه انما يرتبط ارتباطا

وثيقا بما يتأثر به فى مجتمعه . وأن الشعر غناء وموسـيقى ، والنفس الصادحة لا يمكن أن تسـتوحى النغم والتطريب الا عن نفس مطلقة ، وحياتها ، ومجتمعها ، ما هو الا صدى أحاسيسها . كما أن تطريبها ، وهزيجها انما هو تجاوب مع حيواتها ، ومشاعرها .

وهذه الدعوى الجديدة أشرنا اليها فى التحدث عن رأى حافظ فى التجديد فى الفصل السابق ، وأوضحنا أن (حافظا) نحا هـذا النحو ودعا الى ضرورة الانطلاق من قيود القديم .

وطبيعى أن كل عصر له خصائص ، ومميزات ، بل وآفاق .

الفطرة

ولا يمكن أن تكون الصور والمرائى على عهـد العصور المتخلفة من مهد الجاهلية الى اليوم وعلى تواكب عصور الأدب ، لا يمكن أن تتشابه مع عصرنا هذا ، أما النفس الانسانية ومشاعرها وصـفاتها المتصـلة بجوهر الشعور والادراك ، وما تتـأثر به العواطف والوجدانات فهو (نفس واحدة) لا يمكن أن تتغير ، وبهذا فالتجـديد قائم وهو فطرة متنقلة تتابع العصور وتتشكل بها ، هى سنة من سنن الحياة الكونية التى أودعها الله خصائص البشرية ، تتشكل مع طبيعة العصور ، لا بل ومع طبيعة الحياة . وقد نشهد فى العصر الواحـد والبيئـة الواحدة مختلفا من المشاعر والأحاسيس ، لعدد من الأدباء نشئوا معا فى هـذه البيئة بل وتأثروا ثقافة واحدة . هـذه هى الفطرة الصادقة وقد احترز الدكتور مندور فى حديثه بقوله فى استهلال الكلام عن الشعر المعـاصر بقـوله :

« وحتى اليوم لم تتضح بعد حدود فكرية وفنية حاسـمة لهذا المذهب الذى لا يزال فى طور التكوين والتجديد » .

الشعراء المتمردون

وينتقل الدكتور مندور فى حديثه الى نقطة أخرى تتصل بقوالب هذا الشعر المعاصر فيقول :

واذا كان هؤلاء الشعراء المتمردون على العروض التقليدى قـد استشعروا بعض الحرج فى الخروج عليه فانهم لم يلبثوا ان وجـدوا على هذا التجديد فيما ظهر فى بيئة حضرية ، كبيئة الأندلس التى كانت تخالف البيئة العربية المحـافظة ذات الطابع المحفلى الخـاص مخالفة واضحة ، استطاعت بفضلها أن تبتدع فى العروض العربى نظـام

الموشحات الذى يخرج على النظام التقليدى للبيت الشعرى ، وطريقة توزيع تفعيلاته بين شطرى البيت الواحد كما يخرج على وحدة القافية ، ويؤلف موسيقية ليست فيها الرقابة التقليدية ولكنها مع ذلك لا تخلو من موسيقى واضحة فى تنوعها » .

الوزن ..

ــ وقيد الوزن والقافية فى رأيى ما هما الا ظاهرتان للفن الشعرى فى أتم صوره وأكمل حالاته وهما مع هذه الحقيقة ليسا كل شىء فى الشعر .

الرافعى

يقول « الرافعى » ــ رحمة الله عليه ــ ولو كان الشعر من هذه **الالفاظ الموزونة المقفاة لعددناه ضربا من قواعد الاعراب . لا يعرفها الا** من تعلمها ولكنه يتنزل من النفس منزلة الكلام .

فكل انسان ينطق به ، ولا يقيمه كل انسان . وأما ما يعرض له بعد ذلك من الوزن والتقفية ، فكما يعرض للكلام من استقامة التركيب والاعراب . وانك انما تمدح الكلام باعرابه ، ولا تمدح الاعراب بالكلام .

هاشم عطيه

وفى كتاب الأدب العربى وتاريخه للمرحوم الأستاذ محمد هاشم عطية ما يوضح هذا فى قوله :

ومن علماء العرب انفسهم من جعل الشعر كلاما ، واجوده اشعره ، ولم يشترط له وزنا ولا قافية ، ويدخل فيه حينئذ مايشبه ان يسمى شعرا منثورا من حكمة أو مثل ، يبنيان غالبا على صواب التشبيه ، وايجاز اللفظ ولطف التصوير ، ومنهم من اشترط فيه اللفظ دون القافية ، ومنهم من جعله موزونا مقفى ، وأجاز تعدد القافية .

الجرجانى

وللقاضى على عبد العزيز الجرجانى رأيه فى الشعر .

يقول فى الوساطة :

« انه علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع ، والرواية والذكاء ثم تكون الدربه مادة له ، وقوة لكل واحدة من أسبابه فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز ، وبقدر نصيبه منها تتكون مرتبته من الاحسان . ولست أفاضل فى هذه القضية بين القديم والمحدث ، والجاهلى المخضرم ، والاعرابى والمولد الا اننى أرى حاجة المحدث الى الرواية أمس ، وأجده الى كثرة الحفظ أفقر » .

قيود العروض

ونعود لرأى الدكتور مندور ، فنعرض فقرة أخرى له أوردها فى هذا السياق قد تنفع الناشئة والمشتغلين بهذا الفن الرفيع .

يقول الدكتور مندور :

« واذا كانت الدعوة الى التحلل من قيود العروض العربى التقليدية فى وحدة البحر فى القصيدة الواحدة . ووحدة القافية ، ووحدة التنظيم فى توزيع التفاعيل بين شطرى البيت الواحد فان هذه التجديدات لم تخرج عن عروض الشعر التقليدى الا استجابة لذوق موسيقى واضح سليم عند من يستحقون أن يسموا شعراء » .

والتيار الواقعى فى رأى الدكتور مندور « تيار له أصوله الفنية التى تبلورت خلال تطورات ومعارك أدبية وشعرية متلاحقة ، وربما كانت جدته فى المضمون الاجتماعى الذى رجح كفته تطورنا السياسى الأخير نحو التفكير الجماعى والنزعة الاشتراكية الشعبية ، والدعوة الى الحد من الاثرة . . الخ . ماجاء فى تعريف التيار الواقعى فى الشعر المعاصر »

ولست أرى الدكتور مندور قد أتى بجديد فى تعبيريه عن ملامح هذا التيار الواقعى فلكل عصر كما أسلفنا تياره الواقعى ، الذى يدفع رجال القلم بالفطرة الى مسايرته والفيض عنه .

ولكن الجديد الذى وفد على أدبنا حقيقة هو ما يعبر عنه الدكتور فى سياق حديثه بقوله أنه نور الاصلاح الذى أخذ يبدد ظلمات الفساد الخانقة ، وأن ذلك ما نحس بانعكاساته عند براعمنا الشعرية حزينة شاكية حينا ومشرقة متهللة حينا آخر فى قصائدهم ودواوينهم التى أخذ يختلط فيها الوجدان الفردى بالوجدان الاجتماعى على نحو مانطالع فى أشعار أولئك الشبان .

تجربة

وتحضرنى فى هذا المقام تجربة عملية وضعت يدى عليها حين كنت أعمل رقيبا للاغانى بالاذاعة المصرية على أول عهدى بالعمل بها عام ١٩٤٩ اذ أن هذا الوتر الغنائى الذى يعتبر من أسـمى الانفعالات التلقائية ، والذى يوقع أرفع الاحاسيس الانسانية ، لاحظت فى ذلك الحـين جماعة من الزجالين الذى وقفوا على أول سلم الشعر ، والموهبة الادبية عندهم لم تكن قد تفتقت براعمهـا بعد • ولم يكن فيهم على كثرتهم من نال حظا من الثقافة والادب ، وما يمكن أن يكون الزاد لتلك المواهب المبتدئه .

لاحظت أن هؤلاء النظام كانوا يغذون هذه المؤسسة الكبرى والتى لها أكبر الأثر فى توجيه الشعب ـ بفيض زاخر طاغ من الأغانى الرخيصة المبتذلة فى أسلوب ركيك ، ومعنى ضحل ، وعاطفة باردة ، فلم يكن بدآنئذ من البحث عن مخرج ، وانتهى بى التطواف والبحث الى اقناع المسئولين بضرورة اخضاع هذا النغم الخالد الى نظام محكم وكان أن شكلت لجنة لتصفية هذه النصوص كانت تضم كبـار شعراء العصر والموهوبين الاعلام من الموسيقيين . فلم نكن نعثر على المقطوعات الفنائية الصالحة الا بعد جهد كبير ، اذا انصرف كبار الشعراء والموهوبين عن الاسهام فى هذا المعترك • وتخلوا عنه لهذه الطائفة التى أشرنا اليهـا •

ولسنا فى مجال التحدث عن الغناء فى الاذاعة فذلك موضوع يطول البحث فيه ، وان كنت أرى أن الخبرة الطويلة ترشد الى ضرورة ، قيام لجنة خارجية من الاعلام المتخصصين للارشاد الى هذه القيائر ، تقديرا وتقييما لهذا الفن الاصيل ـ ولم تخل دواوين الشعراء من مقطوعات توائم هذا الفن الرفيع ، وتكون زادا أصيلا ، وهزجا يرتل فى كل آن

أقول : بأن موضوع الشعر المستحدث الذى ظهرت بوادره على هذه الايام ، ان هو الا محاولات لبعض المتأدبين المبتدئين الذين لم تكتمل أدواتهم بعد ولم يستقوا من زاد الشاعرين قليلا أو كثيرا .

رعاية المواهب

ولو أن منتدى أو جمـاعة ممن يرعون النشاط الأدبى تبنت هذه البراعم وأعدت لهم دراسات فى الشعر ، وزودتهم بذخائر الشعر العربى

المنتقى وضربت لهم أجلا بعيدا فى دراسة وبحث وحفظ لجيد الشعر ، واتاحة الفرصة بعد ذلك للانتاج أقول ان هذا قد يجدى في رعاية هذه الموهبة المبتدئة لدى هؤلاء المغمورين الذين يتنفسون بمحاربة الملكات المكتملة والفن الأصيل بمثل هذا المروق والانحراف والادعاء • حتى أصبحت وكأنها عصابة تترصد كبار الأدباء وأعلام الفنون ، بالتجريح المفرض ، ورأيهم : هو أن الشعر العربى ، فى جميع عصوره ، ان هو الا غثاثات العقول وفيض الجهالات وضع فى قوالب جامدة وصور هامدة ، كما أرتأوا وادعوا • وانهم وحدهم هم أساطين الفن والأدب والالهام •

وانى اذ أستطرد فى هذا البحث لأجدنى لم أوفه بعد حقه فان أمامى الآن صورا شتى من آراء الادباء أرى أن الفائدة تتم بعرض طرف منها • ولا سيما أنها أحدث الآراء التى يدلون بها فى مجتمع رسمى ، وتعبر عن مذاهبهم وآرائهم تعبيرا صادقا •

المؤتمرات الأدبية

فقد أتاح لنا مؤتمر الادباء المنعقد فى ديسمبر سنة ١٩٥٧ بما ضم من أعلام الوفود العربية من خيرة الأدباء •• أتاح لنا الوقوف على رأى هؤلاء المشتغلين بالأدب وخاصة ما أشاروا فيه الى الشعر الجديد على وجه التحديد .

شعر منثور

يقول عضو وفد السودان :

ان جمال الكلمة من جمال المعنى الذى تؤديه ، وقليلا ما تؤدى الكلمة الجميلة معنى قبيحا ، فالقيمة الجمالية ، قيمة متحركة وقيمة نسبية •

أما الموسيقى ، فهذا مالا سبيل الى التجاوز عنها مادام هناك شعر . ان كل المحاولات التى حاولها المجددون والمحدثون لم تؤد إلى جديد ولا الى حديث ، والشعر المنثور شىء لا نناقشه فى هذا المجال فهو ضرب من ضروب النثر •

الشعر ظل ثقافة أرستقراطية وان كان أقدم الفنون وأكثرها بدائية ولم يكن مصدر هذه الارستقراطية الا من أنها موهبة . وقليلا ماتكون الطبيعة ديمقراطية فى توزيع المواهب ثم يورد الاستاذ عضو الوفد السودانى فى المؤتمر مختاراته من الشعر للفرزدق فى القومية العربية •

لنا العزة القعساء والعدد الذى
عليه اذا عد الحصى يتخلف

ثم يورد لمهيار الديلمى الشاعر :

قومى اســـتولوا على الدهر فتى
ومشـــوا فوق رءوس الحقب

ثم ينشد فى المؤتمر قول شاعرنا « حافظ ابراهيم » بعد أن يسجل لهذا الشاعر مكانته بقوله :

« وحافظ وشوقى كانا من أكثر الشعراء الذين عملوا على بعث القوميه العربية وينشد لحافظ :

انا البحـــر فى أحشائه الدر كامن
فهل ســـألوا الغواص عن صدفاتى

وســـعت كتاب الله لفـــظا وحكمة
وما ضقت عن آى به وعظــــات

فكيف أضيق اليـــوم عن وصف آلة
وتحـــديد أســـماء لمخترعات

ثم يردد أبياتا لشاعر سودانى فينشد :

ايه يامصر حسب مســـعاك فخرا
ان أعـــدت الغداة مجد الجـــدود

يابنى العـــرب والحـــوادث تترى
مفزعـــات كقاصـــفات الرعـــود

لا تصيخوا للغـــرب أو تستجيبوا
لنـــداء الاحلاف شـــأن العبيد

حيث يهتف صوت حافظ من وراء التاريخ :

رجال الغـــد المأمول انا بحـــاجة
اليكم فسدوا النقص فينا وشمروا

فـــكونوا رجالا عاملـــين أعـــزة
وصـــونوا حمى أوطانكم تتحرروا

فمـــا ضـــاع حق لم ينم عنه أهله
ولا ناله فى العالمـــين مقصـــر

أجل لم يكن اجتماع مؤتمر أدباء العرب ، وتناوله لأدق الموضوعات الأدبية واخطرها وهو (الأدب والقومية العربية) موضوعا لدراساته وتوصياته ، لم يكن ذلك الا تقديرا لمكانة الأدب كما اسلفنا وبالتالى تكريما لرسالة الاديب •

ولقد يكون فى رأى استاذنا الدكتـــور طه حسين عميد الأدب عن

الشعر ومكانته على النحو الذى أورده فى خطابه ، ابلغ تحية لشاعر الوطنية حافظ ابراهيم .

يقول الدكتور العميد فى تعقيبه على كلمة لأحد الأعضاء :

«وسمعت من السيد .. أن الشعر أداة للقومية العربية ، وانى استأذن الأستاذ فى أن ألاحظ أن الشعر ليس أداة لشىء ، وأن الشعر هو منشىء القومية العربية أولا »

فأى تحية وتكريم يردان على لسان الاستاذ العميد لشاعرنا الذى أوضحنا كيف أنه عاش يتغنى بأناشيد الحرية ، ويعمل لهذه القومية حتى أصبح صاحب الحق فى أن يكون منشىء القومية العربية بذلك الرأى الحاسم الذى أدلى به عميد الأدب فى الدورة الثالثة لمؤتمر أدباء العرب .

ثم يقول الدكتور طه حسين :

« الشعر هو الذى شارك فى تكوين القومية العربية وتقويتها بعد أن كونها القرآن »

«ان الأدب هو الذى أتاح لهذه القومية العربية أن تنمو وتزكو ، وتملأ الارض ثقافة ونورا » .

ثم يحدد الاستاذ العميد وظيفة الأدب حيث يقول :

«فواجب الأدب بالقياس الى القومية العربية هو أن يكون لامجرد أداة لهذه القومية ، وانما وفيا لها يؤدى ماكان يؤديه فى العصور الاولى ، ومازال يؤديه فى هذا العصر »

وقد استبان للقومية العربية وشعوبها وفاء شاعرنا (حافظ) لها فيما يقع فى تضاعيف نتاجه الفنى الذى كان ولا يزال حاديا وهاديا لهذه الشعوب .

واذ ننتقل الى رأى عضو وفد البحرين يتحدث عن الشعر المعاصر الجديد فيقول :

« اذا سألتمونى الآن ما خطب هذا الشعر الجديد ، قلت انه لوحة لطخات من الألوان تفيض على غير هدى ، لا يستطيع القارىء ادراك ما يرمز اليه تشخيص الذاتية الا باستيعاب اللوحة فى نظرة شاملة . ثم يسرد على الأعضاء شعرا مستحدثا لأحد هؤلاء الشعراء بعنوان : من شاعر سورى الى مواطن أمريكى .

***

انى لا أومن .. لا أومن
ابدا بقصائد تستورد
انى لن أخدع لن أخدع
بمبادىء عالمك الحر

بالامس اتى هـذا الخائب
ليزور تقـريرا كـاذب
صـور فيـه سـوريا
حمراء اللون شيوعية ! !

**

ثم يعلق السيد العضو على هذا الذى اسماه شعرا حديثا بقوله : افلا يذكركم هذا بقول شوقى رحمه الله :

وللحـرية الحمـراء باب
بـكل يد مضرجـة يدق

وفطنة المتذوق وفطرته تغنى عن التعليق !.

أين هذا الذى استشعره السيد العضو فى مقطوعة الشـاعر السابقة من قول حافظ ابراهيم يخاطب المندوب السامى :

الم تر فى الطريـق الى كيـاد
تصـيد البط بؤس العالمينـا

الم تلمح دمـوع الناس تجـرى
من البلوى ، الم تسـمع انينـا

كشفتـا عن نواياكم فلسـتم
وقد برح الخفـاء محـايدينا

الى أن يقول فى بيته اللاذع :

على رغـم المـروءة قد ظفرتم
ولكن ، بالأسـود مصفدينـا .

هيهات أن يلحق هذا العنان الضارب فى سموات الخيال والاعجاز لاحق فى هذا الميدان .

ولا يترك الاستاذ الدكتور سليم حيدر ما أورده الاستاذ مندوب البحرين فى موضوع الشعر الحديث ، بدون أن يعلق عليه بقوله :

قال الأستاذ العريض ، ان الشـعر الحديث يشبه اللوحات الفنية الجديدة التى يجب أن نتمتع بها من بعيد ، وهى لاتتحمل التدقيق والنظر اليها من قريب ، وهذا صحيح ، ومن المؤلم أن يكون هذا الامر صحيحا .

ويعلن رأيه بقوله :

أنا من الذين ينظمون على عمود الشعر القديم ، من صدر ، وعجز وقافية موحدة وبين الاتقان الفنى الذى يجب للشـعر الجديد ، والذى يقتضى وحدة القصيد ، والايحاء من بعيد أو قريب .

« ولعل أبرز مزايا الشعر الجديد وحدة القصيدة التي عرفت في الجاهلية ، وفي صدر الاسـلام ، ووحدة القصيدة هنا لا تقتضي اندماج البيت في البيت ؛ ولا تقتل وحدة البيت ، اذ أننا يجب أن نفهم وحـدة البيت بمعناها الجديد • البيت يكون وحيدا بالمعنى الذي قصده الاستاذ ابراهيم العريض عندما يمكن أن يستل البيت من القصيد • فلا تفقـد المعنى ، ولا يخسر القضية » •

« أما وحدة البيت بمعنى اتقان الصـناعة فهذا أمر يجب أن نبقى متشبثين به ؛ فنحن نريد بناء من الحجر المصقول ؛ وكل حجر أجمل من أخيه ، ويبقى متينا وجميلا ، وتبقى جميع الاصول الفنية متوفرة فيه » •

ثم يشير الى ما ورد على لسان ممثل وفد السودان الأستاذ عبد الله البنا اذ يقول أن تغيير البحور وتعدد القوافي ، وما ظهر من الشـعر الجديد لا يعتبر معركة أساسـية ، ويعقب على ذلك بقوله انه الرأى الصائب •

ثم يقول : أعتقد أنه من الظلم للشعر الجديد أن نقصر تجـديده على شكل القوافى والأوزان والاستغناء عن القوافى أحيانا ، وهذا الاطار حاول الغرب فى القديم أن يخرجوا منه فى الشعر الجاهلى • وخرجـوا على وحدة القافية ، فكانوا يقتطعون كل عشرة أو سبعة أبيات فى قافية واحدة • وبعد ذلك أتى الاندلسيون وافتنوا فى التوشيح ، أما نحـن فنقول أن الاستاذ لم يشأ أن يقدم لنا ، نماذج من الشعر الجديد الذى بهره مما تشبث به ، وما لا يمكن أن يكون شعرا ، انما هو لون من ألوان الأدب لا يعدو أن يكون نثرا فنيا ان كان فى المستوى الذى ينهض به الى هذا المسمى ، وهو ولا شك ثروة أدبية ضخمة ، تعبير صادق للموهوبين الذين لم تعدهم الطبيعة ليكونوا شعراء •

ويتحدث الاستاذ مصطفى عبد اللطيف فيقول : «سواء أكان الشاعر هذا أم ذاك ، فالشاعر الذى نريده هو من يوقد فى الناس تلك الشـعلة المقدسة قبل أن ينير لهم الطريق الى القومية أو الوطنية ــ انا نريد ذلك الشاعر الذى تتبلور مبادئه ، والذى تكون له فكرة مستنيرة يسير بهـا على طريق الحادة » •

ركام من الشعر ... !

« ولقد سمعنا شعرا عن فلسطين فكان ركاما من الشعر ليس فيه الا بعض الماسات فيزجاج محطم ، وسمعناشعرا كلاسيكيا عن بورسعيد ـ لماذا ، لان الشاعر لا يؤمن بالرسالة ، ولم تجر فى دمه هذه المبادىء الوطنية ، ولا القومية التى ندعو اليها ، • قال بعضنا : انه يجب أن نفتن للشعر أوزانا نفرضها على الشعراء • ولكن اذا كان لابد لنا من ذلك فلا بد لنا أن نراعي الأصـــول الفنية فى الشــعر ، سواء أكان حرا أم كلاسيكيا ، لان هذه هى المشكلة الحقيقية • فنحن نقرأ بجانب الشـعر الحر الرائق ، شعرا حرا فى غاية السخف ، يكتبه جماعة من المقلدين ، لا يفقهون الشعر الا على أنه تقليد مجرد واذا اســـتمر على هذه الطريقة فسيصبح الشعر لا يعرف تناسبا ، ولا ايقاعا ، ولا نغما ، ولا يسرى فيه الانفعال •

الشعر الحر الذى نسمعه الآن ليس بالشعر الجيد كله ، ويجبأن يكون للشعر عناصره الفنية • وأن يجرى الشـــاعر فى ابداعه بمراحل عملية الخلق وهى مراحل يعرفها الموهوبون من الشعراء معرفة واعية » •

المثل الاعلى للشعر

وما أمتع ما يتحفنا به الدكتور طه حسين عن رأيه فى المثل الاعلى للشعر ، بقوله :

« الناس يخطئون حين يظنون أن أصحاب الجديد لا يرون اللذة الفنية الا فى الجديد ، وهم مخطئون أيضا حين يرون أن أصـــحاب القديم لا يجـدون اللذة الا فى الشعر القـديم • فأنا من أصحاب الجـديد ، ومن أشدهم الحاحا فى تأييده والدعوة اليه ، ولكنى على ذلك أجـد فى قراءة القديم لذة لا تعد لها لذة ومتاعا ليس يشبهه متاع ـ ذلك لأن القديم والجديد لم يستمدا جمالها الفنى من القدم والجدة وحدهما • وانما استمداه من هذا الروح الخالد الذى يتردد فى طبقات الانسانية كلهـــا ، فيحل فى كل جيل منها بمقدار ، وهو يتشكل فى كل جيل بالشـكل الذى يلائمه ؛ ويتصور فى كل بيئة بالصورة التى تناسبها ؛ وهو من هذه الناحية مصدر وحدة وفرقة للانسانية •

ويقول :

« للقديم اذن جماله نشعر به نحن شعورا منقوصا ، وكان القدماء يشعرون به شعورا كاملا ، ويستطيع العلماء الذين يقفون أنفسهم على الدرس ويتعمقون فيه أن يجعلوا أنفسهم قدماء يتقنون لغتهم وحياتهم وظروفهم المختلفة ، فيشعرون من الجمال بما كانوا يشعرون به •

ولكن هذا على صعوبته وعسره ، لم يقسم ، ولا ينبغى أن يقستم الا لطائفة قليلة جدا من الناس » •

« لشعر القدماء معنى فى أذواقنا لانه يمثل حقيقة من الحقائق هى حياة القدماء ويمثلها بصورة تلائمها • ولكن الشعر الحديث ليس له هذا المعنى ، لانه لا يمثل حياة القدماء لانه لم ينشأ لتمثيلها » ويستطرد الدكتور فى بحثه القيم • الى أن يفيض علينا من بيانه عن المثل الاعلى للشعر فيقول :

« المثل الأعلى للشعر هو الكلام الموسيقى الذى يحقق الجمال الخالد فى شكل يلائم ذوق العصر الذى قيل فيه ، ويتصل بنفوس الناس الذين ينشد بينهم ويمكنهم أن يذوقوا هذا الجمال حقا فيأخذوا بنصيبهم النفسى من الخلود »

التطور فى الاندلس

ومعروف فى الدراسات الأدبية وبين أوساط الدارسين لتاريخ الأدب عامة والشعر خاصة أن مدلول التجديد فى الشعر على وجه التجديد فيما تناقلته آراء الباحثين انما هو التجديد فى معانى الشعر وأخيلته ، وأسلوبه •• الخ ما بينا ، وهو أمر لم يغب عن بال المدارس الأدبية التى تساير النهضات طوال العصور ، بل انهذا هو الاصل فيما حدث فى الاندلس • حين تناول التجديد بناء القريض وعمود الشعر الى الموشحات والزجل وكان سبب هذا التجديد بادىء ذى بدء تلك الحياة الجديدة التى تغاير الى حد كبير حياة العصور الخوالى وحاجة الاسماع الى التعبير عن تلك المجتمعات المتطورة بالاسلوب والمعانى والأخيلة التى تتسق معها ، وأن تكون الصور المستوحاة فى القصيد موائمة لصور الحياة •• وأدى الى ذلك تعلق الاذهان والاسماع بالشعر ، وتعشق الشعراء لهذا الفن ونظرتهم الى التجديد فيه والابداع ومجاراة الاقدمين •

ولكن هل استطاعوا أن يزيدوا فى غير مظاهر الحياة وصور الاجتماع المتغير وحالات البيئة ؟

لعلى أجزم بأنهم لم يغيروا كثيرا ولم يستطيعوا أن يسبقوا فى الشعر الوجدانى • وانما استطاعوا أن يتوسعوا فى مظاهر الحضارة وما يتصل بالوجدانيات من مباهج ومناظر وآثار المدينة والعمران •

وحين ابتكر الأندلسيون الأوزان الجديدة فى الشعر أحدثوا انقلابا فى الأوزان والقوافي واستحدثوا أوزانا لم تكن معروفة من قبل ، وبهذا استطاعوا أن يغيروا أو يزيدوا فى بناء الشـــعر ، ولم يرتبطوا بنظام القوافي المعروف •

لقد أدخلوا ما أسموه : القريض ، الموشـــح ، الدوبيت ، الزجل ، المواليا ، وهى لا تخرج عن تلك النمـــاذج المتـــداولة والمأثورة عن أدب الاندلس فى جملتها والتى غلب عليها التعريف (بالموشحات)

ويطل الاستاذ الدكتور أحمد ضيف ذلك الى « حب الابتكار والميل الى الجمال والرفاهية عندهم والذى تناول أوزان الشعر فمزجوا بين الأوزان المختلفة والقوافي المتعددة فى قصيدة واحدة ، وربمـــا آلفوا بين وزن مخترع ووزن معروف وربما اخترعوا أوزانا مختلفة ونظموا عليهـــا قصيدة واحدة وقد يلحنون كلامهم هنا ويغنون به لمـا فيه من خفة الوزن ورقة اللفظ » •

وقد سقت تعليق الدكتور ضيف لا لأنوه بهـذا الدور الخطير من استحداث انقلاب فىأوزانالشعر ، ولا لأشيد بهذا الدور وأحتفل له ، لا وانما سقته لأوضح أشياء كادت أن تخفى أهمها :

ان هذا الخلط الذى حدث نشأ فى مجال النهضة الادبية لا النكســة الادبيه ، ولانك لا تجد فيه ذلك الجلال وتلك الروعة التى يتضمنها الشعر الاصيل الذى لم يتاثر بهذا المزج وذلك الخلط ، ولكى ابين أن هذا كان مبدأ لانهيار عمود الشعر فى الاندلس ، وأن التطور الذى انتهى بالشعر الى الموشحات تولد عنه ما يعرف بالزجل ذلك الذى أعفى من قواعد اللغة وملامحها وسماتها وكان مولودا غير شرعى تحرر من عادات قومه وانحسر عنه ذلك المدى الفطرى الذى يحفظ عيـــه بهاءه وسموه ، فاذا به (أى الزجل) يصبح عامية الشعر التى يتسلقها ذوو الثقافات المحدودةوالمواهب التى لم تنضجها الدراسة والتهذيب والتحليق بها

يقول ابن خلدون فى مقدمته :

« وأما أهل الاندلس فلما كثر الشعر فى قطرهم وتهذبت مناحيـه وفنونه ، وبلغ التنميق فيه الغاية ، استحدث المتاخرون منهم فنا سموه بالموشح ينظمونه اسماطا أسماطا ، وأغصانا أغصانا ، ويكثرون منهـــا ومن أعاريضها المختلفة ، ويسمون المتعدد منها بيتا واحدا ، ويلتزمونعدد قوافى تلك الاغصان ، وأوزانها متتاليا فيما بعد الى آخر القطعة ، وأكثر ما ينتهى عندهم الى سبعة أبيات ، ويشتمل كل بيت على أغصان عددها

بحسب الاغراض والمذاهب ، وينسبون فيهـا ويمدحون كما يفعل فى القصائد وكان المخترع لهذه الموشحات بجزيرة الاندلس اسمه (مقدم ابن معافر الفريرى) من شعراء الأمير محمد بن عبد الله المروانى ، وأخذ عنه بعد ذلك ابن عبد ربه صاحب العقد ـ ولم يذكر لهما مع المتأخرين ذكر وكسدت موشحاتهما ثم يذكر أن أول من برع فى هذا الشأن بعدهما عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح وكان يقال لايقاعه : كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز فيما اتفق له من قوله :

بدر تم ، شـمس ضـحى غصن نقـا ، مسـك شم

مـا أتم ، ما أوضـحا مـا أورقـا ، ما أنم

لا جـرم ، من لمحـا قد عشـقا ، ثم حـرم

ويذكر انه لم يسبق عبادة وشاح من معـاصريه الذين كانوا فى زمان ملوك الطوائف ، وتبعه ابن ارفع شـاعر المأمون ابن ذى النون صاحب طليطله فطار صيته اذ يقول مبتدئا موشحته :

العـود قـد ترنم بأبـدع تلحـين

وشـقت المـذانب ريـاض البسـاتين

ويختمها بقوله :

تخطـر ولا تسـلم عسـاك المـأمون

مـروع الكتـائب يحيى بن ذى النـون

ثم يجىء نوع آخر هو الموشحات المذهبة نسوق منها للتطيلى قوله :

كيف السـبيل الى صبرى وفى المعـالم أشـجان

والركب وسـط الفلا يا لخـرد النواعم ، قـد باتوا

وايضا :

ضـاحك عن جمـان سـافر عن بـدر

ضـاق عنه الزمـان وحـواه صـدرى

ويقول ابن هردوس فى موشحة له :

يا ليلة الوصل والسعود بـالله عـودى

وابن مؤهل :

ما العيد فى حلة وطاق وشـم طيب

وانمـا العيد فى التلاقى مـع الحبيب

ويعود الدكتور ضيف فيعلل نشـــأة الموشحات فى الاندلس واختراعها الى ما تولد فى النفس من ميل الى الخلاعة والدعابة فى الكلام وشعور الناس من أدباء وشعراء بضرورة الخروج من الأوزان القديمـــة المرونة ، لضيق تلك الاوزان عن احتمال عبث الشعراء على حســب أهوائهم ، وقد سئم الناس طريقة الشعر القديمة المعـــروفة ، وحاولوا ابتكار شيء جديد ، فاخترعوا تلك الأوزان لتساعدهم على ما يريدون من الكلام فى بحبوحة اللهو والطرب والرقص وانشاد الشـعر بطريقة خفيفة على النفس ، وقد وجدوا ذلك أدعى الى تحريك النفوس فبـــدأ بالاوزان العربية الخفيفة ، كالرمل والهزج والمقطوعات وغيروا فيها القافيـــة وولدوا من ذلك الموشحات ، وأباحوا لأنفسهم التغيير فى الوزن والقافية فاخترعوا من الأوزان مالا قاعدة له ثم توسعوا فى هذه الأوزان وشـــمل هذا الضرب كل ألوان التسلى واللهو وتمشى فى نفوس الناس حتى أصبح نوعا من الشعر العام ٠

ويواصل الدكتور ضيف قوله فى التطور الذى حدث لهــــذا النوع المبتدع فى الشـــعر بقوله ٠ ثم انتقل الى بلاد البربر وغـــيرها من بلاد المشرق وكثير من البلاد الاسلامية وانتشرت وتناقلهـــا الكثيرون حتى أصبحت الموشحات قريبة من لغة العامة ، وصارت من كلامهم وأناشيدهم ويقول :

« وكلما قربت من العامة بعدت عن اللغة العربية الفصحى ، وعن الشعر العربى الفصيح »

« وتأثرت هذه التواشيح بالحياة العقليه ومجتمع العوام » ٠

« فلا غرو أن نجد فى الموشحات خلطا بين الشعر العربى الفصيح والكلام العامى الملحون ، وكثيرا ما تتخللها عبارات عامية ؛ وعلى غير قواعد اللغة فليست الموشحات عربية صرفه ولا عاميه بحتة ، ثم توسعوا فى ذلك حتى تعددت اللهجات وكثير من هذه اللهجات لا يتذوقها من يعرف العربية الفصحى ومن هنا تطرقوا الى الزجل، ذلك الشعر العامي المعروف٠

***

وقد استطردت فى ايراد هذا البحث الخاص بنشأة الموشـــحات وتطورها لأصل الى هذه الحقيقة ٠٠

تلك التى أفسدت اللغة والشعر وامتدت الى ادخال لهجات ورطانه لا يمكن أن تتسع لهما ثياب العربية الصحيحة ٠

واذا كان لى أن أعلق على هذا ، فهو ما أريد أن أوضحه للقارىء من أن هذه الفترة الأندلسية أو هـــذا التطور الأدبى الذى دخـــل على الشعر العربى فيه بابتداع الموشحات وان عاش فترة طويلة وأبدع فيه

مبدعوه ، وأساغه سامعوه الا أنه كان كما رأيت من الشواهد مقاطع ليست بذات خطر فى جدية الانشاء الشعرى وجلال القصيد ، كما انها كانت ذات نهاية مفجعة مطورة للغة لا الى تحسين وارتفاع وادخال مذاهب مجدية ، وانما الى استحداث وابتداع ، لا ابداع .

هذا وان كنا لا نغض عن بعض تلك الموشحات الشهيرة التى اضطلع بابداعها وانشائها المهرة من كبار الشعراء والمبدعين .

فموشحة لسان الدين بن الخطيب التى مطلعها :

جادك الغيث اذا الغيث همى   يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك الا حلما   فى الكرى أو خلسة المختلس

والتى فيها يقول :

ان يكن جار وخاب الأمل   وفؤاد الصب بالشوق يذوب
فهو للنفس حبيب أول   ليس فى الحب لمحبوب ذنوب

ويقول فيها أيضا :

تبصر الورد غيورا برما   يكتسى من غيظه ما يكتسى
وترى الآسى لبيبا فهما   يسرق السمع بأذنى فرس

حافلة بالمعانى الرقيقة والاسلوب السهل والافتنان فى الصياغة وحوك المعانى .

وكذلك موشحة بن سهل التى يقول فيها :

هل درى ظبى الحمى أن قد حمى   قلب صب حله عن مكنس
فهو فى حر وخفق مثلما   لعبت ريح الصبا بالقبس
يا بدورا أطلعت يوم النوى   غررا تسلك فى نهج الغرر
ما لقلبى فى الهوى ذنب سوى   منكم الحسن ومن عينى النظر

وهى عربية صريحة تنم عن قدرة صاحبها وثقافته

وكذلك موشحة بن سناء الملك وفيها يقول :

كللى يا سحب تيجان الربا بالحلى
واجعلى سوارك منعطف الجدول

وبعد فان الداعين الى الشعر الجديد على عهدنا هم أمثال تلك الجماعة التى تستخدم العامية واللهجات وتنزلهما منزلة الشعر ، بل ويقارب ما يكتبونه ويدعون انه شعرا ما هو معروف بالزجل .

وان جاء عربيا فصيحا ألحق بالنثر الفنى حيث أنه متحلل من كل وزن أو قافية ..

صيداح الوطنية

ليس بغريب على شاعرنا (حافظ ابراهيم) أن يمدح صديقا له فى تهنئة ، أو تحية لمناسبة من المناسـبات أو غرض من الأغراض . أو أن يتناول موضوعا اجتماعيا، أو دينيا ، أوقوميا فيضمنه احساسه ومشاعره نحو وطنه ، وان كان مقام القول ومناسبته بعيدين كل البعد عن التغنى بأمجاد الوطن واستثارة ذكرياته .

أجل ، ليس ذلك بغريب ولا عجيب على شاعر الوطنية ، فقـد كان الوطن أمرا يعتلج فى نفسه ، ونارا تهيج خواطره .

كان وتره كلهاة الطائر ، يستثيره الحنين ، ويهيجه الشجن ، فهو على طرب دائما وفى ترنيم ، وهو بين هذا الطرب والترنيم ، متصل المشـاعر بقوميته ، لا يتخلى عنها ولا تتخلى عنه .

يهنىء صديقـا له بامارة الحج ، فلا ينسى أن يضمن شـعره الهاتف الخفى المستكن فى نفسه فينشد :

هـزك البيـت الحـرام له   هـزة المشـتاق للـوطن

ويهنىء الاستاذ الامام بمنصب الافتاء ، فلاينسى وطنه وأمته فى قوله:

وخفضت من حزنى على مجد أمـة   تداركتها والخطب للخطب يعتلى

***

اليس من صميم الوطنية أن يشير الشاعر فى قصيدة يحيى بهـا واصف غالى عندما نشر كتـابه المعروف (بحديقة الازهار) الذى ترجم فيه بعض الشعر العربى القديم الى الفرنسية ، وكان يشيد بذكر مصر ، ونتاجها الأدبى فى محاضراته التى كان يلقيها بفرنسا عن مصر والشرق اليس من صادق وطنيته أن يتخذ من هذا الموضـوع الشخصى موضوعا قوميا :

غرسـت من زهـرات الشرق طائفـة
في ارض (هوجو) فجاءت طـرفة الجـانى
بالأمـس كان لهـا شرق تضـوع به
واليـوم صـار لهـا بالغـرب شرقان

ثم يعقد مقارنه بين شاعرين فرنسيين وآخرين عربيين .

سل (الفريد) و (لامرتين) هل جريا مع (الوليد) أو (الطائي) بميدان

وينوه بموقف واصف غالي في الدفاع عن آداب العرب في قوله :

وقفت تدفع عن آدابنا تهما كادت تقوض منها كل بنيان
فكنت أول مصرى أقام لهم على نبالة مصر ألف برهان
مازلت تلقى على أسماعهم حججا فى كل ناد ، وتأتيهم بسلطان

وفى هذه القصيدة يرد حافظ على قالة الفرنسيس ودعواهم من قصور الادب العربى عن استيعاب فنون الشعر ، فألجمهم الحجة اذ يقول :

محوت ما كتبوا عنا بقاطعة من البراهين فلت قول (رينان)
أنحى على الأدب الشرقى مفتريا عليه ما شاء من زور وبهتان
ظن الحقيقة فى الأشعار تنقصنا واللفظ والقصد والتصوير فى آن
وأننا لم نصل منها الى مئة عدا ، وذاك لقصد أو لنقصان
ولو رأى «ابن جريج» فى قصائده لقال آمنت فى سرى واعلانى

بمثل هذا الحجاج كان ينافح الشاعر عن وطنه ، يتصيد الفرصة ليدلى بحجته فيخرس ألسنة المهاترين .

شكسبير

ولم يكن حافظ يعيش بعقلية عصره فحسب ، وانما كان يسبح بخياله فى قضايا العالم وشواغله مما يشغلنا نحن الآن من انحراف عن أسس الحضارة ، وتسخير العلم للتدمير ، اقرأ معى أبياته فى تحية ذكرى شاعر الانجليز (شكسبير) ناعيا على الحضارة الزائفة تسخير العلم لغير ماوضع له وما يرجى من خير به :

فليتك تحيا يا أبا الشعر ساعة
لتنظر ما يصمى ويدمى ويؤلم
وقائع حرب أجج العلم نارها
فكاد بها عهد الحضارة يختم

ولعله كان يشير من طرف خفى الى تلك الأمة يتتسب اليها الشاعر منددا بمنهجها فى اهراقها دماء الشعوب واستنزاف أموالهم بالحروب والاستعمار :

أفق ساعة وانظر الى الخلق نظرة
تجدهم وان راق الطلاء هم هم
هل طهرها من شر أطماعهم دم
وفوق عباب البحر من صنعهم دم

غـــيرة

ومن غيرته على أمجـاد أمته وتاريخها الحـافل ، أن يشير فى أبيـات له نظمها فى زيارته لآثار الفراعنة · يشير اليهم وقـد عرضوا على النظارة ، فى متحف الآثار ، فينكر على قومه اهدار مكانة هؤلاء الملوك الذين كان لهم شأن فى تاريخ مصر :

قد زرت متحف مصر ، فى ظهـــر يوم الخميس
فى زمـــرة من رفـاق غـر الشمائـــل شوس
فضقت ذرعـــا بأمـــر عـلى النفـــوس بئيس
رأيت جثـــة خـــوفو بقـرب (سيزوتريس)
فقـلت يا قـوم هـــذا صنع العقـوق الخسيس
أجساد أمـــلاك مصر وشـــائدى منفيس
من بعـد خمسـين قرنا لم تسترح فى الرموس

ويهتز الشاعر أسـفا ، وحزنا على ذلك المشـهد من اذلال الفراعنـة وعرضهم على الناس على النحو الذى يجليه فى هذه الأبيات :

أرى فراعـــين مصر فى ذلـــة ونحـــوس
معـروضـــة للبـــرايا أجســـادهم بالفلوس
فـديس ظلمـا حمـاهم وكان غير مـــدوس

ثم ينبه الى ما هم أولى به من تكريم واعزاز فى قوله :

لـو أن أمثـــال مينـــا فى الغرب أو «رمسيس»
بنـوا عليهـــم وخطـوا حظـــائر التقـــديس

سعد زغلول

كان حافظ وقاد القريحة حين يصول فى ميدان الوطنية ، وكان فنه مسعفه ومواتية وكانت خاطرته مطاوعة له اذا ما لمس وتره ليشدو بأغانى وطنه فى قوله يحيى سعد زغلول :

الشعب يدعو الله يا زغـلول أن يستقل على يديك النيـــل
فاوض فخلفك أمة قد أقسمت ألا تنـام وفى البــلاد دخيل

ويحذر المفاوض المصرى من ختال الانجليز ، وخداعهم ، وهل يحذق هـذا الفن غيرهم ؟ أو يعرف خبـاياهم سوى شاعرنا ! وقد خبرهم فى

السودان ، وهو يعمل مع رجالهم العسكريين والسياسيين انه يحذر سعدا من ذلك النهر الذى يسمى (التأميز) وينبهه الى ما قد يغرز به ، والى عمق السياسة الانجليزية ودقة خيوطها ، وخفاء وسائلها بقوله :

لاتقرب التاميز ، واحذر ورده ... مهما بدا لك أنه معسول
الكيد ممزوج بأصفى مائه .. والختل فيه مذوب مصقول
ولهم أحابيل اذا ألقوا بها ... قنصوا النهى فأسيرهم مخبول
فأحذر سياستهم وكن فى يقظة ... سعديه انّ السياسة غول

وما أبرع ما تواتيه القريحه فى قوله :

ان مثلوا فدع الخيال فانما ... عند الحقيقة يسقط التمثيل
الشبر فى عمرالسياسة فرسخ ... واليوم فى فلك السياسة جيل
ولكل لفظ فى المعاجم عندهم ... معنى يقال بأنه معقول

الى آخر ما أورده الشاعر فى قصيدته مما يصلح لأن يطبع بوزارة الخارجية ويذاع على السفارات على أنه نصائح شاعر ، وان كان أبطال السياسة يحذقون هذه الفنون ، ويسبرون أغوارها .

ولله در الشاعر وهو ينعى عليهم دولتهم فى قوله :

كم دوله شهد الصباح جلالها ... وأتى عليها الليل وهى فلول

لطفى السيد

ولا ينسى وهو يقدم تحية الى أستاذه احمد لطفى السيد أن يغمز مزهره الوطنى فينشد :

انا نناضل آمة ... اقطابها أسد ضوارى
عركوا الزمان وأهله ... وتحصنوا من كل طارى
أمست سياستهم كطلسم ... يحير كل قارى

لا بل ، انه يهدى بأبياته الى صديقه (حفنى محمود) فيهتف بوطنه من حيث لا يعنى :

ان رشحوك فأنت من بيت رمى ... بسهامه عن حوزة الأوطان

وكان الشاعر مشوقا الى يوم الخلاص فى قوله :

وتنظرى ان الخلاص مجتسم ... فالله أسلم أمرنا لموفق

وحين يحيي شوقي بقصيدته التي مطلعها :

بلابل وادي النيــل بالمشرق اسجعي
بشـــعر أمـــير الدولتـــين ورجعي

يهتف :

لدى كل شعب في الحوادث عدة — وعدتنـــا ندب التراث المضيع
فيا ضيعة الأقلام ان لم تقم بها — دعامه ركن المشرق المتـزعـزع
عزيزعليه يابني الشرق أن ترى — كواكبـــه في افقـــه غـــير طلع
وأعلامه من فـوقه غـير خفق — وأقلامه من تحتهـا غـير شرع
وكيف يوقى الشر أو يبلغ المنى — على ما ترى من شمله المتصدع

ويصل الى ذروة البراعة الفنية المشوبة بالشعلة المقدسة شـــعلة الوطنية :

فان كنـــت قـوالا كريمـا مقـــاله
فقل في سبيل النيل، والشرق، أودع

جهاد المرأة

ولا ينسى أن يحيي جهـــــاد المرأة ويرسم لها الطريق لبنـــاء مصر الحديثة ، انه يحيي جمعية المرأة الجديدة بلمسات المزهر الوطني المعبر :

يقولون نصف النيل في الشرق عاطل — نســـاء قضين العمر في الحجرات
وهذى بنات النيـــل يعملن للنهى — ويغرسن غرســـا داني الثمرات

ويسجل للمرأة صدق الكفاح :

وفي الســـنة السوداء كنتن قدوة — لنا حين سال الموت بالمهـــجات
وقفتن في وجه الخميس مدججا — وكنتن بالايمان معتصـــــمات
وما ها لكن الرمح والسيف مصلتا — ولا المدفع الرشاش في الطرقات
تعلم منكن الرجال ، فأصـــبحوا — على غمـــرات الموت أهل ثبات

فكتور هوغو

وحين يتغنى حافظ بالحرية ، ويدافع عنـــها ، ويضـــمنها موضوعاته ، يؤدي رسالة ندب لها ، يتحدث عنها ، وهو يشير الى نفي « فكتور هوغو » حين نفاه لويس بونابرت عام ١٨٥١ .

هاف في منفاه ان يدنو به ... عفو ذاك القاهر المغتصب
بشروه بالتداني ونسوا ... انه ذاك العصامي الابي
كتب المنفي سطرا للذي ... جاءه بالعفو ، فاقرأ واعجب
أبرىء عنه بعفو مذنب ؟ ... كيف تسدي العفو كف المذنب ؟

ثم يندد باعتقال العقول ، والحجر عليها ، واثر « هوجو » في تحريرها .

جاء ، والاحلام في أصفادها ... مالها في سجنها من مذهب
طبع الظلم على اقفالها ... بلظاه خاتما من رهب
جاءها « هوجو » بعزم دونه ... عزة التاج ، وزهو الموكب
وانبرى يصدع من اغلالها ... باليراع الحر ، لا بالقضب
هاله الا يراها حرة ... تمتطي في البحث متن الكوكب

مصر ، والعراق

وهاهي الوحدة العربية أغنيته المحببة الى نفسه ، يرددها على قياثر مختلفة وبألحان منوعة :

استمع الى هذا الوتر :

النيل ، وهو الى الاردن في شغف ... يهدي الى «بردى» أشواق ولهان
وفي «العراق» به وجد «بدجلته» ... و «بالفرات» وتحنان «لسيحان»
ان دام ما نحن فيه من مدابرة ... وفتنة بين أجناس ، وأديان
رأيته راي المعرى حين أرهقه ... ما حل بالناس من بغي ، وعدوان
لا تطهر الارض من رجس ومن درن ... حتى يعاودها نوح بطوفان

ونقف هنا وقفة قصيرة ، لنسجل لشاعرنا تحيته للدكتور طه حسين بعد أن فصل من الجامعة

قد اجدبت دار الحجا والنهى ... بعدك من آرائك النافعة
واخصبت أرجاء مصر بمن ... صير مصرا كلها جامعة

شعر لم يف بالقصد

وهو في رأيي أنه شعر لم يف بالقصد ، فالدكتور طه عميد البيان ، وهذا الايجاز فيه تكلف ظاهر ، ودون قدر الدكتور طه حسين .

هل ينساب القريض فى انشاده بتحية الدكتور طه حسين كما ينساب فى قصيدته التى يحيى بهـــا المقتطف ، وشيخيه ، « نمر » ، « صروف » :

شيخان قدخبرا الوجود ، وأدركا ... ما فيه من علل ، ومن أسـباب
واستبطنا الاشياء حتى طالعـا ... وجه الحقيقة من وراء حجـاب
خمسون عاما فى الجهاد كلاهما ... شـاكى اليراعة ، ظاهر الجلبـاب
لا تعجبوا أن خضـبوا قلميهما ... وبياض شيبهما بغير خضـاب
فلكل حســن حليــة يزهو بها ... وأرى اليراعة حليــة الكتـاب

الى آخر تلك القصيدة التى تربو أبياتها على الخمسين .

أقول ، هل كان حافظ فى تحيته للاستاذ العمـيد صـادق العاطفة ، أم انه استجاب لدعـــوة طلبة الجامعة فى اشتراكه فى تكريم العميد المفصول بهذين البيتين ؟

أما كان يستحق هذا الموقف الرائع ، الذى انتهى بالدكتـور العميد الى حرمان الجامعة منه فى ذلك الحين ، الى أن ينشد حافظ فى تكريمه ما يستأهله علمه وفضله ووطنيته من تقدير ؟

* * *

وحين يكرم الشـاعر ينشــد فى المحتفلين به قصـيدته التى مطلعها :

ملكتم على عنـان الخـطب ... وجزتم بقـدرى سـماء الرتب

كان ذلك فى عام ١٩١٢ ، وسجل الشاعر ما يستشـعره فى نفسه من حق مصر عليه فيقول :

أتسعى الى حمـاة القـريض ... وتمشى الى سراة العـرب
وتنظم فى عقـود الجـمان ... وتنـثر فوقى نثـار الذهب
وأكـرم حتى كأنى نبـغت ... وقمت لمصر بمـا قـد وجب

يرى حافظ أن تكريم الشعب له ، يجب أن يقوم على قدر قضائه حق الوطن عليه ، فياله من مكرم ، ومكرم .

مزهر الوطنية فى مراثيه

فى مطالع هذا القرن كان حافظ ابراهيم على موعد مع دعوة التحرير التى هتف بها قلب العروبة ، وقد اشـــتهر مع حافظ فى الثلث الاول من القرن العشرين شوقى ، وصبرى ، ومطران ، وهم الشعراء الاربعة الذين أجادوا وأبدعوا وسايروا النهضة الحديثة ، وكونوا دعامتها فى الشرق .

واذا كان الشرق فى تلك السنين التى لمع فيها هؤلاء الاعلام ، قد عانى من صراع المستعمر ، وصياله ، ما يعرفه الخاصة والعامة ، فان هذه الاوتار قد تركت للامة العربية ذخيرة من الآداب والفنون ، لم يتح لها فى غير هذه الظروف ، أن تفوز بمثل نفائسها .

ولقد أخذ كلُّ شــاعر من هؤلاء بحظه فى تخطيط رســالته فى الشرق على النـــحو الذى اتجهت فيه ملكته وطريقته ، بل ومدرسته ، فانهم وان التقوا على ميعــاد ، وفى عصر واحد ، وأمام ظروف موحـــدة فقـد ضرب كل حيث نزعت به فطرته ، وحيث تأثرت حياته واذا أفردنا بحثنا اليوم لاحد هؤلاء الشعراء الاربعة وهو حافظ مكتفين به ، فانما كان ذلك ، لأن منهج البـــحث قد وضـــع له فليس ذلك لتفضيل أحدهم عن صحابته .

وحين نتحدث عن حافظ الشاعر ، نعود الى نشأته تلك التى تميزت بالنشأة المصرية الشعبية .

وحياة حافظ تلك التى كانت مضطربا بين الصعيد ، والقـاهرة ، وطنطا ، ثم ذهابه الى السودان ، وعمله بالجيش المصرى بالسودان ، وبعده عن الامراء ، وتشبثه بالاندماج بالشعب اندماجا تاما ، هيأ له الوقوف على مشاعره ونزعاته ، واتصاله بزعماء النهضة الفكرية والوطنية . أمثـــال محمد عبده ، وسعد زغلول ، ومحمد فريد .

كل ذلك وجهه الى التعبير عن أمجاد مصر . وتجاوبه معها فى كفاحها ضد الغاصب . فكان حافظ لسان مصر ، وضمير الشعب يتحدث عنهـــا ويتجاوب مع أهـــداف الوطن ، وصيحاته . بما آتاه الله من فن بليغ فى القول ، والبيان ، ومناحى الابداع الشعرى .

واتخذ حافظ من الرثاء مظهرا من مظاهر الوفاء للقـادة والمصلحين وكان لقصائده احتفال ، واهتمام ، من الشعب ، حيث يلقيها فى المحافل العامة . والمناسبات الوطنية .

كان حافظ ينفث سحره فى الشعر ثم يرسله ليطوق به القلوب فما تستطيع عن تأثيره فكاكا . كان يأسرها ، ويأخذها ببرهانه ، فشعره متصل بشجون الناس وشئونهم ، وشئون الشرق وآلامه . وهو فوق ذلك ثائر ثورة المتجاوب مع هذه الشجون والآلام ، فكان حزنه حين يحزن ، وألمه حين يألم ، وغضبته حين يثور وينفعل ، من ضمير القلب وشعاعه النفس .

والروابط الوثيقة ، والصلات التى كانت تربط حافظا بأستاذه الامام وأضرابه من الزعماء والقادة وأصحاب التوجيـه ، ومن تلقى عنهم دروس الوطنية على عهده ، هذه الروابط وتلك الصلات ، كانت تنمو ، وتزكو ؛ وكان حافظ وفيـا شديد الوفاء حين كان يبكى علما من أعلام مصر الذين تأثرهم وفارقوه .

بل لقد كان تعبيره من ذلك اللون الذى ننشده من الحـزن والألم فيما يبثه سياسياته ، وما يودعه قصائده فى مصاب الشرق ، وما يحيط به من كوارث ومحن .

فصلاته بهؤلاء الوطنيين الذين كانوا يوجهـون الشـعب ، ويبصرونه بشئونه ، وحقوقه ، كانت صـلات مشتركة ، وروابط وطنية ، وانسانية تربطه بهؤلاء . فاذا ما فقـد حافظ أحد هؤلاء الاعلام ، انتقل من الرثاء والبكاء الى تضمين قصيده الاثر الذى تركه هؤلاء فى نفسه بعد وفاتهم والفراغ الذى خـلا بفراقهم ، وحاجة الوطن اليهم ، نزعات وطنية صادقة ، ومشاعر انسانية عليا .

يقرأ الدكتور طه حسين ابيات حافظ فى رثاء الامام الشيخ محمـد عبده حين يقول :

سلام على الاسلام بعد محمـد ... سـلام على أيامه النضرات
على الدين والدنيا،على العلم والحجى ... على البر والتقوى ، على الحسنات
لقد كنت أخشى عادى الموت بعده ... فأصبحت أخشى أن تطول حياتى
فوا لهفى ، والقبر بينى وبينه ... على نظرة من تلكم النـظرات
وقفت عليه حاسر الرأس خاشعا ... كأنى حيال القـبر فى عرفات

لقد جهلوا قدر الامام فاودعوا تجـــاليده في موحش بقـــلاة
ولو ضرحوا بالمسجدين لا نزلوا بخير بقاع الارض خـــير رفات

يعلق الدكتور طه حسين على هذه الابيات بقوله :

« في لفظ هذه الابيات من الروعة والرصانة ، ماعرفناه في شعر حافظ كله أو أكثره ، ومعانى هذه الابيات مألوفة شائعة ، ليس فيها غرابة ولا ابتكار ، ولكن فى الابيات مع ذلك شيء لا أدرى ما هو ، يملأ النفس روعة ولوعة ، والقلب أسى ، بل أنا أدرى ما هو ، هو قبس من هذه النار التى كانت تضطرم فى نفس حافظ حزنا صادقا على صديقه ، ووليه واستاذه ، نفذ هذا القبس الصادق فى هذا الشعر العادى فجعله حزنا كله . »

أجاد حافظ في رثاء الأستاذ الامام ، وفى رثاء مصطفى كامل ، لأن الأول كان فقده رزءا فى عظيم من عظماء الدين ، ومن عظمـــاء النهضة الفكرية ولأن الثاني كان فقده رزءا فى عظيم من عظماء السياسة .

فكان حافظ فى رثائهما . ناطقا بلسان الجماهير .

وبراعة حافظ فى تصوير آلام الشعب أكسبت شعره السياسى ، ورثاءه لاصحاب السياسة لونا من الخطابة يمنحه قوة غريبة ، تسيطر حقا على نفوس الجماعات فتفعل فيها الاعاجيب .

ويسوق الاستاذ العميد أبياتا من شعر حافظ فى رثاء مصطفى كامل يستشهد فيها على براعته وكيف ان الشاعر استحضر فيها شخص الزعيم يحف به الجلال والعظمة فى قوله :

انى أرى وفؤادى ليس يكذبنى روحا يحف به الاكبار والعُـظم
أرى جلالا ارى نورا ارى ملكـا أرى محيا يحيينا ويبتســـم
الله أكبر هـــذا الوجه أعرفه هذا فتى النيل هذا المفرد العلم
غضـــوا العيون وحيوه تحيته من القلوب اذا لم تسعد الكلم
لبيك نحـــن الألى حركت أنفسهم لما سكنت ، ولما غالك العـــدم
جئنا نؤدى حسابا عن مواقفنا ونســـتعد ونستعدى ، ونحتكم

يشير الدكتور طه حسين الى هذه الأبيات بقوله :

« هذه أبيات لو قراها ارسططاليس صاحب الخطابة ، ومنشئ علم البيان لما تردد أن يتخذها مثلا لما يسميه في الكتاب الثالث « وضـــع الشيء تحت العين » .

رحم الله حافظا ، لم يكن رثاؤه صورة لمـــا يثور فى نفسه ونفس الناس من حزن فحسب ، وانما رثاؤه يصلح مصـــدرا من مصادر التاريخ السياسى والاجتماعى فى هذا العصر . فقد كان حافظ يبالغ ويغلو ، ويطبع الخيال ويضطر الى المحال ، ولكنه رغم هذا كله ، لم يكن يفسد الحقائق .. ولا يعبث بها . وانما كان مؤرخا صادقا للحوادث فى رثائه وشعره السياسى ، كما كان مصورا متقنا للنفوس » .

كان حافظ حين يبكى علمـــا من أعلام العروبة ، يفيض بشـــجو يستثير الالم ويجمع القلوب حول مصاب الشرق فى آماله وقادته ، وكان يبكى الآمال وأحلام الامـــة فى عالم العروبة التى عاش ينـــافح عنهـــا :

بكى الشرق فارتجت له الارض رجفة ... وفاضت عيون الكون بالعبرات
ففى الهند محزون، وفى الصين جازع ... وفى مصر بـــاك دائم الحسرات
وفى الشام مفجوع، وفى الفرس نادب ... وفى تونس ماشئت من زفـــرات

يبكى الامام الشيخ محمد عبده بهـــذه الابيات ، انه يصـــور فيه الشرق كله والدين الحنيف .

تباركت هذا الدين دين محمد ... أيترك فى الدنيـــا بغير حمـــاة
تباركت هذا عالم الشرق قدقضى ... ولانت قنـــاة الدين للغمـــزات

انه الوفاء ، وحق الوفاء . فى نفس شاعر والحرية والوفاء .

حافظ ومطران

وواجب الوفاء والتقدير لهذا الشـــاعر الملهم يقضى بأن نشير الى ما اعتلجت به خواطره ، وانثالت به مشاعره فى عام ١٩١٣ ، أى فى مدى نصف قرن تقريبا يكرم زميله وصديقه شاعر القطرين (خليل مطران) ويضمن هذا التكريم معانى كريمه من صلات القربى بين أبناء العروبة :

تعرض هذه الطرفة الفنية على أعين القراء لنجلو صفحة فخـــار لحافظ الذى تغنى بوحـــدة القطرين من نصف قرن ، وقد كان حلما من أحلامه يتمناه للشرق .

وقصيدته التى نعرضها اليوم تعبر تعبيرا صادقا عن مشاعر حافظ نحو العروبة وهى مشاعرنا اليوم ، مشاعر الامة العربية المتحدة .

مصر والشام

يصور حافظ مصر ، والشام بروضتين زارهما ، وتنقل بين خمائلهما فى جنة العروبة المزهرة .

جاز بى عرفها فهاج الغراما ودعانى فزرتها المناما
جنة تبعث الحياة وتجلو صدأ النفس رونقا ونظاما
وتنقلت فى خمائلها الخضر يمينا ويسرة وأماما
فاذا روضتان فى ذلك الرو ض تمسيان تحت ريح الخزامى

ثم يواصل سيره فى هاتين الروضتين ، ويتلفت على حوريتين تمثلان سورية ، ومصر : تتناجيان على النحو الذى صاغه خيال الشاعر الفنان :

جاءتا تخطران ، والنجم ساه وعيون الازهار تبغى المناما
جازتا موضعى فهب نسيم أذكى منى الاسى وهاج الهياما
فترسمت فيهما أثر الخطو وخافت فى المسير احتشاما
وتسممت علنى أطفىء الشو ق وأروى من الفؤاد الأواما
فاذا لهجتان من لهجات الشر ق ، قد شاقتا فؤادى فهاما
تلك سورية تفيض بيانا تلك مصرية تسيل انسجاما
مالتا تحت دوحة ترسل الاغصا ن ، واختارتا لديها مقاما
ثم ألقت قناعها بنت مصر وأماطت بنت الشآم اللثاما
ظنتا ذاك المكان خلاء لا رقيبا يخشى ولا نماما
فجرى فيه ما جرى من حديث كان بردا على الحشا وسلاما
حين قالت لاختها بنت مصر انكم أمة ابت أن تضاما
تمتطون الخطوب فى طلب العيش وتبرون للنضال السهاما
فانبرت ظبية الشآم وقالت بعض هذا فقد رفعت الشآما
انتم الاسبقون فى كل مرمى قد بلغتم من كل شأو مراما
انما الشام والكنانة صنوا ن رغم الخطوب عاشا لزاما
أمكم أمنا ، وقد ارضعتنا من هواها ، ونحن نأبى الفطاما
قد نزلنا جواركم فحمدنا منكم الود والندى والذماما
وحللنا فى أرضكم فأصبنا منزلا مخصبا ، واهلا كراما

وغشـــينا دياركم حيث شـــينا . فلقينـــا طـــــلاقة وابتساما
وشربنا من نيـــلكم فنســـينا ماء لبنان سلســـلا والغمـــاما
وقبســـنا من نوركم فـــكتبنا واجـــدنا نثارنا والنظـــاما
فأشارت فتـــاة مصر ، وقالت قدك ، لم تتركى لمصر كلامـــا
انتم النـــاس قدوة ، ومضـــاء ونهوضا الى العلا ، واعتزامـــا
أطلعت أرضكم على كل افـــق انجمـــا اثر انجم تترامى
نحن في حاجـــة الى كل ما ينمى قوانا ويربـــط الارحـــاما

وهذه قصيدة حافظ حين كرمه السوريون بفندق شبرد تقديرا لمكانته وشعره :

وحسبه فيها ، أنه عبر عن تلك الحقائق التى كان يرهص لها من نصف قرن ، وهى آنئذ آمال ، واحلام .

لمصر أم لربوع الشـــام تنتسب هنا العلا ، وهناك المجد والحسب
ركنان للشرق لازالت ربوعهمـــا قلب الهلال عليها خافـــق يجب
خدران للضاد لم تهتك ستورهما ولا تحول عن مغناهمـــا الادب . .

الى أن يقول فى ترديد المشاعر الكريمة بين الشعب الواحـــد فى الدولتين :

اذا ألمت بوادى النيـــــل نازلة باتت لها راسيات الشام تضطرب
هذى يدى عن بنى مصر تصافحكم فصافحوها تصافح نفسها العرب
ففى الكنانة بل فى الشام عاج على ربوعها من بنيها سادة نجـــب

حافظ والجلاء

وأكبر ظنى أن يوم جـــــلائهم ويوم نشـــور الخلـق مقترنان

بهذا الاسى على حق الوطن فى جلاء الغاصب عنه ، وأنه سيظل جاثما على صدرنا ، وأغـــلا فى عظامنا كسرطان عياء ليس له دواء ، جرى وتر الشاعر .

وأكبر ظنى أن يوم جـــــلائهم ويـــوم نشـــور الخلق مقترنان

لقد كان حافظ ضابطا فى الجيش فهو عليم بخفـــايا أمورهم ، واسرار سياستهم ، وما افتنوا فيه ، من وسائل والاعيب فكان حدسه وظنه بهم فى تقريره هذا الذى يسوقه بوضوح وجلاء فى أنهـم قوم ناكثون للعهود مضيعون لها ، فهم ماكثون فى أرضنا الى يوم النشـــور وهل يظن خيرا بمثل أولئك اللئام ، كيف يظن بهم خيرا وهو يدمغهـــم بالحجة البالغة ، فسياستهم واحدة فى كل مكان ؟ .

ارى مصر والسودان والهند واحدا بها «اللورد» و«الفيكونت» يستبقان

ولكنه يستدرك ، فيضع الدواء الناجع لهـــــذا الداء يصفه لمصر صريحا مريحا ، الدواء الوحيد الذى خبره مع المستعمر ، ودرس به سجيته ، انها القوة وحدها . لقد كان رجال الثورة على بينة من هـــذه الحكمة ، وكانوا أسبر غورا من شاعرنا هذا وأبعد دربة وكفاية . يقـول حافظ يصف الدواء لهذا الاحتلال :

اذا غاضت الامـــواه من كل مزبد
وحــزت بروج الرجـــم الحدثان
وعاد زمان الســـــمهرى وربه
وحـــكم فى الهيجاء كل يمـــانى
هنـــاك اذكـــرا يوم الجلاء ونبها
نيـــــاما عليهم يندب الهرمان

وتشوف الشعب ليـــوم الجـــلاء يظهر فيما يسجله حافظ من دراساته لمواعيد عرقوب التى كان السادة الانجليز يعتنقونها ، ويخدرون بها وطنية الشعب ولا يرى فيها حافظ الا أكذوبة ابريل المشهورة .

اقرأ معى تنـــديده بكاتب فرنسى كان قد زعم أن جـــلاء الانجليز اقرب مما ، يتصوره ، غلاة الوطنيين ، فضرب له موعدا حدده بشـــهر أكتوبر ، فيسخر منه الشاعر بقوله :

كم حـــددوا يوم الجـــلاء الذى أصبح فى الابهـــام كالمحشر
وسن قوم الطيش من جهلهـــم كـذبة (ابريـل لاكتـــوبر)

حافظ ، ومظالم اسرة محمد على

ذلك مايرقمه الشاعر ويسجله فى تضاعيف شعره عن هذه الاسرة التى غرقت فى النعيم الى اذقانها ، وطامنتها الايام عهدا عهيدا فى حين تسترق الشعب المصرى ، وتسومه الهوان ، وتقنص من المغانم ، مايطيب لملوكها ، وحواشيها ، من المال والمتاع ولذائذ الحياة ، فى بذخ ، وسعة ، وبطر بنعمة الله سبحانه .

يرسم الشاعر الساخر بريشة الفنان لوحة بارعة ، يضفى عليها من صريح مصريته الالوان ، والظلال ، والملامح ، ويوضح الخطوط والمعالم لتخرج الصورة بمرائيها على القلوب والنواظر .

يخاطب عميد الدولة المتسلطة « انجلترا » مشيرا الى عهد اسماعيل .

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذبت ... حواشيه حتى بات ظلما منظما
تمن علينا اليوم أن أخصب الثرى ... وان أصبح المصرى حرا منعما
أعد عهد «اسماعيل» جلدا وسخرة ... فانى رايت المن أنكى وآلما

يرحب الشاعر بالجلد والسخرة على يد الاسرة الخاسرة محسنا الظن بها فى انتسابها لمصر • ويأنف المن والتسلط المستخفى الذى يسوم به الغاشم الشعب ويذيقه هوانا بحذق وكياسة ، فان نال الشعب خيرا بجده وعمله من عليه ونسب الفضل وحسن الأحدوثة له • وهو لا يأتى بخير أبدا •

وأى نياط يتفطر عنها قلب الشاعر لمواطن شهم مغلوب على أمره وهو ينشد :

عملتم على عز الجماد وذلنا ... فأغليتم طينا ، وأرخصتم دما

وتصل سخريته الى فلسفة التعبير اذ يوضح حال البلاد والانهيار الاقتصادى الداخلى بسبب الاستعمار . فى ظل حكام مصر ممن يعاونون المستعمر ويشدون من أزره . وهو يصور حال البلاد على تلك العهود :

فهش الى الدينار حتى اذا مشى ... به ربه للسوق الفاه درهما

ينعى شاعرنا على الالقاب والرتب ، وهو الذى كان يحمل رتبة البيكوية وكان يلقب (بحافظ بك ابراهيم) اى انه نال هذه الدرجة المشرفة على عهده لعلية القوم ممن نالوا الحظوة ، ولكنه كان يكن سرا فى نفسه ، انه يحقر تلك المظاهر الخادعة . وينعى على الوطن مثل تلك الصور الزائفة الطلاء .

وهل فى مصر مفخـــرة سوى الالقـــاب والرتب !

بل لقد دعا الى الاصلاح العام ، ونادى بالتطهير الذى سارعت الثورة اليه عقب التحرير فى قوله :

وذى ارث يـــــكاثرنا بمـــال غير مكتسب

حياد الذئب

أخذت مصر بمبدأ الحياد بين الكتلتين الشرقية والغربية وحملت راية السلام بين الشعوب ، ونظمت لذلك مؤتمرات الشعوب الحرة لا مؤامرات الذئاب لتخليص الانسانية ، من تسلط القوى على الضعيف ولرفع نير العبودية عن كواهل الشعوب المغلوبة على أمرها .

بهذا المنهج الواضح جاء حيادنا ، تخطيطا لمثل عليا تفيض على الانسانية خيراً ، وأمنا وسلاما .. وتشيع عدلا ، ويمنا .

ولكن كلمة (الحياد) كانت تستخدم على عهد المستعمر مخدرا للشعوب ، وستارا يخفي المستعمر تحته ألاعيبه ، وما أعده من نكال لها .

ولم يفت شاعرنا ، وكأنه كان يحصي عليهم حركاتهم ، ويعد لهم أنفاسهم — لم يفته أن يسجل عليهم ماخفروا من عهود ، ومانقضوا من وعود . ناعيا عليهم التشدق بهذه الكلمة المضيئة في حقيقتها ، والتي جللوها بالسواد حين اتخذوها ذريعة للعبث ، وختالا للشعوب الحرة :

أبعد حياد لا رعى الله عهده
وبعد الجروح الناغرات وئام

اذا كان في حسن التفاهم موتنا
فليس على باغي الحياة سلام

ويعيد عليهم التقريع ، مسفها أحلامهم ، كاشفا عن ألاعيبهم ساخرا من مكرهم ، منكرا عليهم أن يتحدثوا بين الشعوب عن الاخلاق .

لا تذكروا الاخلاق بعد حيادكم
فمصابكم ومصابنا سيان

ويقول :

لقد طال الحياد ولم تكفوا ... أما أرضاكم ثمن الحياد ؟
أخذتم كل ما تبغون منا ... فما هذا التحكم في العباد ؟

ولله در الشاعر وبيانه في الذروة يسخر بالقوم كاشفا عن حالهم المستور .

بلونا شدة منكم ولينا ... فكان كلاهما ذر الرماد
وسالمتم وعاديتم زمانا ... فلم يغن المسالم والمعادي

ثم يعلن باسم الشعب طبيعة هذه الامة الابية ودستورها اذا ماتجنى عليها معتد ، يعلن الشاعر صفة من اهم صفات هذا الشعب ،

وهي الاباء ، والعزة ، والفداء . يجهر فى شجاعة وشهامة ، بأن مصر سوف تستأنف جهادها لتستخلص حقوقها .

فليس وراءكم غير التجني وليس أمامنا غير الجهاد

وينعى على هؤلاء الناكثين ازهاقهم للحق وحيادهم الكاذب :

(قصر الدبارة) قد نقضت العهد نقض الغاصب
اخفيت ما أضمرته وابنت ود الصاحب
الحرب أروح للنفوس من الحياد الكاذب

ويوجه النداء الى عميد السياسة الباغية فى مصر (مندوبهم السامى) :

ألم تلمح دموع الناس تجرى من البلوى ، ألم تسمع أنينا
ألم تخبر بنى التاميز عنا وقد بعثوك مندوبا أمينا !
بأنا قد لمسنا العذر لما واصبح ظننا فيكم يقينا
كشفنا عن نواياكم فلستم وقد برح الخفاء محايدينا

ويصاولهم بقولة الحق ، يرسلها الحر الأبي ، صيحة أسد كاسر :

سنجمع امرنا ، وترون أنا لدى الجلى كراما صابرينا
ونأخذ حقنا رغم العوادي تطيف بنا ، ورغم القاسطينا

لقد صابرناهم ، ثم كشفنا حقيقة حيادهم الكاذب الذى يقوم على الضلال والخداع . أين ذلك الحياد من حيادنا الآن ، نبغى به حياة كريمة لجميع الشعوب فى ظل الامن والحق والسلام .

ولكن هيهات للذئب أن يستجيب ، وحياته الخداع ، والكذب والتضليل !

ولله دره ، وهو يندد بهذا الحياد الكاذب « حياد الذئب » بقوله يخاطب الانجليز بقصيدته :

أمحايد ، أم حائد عن منهج الحق المبين
نازلت شعبا اعزلا بمدرعين مدججين
وأمنت عقبى الظالمين وبئس عقبى الظالمين

وفيها يتحدث عن مدى صلابة الشعب ، وما تنطوى عليه جوانحه من عزم ، ووطنية صادقة :

مهمـــا تصب منــا فلسنا الجـــازعين البائســـين
انا بجبـــار السمـــاء وبالعقيـــدة نســـتعين
ان العقيـــدة لا تزلز لهـــا حـــراب الغاصبين
فلئن ملـــكتم يومـــكم فغـــد لرب العـــالمين

ويحذر من قوى الشعوب وسلطانها حين تغضب ، وان كانت عزلاء مستكينة الى حين مشيرا الى آخرة نابليون :

كم من قـــوى هـــده كيد الضعيف المســتكين
أو لم تروا ماذاقـــه بالامس ذيـــاك السجين
فى « سنت هيلين » قضى من دوخ الدنيـــا سنين

وهاهو يسوق القصيد يضم ماقرفه المستعمر من آثام جملة فى قوله ، ولعله كان يذكى بذلك وقودا للشـــعب وللشباب ليذكره على مر السنين :

ضـــقنا بكيد محايدين لنـــا وكيـــد مبشـــرين
ثاروا على دين الهــــدى وتخطفـــوا منـــا البنـين
داســـوا العرين ، وقد خـلا من اســـده ذاك العـــرين
خسر المبشر ، ان ديـــن الحـــق دين المسلمين
الله حاميـــه وكافيـــه شـــرور المعتـــدين

ولا ينسى التنـــديد بهذا الحيـــاد الكاذب ، فيواجهه بما يبهته بأبياته :

قل للمحـــايد هل شهدت دماءنا تجرى ، وهل بعد الدماء سلام ،
سفكت مودتنا لكم ، وبدا لنـــا أن الحيـــاد على الخصـــام لثام
ان المراجـــل شـــرها لا يتقى حتى ينفس كربهـــن صـــمام
انا جمعنـــا للجهـــاد صفوفنا ســـنموت أو نحيـــا ونحن كرام

لوحة الفنان

ويجمل بنا فى هــذا البحث أن نعرض لوحة من لوحات حافظ الرائعة ، وفنا من فنون حياته ، وهو يشق طريقه على طريقته الخاصــة فى مواجهة الحياة ، والاتصال بالناس ، واستشعار صلاته بهم ومسايرته لأحداث تلك الحياة وشأن حافظ فى هذا المجال هو السمت الصــادق المعبر عن صــدى أحاسيسه ، وكوامن نفسه ، وفطرته فى معالجة أحداث الحياة ، والحكم على الأشياء ، والنظر فى دخائل الأمور .

اننا حين نلم بطرف من هذا ، لنفتح صفحة جديدة فى تاريخ حافظ صفحة من حياته ، بل من طبيعته ، ورأيه ، واتجاهه .

وحين يميل حافظ الى النصيحة ، يقسو قسوة شديدة فى سوق المثل الشرود ، والحكمة البالغة :

اقرأ له معى فى عياب كثير العيوب :

يا ســاكن البيت الزجا ج هبلت ، لا ترم الحصونا
أرأيت قبــلك عــاريا يبغى نزال الدارعينــا

اما تلمح أيها القارىء فى معالجة هذا العيب الاجتماعى ، من وجهة نظر الشاعر أنه مرتبط بفتوته ، تلك الفتوة الوطنية ، المرتبطــة بمجتمعه العسكرى الذى اتصل به . ألا ترى معى أنه حين يضمن شعره تلك الألفاظ القوية (الحصون) ، (نزال) ، (الدارعين) أما ترى أنه ــ مصاول ومناضل من خيرة الشجعان ، اما تتصل هذه الألفاظ فى تلك القوالب الشعرية من جودة الصياغة ، بالحاسة الوطنية التى اختلط بها احساس حافظ ، وارتبط بها شعوره فى كفاحه ، وتعبيره عن ذلك الكفاح .

واذ يكتب حافظ ويعبر عن ملك ضعيف الرأى بقوله :

لا تعجبــوا فمليككم لعبت به أيدى البطانة ، وهو فى تضليل
انى أراه كأنه فى رقعــة الشــطــرنج او فى قاعــة التمثيــل

تراه معبرا عن سخطه وتبرمه من عنجهية المــلوك وســطوتهم . فهو يتلقف ذلك الملك الغاوى ، ويلقى به فى يد البطانة ، فتلعب به كما يلعب بقطع النرد فهو ضعيف كليل لا يدرى من أموره شيئا ، أو هو مسير يمثل به كما يجرى فى قاعة التمثيل ويستبد الغضب بالشاعر، هو يسجل ذلك الغضب معبرا عمن كثرت مخازيه فى قوله :

هنــا يستغيث الطرس ، والنقس والذى
يخط ، ومن يتــلو ، ومن يتســمع

مخــاز وما أدرى اذا ما ذكــرتها ..
الى الحمــد أدعى أم الى اللوم أدفــع

ضجر ، وسخط شديدان يعصفان بهذا الذى ألقت به المقادير فى طريق حافظ ، فوسمه بتلك السمات التى يستغيث منها ، الطرس ، والنقس .. ومن يتلو ، ومن يتسمع !. وهو لا يسكن ، أو يهدأ حتى ينفس عن نفسه فى عتاب صديق صدوق ..

رجـوتك مرة ، وعتبت أخـرى — فلا أجدى الرجاء ، ولا العتاب
نبذت مودتى ، فاهنأ ببعـدى — فآخر عهدنا هـذا الكتـاب

انها مقاطعة صريحة ، لغضب عارم ، راح به يهـدد صـديقه ، ويتوعده ، بقـول الشاعر موجهـا خطابه لصديقه .. أهنأ ببعدى ، وهو مدرك أن لبعده عن صـديقه ذاك ، وقع شـديد وألم ممض لدى هذا الصديق اذ يردف قوله : « وآخر عهدنا هذا الكتاب » .

ومن أرق ما يكتب حافظ فى اثارة كوامن الاشجان لدى الأصحاب والخلان ، ما بعث به من السودان الى صديق له ..

أثرت بنا من الشـوق القـديم — وذكرى ذلك العيش الرخيم
وأيـام كسـوناها جمـالا — وأرقصنا لهـا فلك النعيـم
ملأناها بنـا حسـنا فكانت — بجيـد الدهـر كالعقـد النظيم

وحين يصف صحابته فى يسر حاله وطيب عيشه يذكر حياته معهم فيصف ما هـو فيه وما هم عليه من شيم حسان ، وأخـلاق كريمة .. بقوله :

وفتيـان مسـاميح عليهم — جلابيب من الذوق السـليم
لهم شـيم ألذ من الأمـانى — وأطرب من معـاطاة النـديم
كهمك فى الخلاعة ، والتصابى — وان كانوا على خـلق عظيم
دعوتهـم الى أنس فوافـوا — موافـاة الـكريم الى الكريم
وجاءوا كالقطا وردت نمـيرا — على ظمـأ ، وهبوا كالنسيم

ويسكب حافظ كأسه من اللهو ، والسرور ، وينشدنا فى ذلك شعرا .. فى قوله :

وكان الليل يمرح فى شـباب — ويلهو بالمجـرة ، والنجـوم

الى ان يقول :

سلام الله يا عهد التصابى		عليك ، وفتية العهد القديم
أحن لهم ، ودونهم فلاة		كأن فسيحها صدر الحليم
كأن سرابها اذ لاح فيها		خداع لاح فى وجه اللئيم

ثم يشكو حاله وهو يواجه الخطوب ، ويذكر طماحه ، وانه لولا سورة المجد عنده ، لعاش قانعا لا يعرض نفسه لمثل هذه المكاره :

نزحت عن الديار أروم رزقى		وأضرب فى المهامه والتخوم
وها أنا بين أنياب المنايا ..		وتحت براثن الخطب الجسيم
ولولا سورة للمجد عندى		قنعت بعيشتى قنع الظليم

وحين يكتب الى صديق آخر ممن اضطلعوا بمثل رسالته .. يعبر عن معان فخمة فى نفسه ، وتقدير عظيم فى شعوره وحسه ، انه يكتب الى صديقه الشاعر داود عمون فى الشام وهو يحن حنينا الى تلك الديار ..

شجتنا مطالع أقمارها		فسألت نفوس لتذكارها
وبتنا نحن لتلك القصور		وأهل القصور ، وزوارها
ذكرنا حماها ، وبين الضلوع		قلوب تلظى على نارها
فمرت بأرواحنا هزة		هى الكهرباء بتيارها
وأرض كستها كرام الشهور		حرائر من نسيج « آذارها »
اذا نقطتها أكف الغمام		ارتك الدرارى بأزهارها
وان طالعتها ذكاء الصباح		ارتك اللجين بأنهارها

ثم ينتقل الى مناجاة صديقه ..

اذا ثرت ماجت هضاب الشآم		وباتت ترامى بشوارها
ألست فتاها ومختارها		وشبل فتاها ومختارها
(أداود) حسبك أن المعالى		تحسب دارك فى دارها
وان ضمائر هذا الوجود		تبوح اليك بأسرارها
وانك اما حللت الشآم		رأينك جذوة أقطارها
وان كنت فى مصر نعم النصير		اذا ما أهابت بأنصارها

ويرد عليه ذلك الصديق الشاعر ..

أمن ذكر سلمى وتذكارها		نثرت الدموع على دارها

وفى هذه القصيدة يشكو ذلك الشاعر حال الشرق ، وما هو فيه من سوء حال وظلم وظلمات :

اطوف فى الشرق على ارى بلادا تطيب لأحرارها
فلم أر الا أمورا تسوء وتصدع أكباد نظارها
فظلم بتلك ، وذل بهذى وجهل ، مغش لأبصارها
تعق مراحم رعيانها وترعى الولاء لجزارها

عهد عهيد فى الطغيان والعسف ينال الشرق على يد المستعمرين الغلاة .. كان من آثاره :

يدب التراخى على تربها ويجرى الخمول بأنهارها

ثم يناشد شاعرى مصر شوقيا ، وحافظا .. أن يؤذنا بأذان الجهاد .

أشوقى ، احافظ ، طال السكوت وترك الأمور لأقدارها
فصوغا القوافى مصقولة وشقا الجلود ببتارها
عساها تحرك أوطاننا وتنشر ميت احيائها
أقول ، واعلم انى سأرمى بأنى محرك ثوارها
وانى الدخيل ، وانى الغريب وانى النصير لقهارها

عهد الوفاء ..

وما أبر شاعرنا بعهد الوفاء ، وما أسرع مجاوبته لهتاف أمير الشعراء وهو فى منفاه ، اذ يقول شوقى وقد بعث بهذه الأبيات الى حافظ :

يا ساكنى مصر ، انا لا نزال على عهد الوفاء ، وان غبنا - مقيمينا
هلا بعثتم لنا من ماء نهركم شيئا نبل به أحشاء صادينا
كل المناهل بعد النيل آسنة ما ابعد النيل الا عن امانينا .

فيجيبه حافظ بقوله ..

عجبت للنيل يدرى أن بلبله صاد ، ويسقى ربا مصر ، ويسقينا
والله ما طاب للأصحاب مورده ولا ارتضوا بعدكم عيشا ، ولالينا
لم تنأ عنه وان فارقت شاطئه وقد نأينا وان كنا مقيمينا

حافظ فى تقويم الباحثين

أثار الأستاذ الشاعر محمد عبد الغنى حسن في كتابه « آعــلام من الشرق والغرب » الى ظاهرة هـامة رأى أن يعقدها تحت عنوان « شوقى وحافظ بين الكتب »

تلك الظاهرة هى قلة ما أخرجته المكتبة العـربية من كتب عن شاعرنا حافظ ونحن اذ نطرف القارىء بما يجتزئه من أسلوبه وقلمه حول هذا الموضوع نؤدى خدمة جليلة للقارىء ..

يقول الاستاذ الكبير « لما ظهر المتنبى ملأ الدنيا وشغل الناس، كمــا يقول ابن رشيق القيرواني واختلف النـــاس فيه بين متعصب له ومتحامل عليه ، فتعصب له ابو الفتح عثمان بن جنى ، وتنقصه ابن عباد ، ووقف القاضي على بن عبدالعزيز الجرجانى موقفــا قواما بين المادحين والقادحين فى كتابه « الوساطة بين المتنبى و خصومه »

« وقد شغل شوقى وحافظ الناس بالحديث عنهما حيين وميتين ولن يقف مدى الكلام عنهما ، ولن يكون القول فيهما معادا مكرورا مع قصر العهد بينهما وقرب الزمان منهما »

« واذا أنت قلبت المكتبة التاريخية لرجل مثـل نابليون فانك واجد فيها مئات من الكتب تتناول هــذا الرجـل من جميع نواحيه ، ففى كل يوم يظهر عنه بحث جديد ، ويقول القراء : هل من مزيد » .

« فليس اذن بالكثير على المتنبى أن تظهر فيه عشرات من الكتب ، وليس كثيرا على شوقى الشاعر أن تظهر فيه بضعة من الكتب ... وليس كثيرا ان ظهر فيه وفى زميله الشاعر محمد حافظ ابراهيم عدد خاص من مجلة ابولو عام ١٩٣٢ . وليس كثيرا أن خصصت لهمـــا مجلة الكتاب عدد اكتوبر عام ١٩٤٧ احياء لذكراهما وتخليدا لآثارهما »

« ان هذا التنبيه الأدبى هو قرين التنبيه القــومى ونتيجة له ونرجو ان يحور هــذا التنبيه الناشىء الى وعى عريق الأصول عميق الأسس » .

وللناس نصيب من الشهرة فى حيــاتهم وموتهم كنصيبهم من الغنى المقدر والتراث الموفور ، فهذا شــوقى قد ظفر من المكتبة العربية بأحد عشر كتابا تناولت شعره ومسرحياته وحياته على حين لم يظفر زميله وصديقه حافظ الا بكتاب واحــــد ظهر عام ١٩٤٧ وتعرض له من ناحية واحدة هى الشعر السياسى » .

هذه الماعه الكاتب الاديب عن شوقى وحافظ واغفال المكتبة العربية العناية بهما احياء لذكراهما وتخليدا لآثارهما ·

ويسعدنى أن أبادر بتحقيق أمنية الصديق الاستاذ الشاعر محمد عبد الغنى حسن فى الكتابة عن شاعر النيل .

ولكننى لم اكن معنيا حين رغبت فى الكتابة عنه باحياء ذكراه ولا بتخليد آثاره ، وانما رأيت وقد وجدت أن لهذه الذكرى حياة أقوى من حياة الأحياء ، وأحسست بما لآثاره من التماع فى صفحة الحياة يكاد يكون أنصع من فلق الصباح وجبهة الشمس

واذا كانت فكرة الكتاب قد خفقت فى روحى أول ما نبضت حين وقفت بلبلة الشرق « ام كلثوم » تسجل قصيدة حافظ « مصر تتحدث عن نفسها » وشهدتها عن قرب وهى تنفعل معها بكل قواها الفنية التى تنسجم مع ما فى هذه النفحة الوطنية من تعبير حاذق · اشاعته فى اللحن والنغم وجرى قدرا فى أوتار الغناء ، فقد نبضت فى قلمى يوم ترددت على أذنى ابان العدوان الثلاثى الغاشم على مصر:

وقف الخلق ينظرون جميعا · كيف أبنى قواعد المجد وحدى

وقد أفردت بحثا لتحليل هذه القصيدة ، أثبته فى موضع آخر من هذا الكتاب .

واعود فأرى ان أشارة الاستاذ عبدالغنى حسن تنم عن بصر وتقدير فان مثل شاعرنا حافظ حقيق بأن تمد فيه البحوث الضافية، والدارس لشعر حافظ ابراهيم ، الدارس المنصف ، يستطيع أن يستجلى فى شعره أفانين من خير ما يقدم للشباب زادا ينفع فى تربية الملكات واذكاء الروح القومى وتربية الخلق الرفيع ، وامتاع الذهن ، وبناء المشاعر وتوجيه النزعات والسمو بالأحاسيس ، والانطلاق الى الغايات . فهو يسرف فى شعره وتناول النواحى المتصلة ببناء الشباب، وارساء دعائم المجتمع . وهو تاريخ مصر ونبضات كفاحها ، واستمساكها أمام الطغاة .

ولن يبلغ النثر ما بلغه الشعر فى تهيئة النفس للتقبل وهو يحدوها بنغم يسرى فى الروح مسرى الضياء ·· فى آماق الابصار · أو هو التيار يدفق فى الاعصاب بالنور والنار .

وانى لأشعر برحمة وعطف شديدين على ذلك التراث المذخور الذى خلفه شاعرنا حافظ مقدرا ما اعتور حياته من عنت وما احتمل من ارهاق الى جانب الجهد المضنى فى تلبية نداء الوطن والكوارث تتتابع والأحداث تتدافع وليس له عن غشيان هذه الأوضاع معدى · وحياته موزعة بين اعداد قصيدة ، وانشادها وتلقى التهانى أو النقد فيها .

وليس الشعر كما يظنه المتطفلون عليه كما يقول الاستاذ على الجندى بالشىء السهل المنال ، القريب الغور .

« انه فن والفن تعب ! ، انه عبقرية والعبقرية جهد متصل : انه سلطان متكبر جائر لا يعطيك بعضه الا اذا أعطيته كلك ، واذا هجرته شهرا هجرك دهرا » .

« لقد كان الفرزدق — وهو احد الثلاثة السابقين فى العصر الأموى يقول : تمر على الساعة وخلع ضرس من أضراسى أهون على من عمل بيت من الشعر ، وكان جرير — وهو أحد المطبوعين الذين كانوا يغترفون من بحر — اذا أراد القول ربما علا السطح وحده فاضطجع وغطى رأسه رغبة فى الخلوة بنفسه وربما أمر فرشت الأرض بالماء ، ونزع ثيابه ونام فى الوحل !!

وكان أبو نواس لا يقرض حتى يشرب فاذا صار الى حال بين الصاحى والسكران واتاه الشعر .

وابن الرومى — وهو من أعلام العصر العباسى — يشكو صعوبة الشعر فيقول :

مطلبه كالمغاص فى درك اللجة   من دون دركها الخطر

ويقول بعض نقاد العرب « ان عمله (أى عمل الشعر) على الحاذق به أشد من نقل الصخر ، وهو كالبحر أهون ما يكون على الجاهل به ، أهول ما يكون على العالم ، وأتعب أصحابه قلبا من عرفه حق معرفته » .

ويقول بعض نقاد الغرب : لأن أقود جيشا أسهل على من أن أكتب ستة أبيات .

وانى لأشارك الأستاذ الكبير على الجندى فيما أورده عن قرض الشعر ، وبهذا يكون نقده أيسر من رياضته وتصفيته ونخله ، فالشعر ذوق وجمال وافتنان .

وهو كما أثبتنا فى ديواننا « مزامير » ضرب من ضروب التعبير الموسيقى البليغ وسمو بيان الشاعر فى مخاطبة الشعور والوجدان وائتلاف موسيقاه بموسيقا النفس وهواتف الشعور .

وانس النفوس البشرية بموسيقا الشاعر ظمأ فى خلايا الحس والشعور ينزع أبدا الى الارتواء .. ولا يمكن أن يرويه أو يمتعه الا ذلك القدح المسكر من رحيق البيان الساحر .

« وكلما عذب الراح اشتد هتاف الارواح الى مزيد من الشراب وكان ذلك الارتواء ظمأ متلاحقا متجددا .. وظمأ الوجدان آية الحساسية الفنية فى أوتار البشرية .. وهيهات يدرك فاقد الحس بليد الشعور ادراكا وجدانيا ينبع من حاجة الحواس الفنية الى الارتواء »

ولهذا فانا لا نضع فى حسابنا حين ننوه بشأن حافظ ذلك النوع فاقد الحس بليد الشعور فليس له عندنا اعتبار .

ذلك أن الاقلام الواعية والمشاعر المرهفة والملكات المصقولة ذوات الفطر المستقيمة التي لا تتحرف ، ولا تتحيز ، آمنت بمكانة هـذا الشاعر بل ان الزمان نفسه قد ائتلف مـع القدر في الاشادة به والاحتفاظ له بتلك المكانة التي تتسع آفاقها ويزيد وضوحها كلما ضربت الذكرى في التاريخ ايغالا وفي الزمن قدما وقد أشرنا الى نفر من ذوى المكانة والرأي ممن احتفوا بذكرى شاعرنا حافظ وان كان بين يدينا كثير من ذوى الاقلام النابهة يضفون عليه من حبهم له وشـغفهم بأدبه صـفحات ناصعة .

ويتحدث الدكتور طه حسين عميد الادب العربي عن الشـاعرين « شوقي وحافظ » في كتابه عنهما بقوله :

كلا الشاعرين قد رفع لمصر مجدا بعيدا في السماء ، وكلا الشاعرين قد غذى قلب الشرق العربي نصف قرن أو يقرب من نصف قرن بأحسن الغذاء وكلا الشاعرين قد أحيا الشعر العربي ورد اليه نشاطه ونضرته ورواءه ، وكلا الشاعرين قد مهد أحسن تمهيد للنهضـة الشـعرية المقبلة .. الى أن يقـول : « هما أشـعر أهل الشرق العربي منذ مات المتنبي وأبو العلاء من غير شك » .

المازني وحماقة الشباب

وللمازني آراء في شاعرنا حافظ ، فهو يرى أن حافظا يمثل المذهب القديم في الشعر بينما يرى أن شوقي يمثل الذهب الجديد . وهو لا يرى في شعر حافظ ما يراه في شعر شوقي انه ينهض بشعر شوقي وينزل حافظا دون مكانته بل انه ليرى أن بيتا واحدا لشوقي يرجح شعر حافظ جملة .. ! ولقد استبد به التعصب دون شاعرنا حافظ حتى بلغ ذلك منه مبلغا استحل فيه لنفسه أن يقول عن حافظ :

« ان البحث أعياه ليجد شيئا لا تنقبض منه النفس ولا ينبض عنه الذوق ، ويرى أنه ليس بشاعر فهو في رأيه وازن تفاعيل ومقطع أبيات ، ويرى أنه ليس بشاعر فهو في رأيه وازن تفاعيل ومقطع أبيات ، وهو يجزم أن شـعره سيعفي عليه الزمان ويذهب به وبذكرى صاحبه . لقد نعت المازني حافظا بنعوت فاحشة : نعته بالسرقة ، وجمود الخيال ، وفساد الذوق ، وغثاثة المعنى والجهل اللغوى » ولسـنا في مقام الرد والتفنيد فما نسوق الا الرأي أمام الحجة البالغة واضحة المعـالم ووضوح الحجة لحافظ هنا على مزاعم خصيمه انما تظهر في ذلك التراجع العجيب الذى أودى بقيمة الملكة الادبية والمقاييس الفنية في النقد لدى المـازني حين أصدر بعد عشر سنوات على آرائه تلك كتابه « حصاد الهشيم » وفيه يقول : «اما النقد فقد اسقطناه من جملة ما كتبنا غير آسفين على اسقاطه» ويعتل لذلك بقوله : « فقد كان مما أغرت به حماقة الشباب »

ويشير الى نقده ذلك بقـــوله « انه هراء قديم » أى انه كان يهرف بما لا يعرف · ويتصدى لأمر فى غير أمانة عفا الله عنه ··

ولعل فى هذا عبرة لكل من يتطاول دون مقدرة ، وفى غير جـــد ومعرفة فما هنالك فى المحافل الادبية من سقطة مثل ما ســقط فيه صاحبنا وهو يعتذر لنفسه عن ضلالة ارتكبها وحماقة غوى بها .

أحمد محفوظ ، وعزيز أباظه

واذا كان لى فى هذه الحلبة ان أمحص حياة شاعرنا فى تلك الحقبة التاريخية الحافلة بالاحداث ، والتى حين نذكرها نذكر فجر ثورتنا وبواكير كفاحنا ونضالنا ، ونحن عندما نتلفت لنرى كيف أصبحنا وأين كنا ، نجدنا والحمد لله فى موكب الامانى التى كانت تتراءى صورا وأحلاما على عهد صاحبنا الشاعر ورفـــاقه المناضلين أمثـــال مصطفى كامل ، محمد فريد وعلى يوسف ممن اضطلعوا بأعباء النضال عقب الثورة العرابية .

أقول انه اذا كان لى أن أقدم للقـــارىء نماذج مما خطت الاقـــلام وعالجت فيما يتصل بهذه الحقبة من تاريخـــنا وابراز الدور الذى تعرض له حافظ فى هذا التاريخ ، والظروف التى اكتنفت حياته ·

فانما أفيض فى وضع أكثر من نموذج للنقد الفنى أمام القارىء ، وأكثر من رأى ــ كيف كان هذا الرأى ــ ولكى أتيح لقـارىء أن يدرس معى تاريخ أمته وســـجل رواد نهضته · ولقد يرى الرأى معـى وهو فطن ذكى ذاك المدى الذى ينفسح أمام أخيلة الكتاب والبـــاحثين عنـد تنميقهم وتزويقهم ، كما يرى نزعات الشـــيطان فى هوى النـفوس وانحرافها عن جادة البحث الحر فى كثير من الاحايين . بل قد يرى الحمق والسرف فى أحايين أخرى يتعرض لها الكاتب العملاق وهـــو ينفس على الشاعر مكانته أو هو لا يسـيغ منـه اتجاها معينـــا كان يستهويه فى حياته على أنى أدرك أن اختـــلاف الآراء ليس مرده الى هذا كله أو الى لون واحد منه ، وانما قد يكون حين تصـــدقنى فراستى أن أرده الى فلسفة البحث وارتباط هـذه الفلسفة بطبيعة الناقد واستعداده بل ودراســـته · وحين ألجأ الى أولاء القلة ممن عالجوا حياة حافـــظ وسجلوا رأيا لهم عنه فاننى أتخير منهـــم من اتصلت حيـــاته بحيـــاة الشاعر ، وبهذا أريح وأستريح وأجمـــع الى اصالة الرأى صدق النظر وامانة التاريخ .

ويحدثنا الاستاذ أحمد محفوظ فى كتاب له أصدره على عهـد قريب عن « حياة حافظ ابراهيم » حديثـا مستفيضــا مستغرقا فيــه استغراقا لما كان له من صلات بالشاعر وهو يعمل معه موظفا بدار الكتب بقوله :

« كان شعره لا يمله القلب ، فان روحه الحلوة تنساب فيه فقد كان ينظم بقلبه لا بخياله »

— . « كان حافظ مرزوق الشعر عند كبار النقاد والفنانين كان لا تمل قراءة شعره الاذهان وان كانت مستنيرة عالمة بالجيد الرائع من الشعر والبليغ الســامى ، وان سألت الاذهان المستنيرة عن هذا الاصغاء العجيب لأجابتك قائلة :

« ان فى هذا الشــعر جاذبية غير واضــحة ولا مفهومة ، يحسها القلب وينكرها الذوق الفنى »

« وكانت هناك شخصية حافظ التى كانت تسيطر على شعره . فمنها كان يستمد سره وفيه بركتها كما يقول العوام »

ويواصل حديثه عن شخصية حافظ يقول :

« ولا يسعنا الا أن نقابل بالتكريم والتــنويه شخصية حافظ ابراهيم المطرود من الســودان والمتجول فى أكناف القاهرة بغير عمــل ولا مورد رزق معروف ولا جاه ولا ثقافة عالية ولا أسرة كبــيرة ، ولا أية أداة من الادوات التى تقدم الفنان فى هذا الجو الشرقى .

فقد اعتاد الشرق أن يقدر الفن ويقدر العلم ويعرف للنبوغ حقه اذا سانده كل هذا جاه أو مال أو عصبية .

وكان حافظ خلوا من هذا ، كان فقيرا ، وكان عاطلا ، وكان من اسرة متوسطة وبرغم هذا فرض نفسه على الجو الفنى فى عصره ، وكان منافسوه أقوياء »

فالبارودى : كان وجيها وحامل لقب فخم ، وناثرا عظيــما ، وباعث نهضة شعرية وكان شوقى : غرس نعمة بيت محمد على ، وربيب توفيق ، وصديق عباس وصهر عائلة غنية معروفة .

وكان مطران : مؤيدا من رجال لهم خطرهم ولهم صحفهم ولهم اقلامهم وله بعــد ذلك منهم التقديم والتنويه لأنهم كانوا يعدون شأنه أمرا وطنيا .

واسماعيل صبرى كان وكيل وزارة وحامل لقب عظيم .

وبرغم هذا فقد اندس هــذا المحامى الخائب والضابط المعزول بين هؤلاء الاربعة وتطاول حتى فات ثلاثة منهم شهرة وقف له الرابع بعبقريته وجاهه ولكنه لم يستطع أن يهزمه الا بعد عهــد طويل من العناء والغيظ وبذل الأموال ..

وبهذا الذى أورده الأستاذ محفوظ فى كتــابه عن حافظ نرى أن شــاعرا ما برغم ما لقيه فى حياته من بؤس وعنت مما يعوق الملــكات ويشغل النفس ويثقل عليها ، برغم هذا وبرغم منافسيه وما تأتى لهم من ظروف كانت كفيلة بأن تدفعهم دفعا الى مراقى الشهرة ، قد بزهم وهزهم هزا عنيفا ، ولم يبلغه أو يسبقه شوقى على حد قوله الا بعد طويل العناء وبذل الاموال .

والذى يمكن أن نقرره بعد : أن حافظ ابراهيم لو لم يكن شــاعرا

فحلا استطاع أن يضرب بسهم وافر فى آفاق الشعر ، وأن يتميز تميزا ملحوظا ، وأن يكون لشعره ذلك السحر فى النفوس والمكانة فى الاوساط الادبية لاندثر أدبه وعفى على فنه ما عفى على الكثيرين ولما كان له ذلك الشأو البعيد والصيت البالغ .

ونرى أن نشير الى ما كتبه الأستاذ عزيز أباظة ، وهو من كبار الشعراء المعاصرين وأحد تلاميذ حافظ الذين كانوا يختلفون الى مجالسه حيث كان يحب الجلوس اليه والسماع عنه .

يقول الاستاذ عزيز أباظة :

« كنت حريصا على الاختلاف الى المجامع التى كان يقف فيها خطيبا منشدا ، وذلك عند نزولى القاهرة للدرس ، ثم تأكدت المودة بيننا ، فكان صديقا لى ، وأستاذا موجها الى الأدب الرفيع والشعر الجزل من تراث الفحول من شعراء العرب وأدبائهم . ثم ينوه بما كتبه الاستاذ محفوظ وهو يقدم كتابه « عن حافظ ابراهيم » بقوله

« طلب الى الاستاذ محفوظ ان أقدم له كتابه فى « حياة حافظ »

« وقد رجوت أن يعفينى من تقدمة كتابه ذلك لان اجلالى لذكريات حافظ أبلغ من اجلالى لشعره »

« وحافظ طريف فى صياغته واسلوبه ومراميه »

« وقد تعرض المؤلف لضروب شعر حافظ بالنقد فانصفه فى بعضها وتجنى عليه فى البعض الآخر . والنقد قبل كل شيء ذوق خاص للناقد لا يلتزم به الا هو . وقد يخالفه فيه بعض ، ويشايعه بعض آخر .. » ثم يسجل رأيه عن حافظ بايجاز فيقول :

« ولكن الذى لا شك فيه أن حافظ ابراهيم : هو أحد تلك العمد التى قام عليها ذلك الصرح العالى الذى أرسى قواعده البارودى الشاعر الأشهر ، وأقامه على الجزالة وجمال الأسلوب بعد أن اندثر هذا الطراز من الشعر الفحل فى الشرق العربى من مئات السنين »

« وحافظ ابراهيم كما يقول الاستاذ محفوظ جاهد وثابر وزاحم حتى اعترف به الوسط الشعرى وعده فى طليعة الشعراء الذين ازدهر بمقدراتهم الشعر الفخم الجليل فى مستهل هذا القرن ، فقد كان حافظ يذكر بالتقدير والاعجاب فى نسق مع البارودى والشاعر الخالد شوقى »

ويذكر الأستاذ « أباظه » مكانة حافظ وانه أوفى على الغاية فى الشعر الوطنى بقوله :

« وقد ساهم الشاعر فى مواقف رائعة جليلة فى الوطنية والإجتماع ولعله كان ابرز شاعر عرفته المواقف الوطنية فقد كان حرا منطلقا

لاتحجزه قيود كالتى كانت تحجز شوقى فى تبعيته للقصر ، وتلك التى كانت تقوم بين اسماعيل صبرى وبين واجبه الوطنى فقد كان هـذا الشاعر الرقيق موظف دولة ، فـرضت عليه قوانين ولوائح تعترض سبيل انطلاقه الى حيث كان ينطلق حافظ ابراهيم العائد من السودان مفصولا عن وظيفته وحافظ قريب الى قلوب قراء شعره ففى هـذا الشعر طلاقة وبداوة ونسمات طيبة من روح حلوة صادقة ... »

لقد تشرب روحه من تلك الارواح المصرية الخالصة فكان رحمه الله شـاعرا مصريا قحـا . كان الشعب مدرسته فمنها اكتسب غالبية ثقافته وفى هذه المدرسة تخرج حافظ ابراهيم شاعرا كبيرا .

والذى يعنينا من عرض هذه الآراء للاستاذ عزيز أباظـة عن شاعرنا حافظ ابراهيم هو ماأشار اليه الأستاذ محفوظ فى كتابه عن حافظ فقد أنصفه فى نواح وتجنى عليه فى نواح أخرى ، وأن النقد ذوق خاص للناقد لا يلتزم به الا هو قد يخالفه البعض ، ويشايعه آخرون ..

وهو بهـذا يوافقنا فيما أوضـحنا عن منزلة النقد ، وعن رأى الناقد وارتباطه بذوقه هو وميوله واتجاهه وفلسفته وتخصصه .

وبهذا لا يمكن الحكم على الشاعر برأى فردى يصدر عن هوى أو عن تأثر بجانب خاص ، يكون صدى لانطباعات الشعر فى نفس الناقد .

دسوقى أباظه ، وطه حسين

والى القارىء الكريم صورة أخرى .. ولكنها تغاير الصـورة السابقة ..

نشرت مجلة أبولو رأيا للدكتـور طه حسـين عن حافظ أورده السيد الأستاذ ابراهيم دسوقى أباظه رحمة الله عليـه وكان من الوزراء المشتغلين بالأدب الى جانب السـياسة فى تضاعيف مقـال دبجه عن حافظ وذلك لمناسبة اصدار المجلة عددا خاصا عن شاعر النيـل احتفاء بذكراه .

يقول الاستاذ ابراهيم دسوقى أباظة .. واذا كان لكل شـاعر شيطان أو ملاك ملهم فان ملاك حافظ كان مشغوفا ببنى أباظه يلهمـه فى مديحهم المعجزات ، أما شيطان طه حسين فلا يغريه الا بالطعن والتعريض والهجاء فهو يقول « بأن شعره فى رثاء أصدقائه الاباظيين متكلف لا يدل على حزن صـادق ولا لوعة وانما دفع اليه بواجب المجاملة ، وانك تحس عندما تقرؤه كأنما تقرأ شعر طالب وضع أمامه

نماذج من الشعر القديم وأراد محاكاتها فأخذ معاني القدماء وذهب مذهبهم في الغلو السقيم » ويشبه الدكتور تعزية حافظ للأباظيين بتعزيته للانجليز في فقد ملكهم ويعقب الاستاذ دسوقي أباظة على قول الدكتور طه حسين هذا بقوله :

ولست أدري لم يكون الأمر كذلك ؟ وقد حدثت القراء بنشأة ما كان بيننا من صلة ولم يشبهنا الدكتور طه حسين بالانجليز غفر الله له ؟ وأجدادنا عرب علموا الناس الوطنية والثبات ، ولم نعبد اليوم ماكنا نحرمه بالأمس ولا حرمنا اليوم ما كنا نعبده من دون الله ، ولااتخذنا السياسة تجارة ؟ ويعلل لذلك بقوله :

والسبب في هذا كله ما وجده في رثائه من الغلو فهو يقول في رثاء احد الاباظيين

لا تحملوه على الرقاب فقد كفى	ما حملت من منة وعطاء
وذروا على نهر المدامع نعشه	يسري به للروضة الفيحاء
خلق كضوء البدر أو كالروض أو	كالزهر أو كالخمر أو كالماء
وشمائل لو مازجت طبع الدجى	مابات يشكوه المحب النائي
ومناقب لولا المهابة والتقى	قلنا مناقب صاحب الاسراء

وهي أبيات من مرثيته للسيد سليمان اباظة ، ثم يرد الاستاذ دسوقي أباظة على نقد الدكتور طه لحافظ بقوله :

هل سمع الدكتور شعرا عربيا له أو لغيره في الرثاء أو المدح خاليا من المبالغة والاغراق ؟

ويواصل الأستاذ دسوقي أباظه قوله :

أما ما يعجب به الدكتور طه ويحبذه فهو رأي للاستاذ لطفي السيد في قوله :

لقد كنا نعجب بشعر حافظ منذ كنا أطفالا يافعين ونرى فيه زعيما من كبار الزعماء الوطنيين المخلصين نتغنى بشعره ونفضله على سائر الشعراء **لأنه كان يضرب على الوتر الحساس ويهيب بالشباب ، ويلهب العواطف ، ويحفز الهمم ويكافح اليأس والتواكل ويدعو للجهاد والأمل** » .

ثم يقارن بين شوقي وحافظ في الجانب الوطني فيقول :

« وكان شوقي في منصبه الرسمي لا يستطيع خوض غمار السياسة بحرية ، وصراحة ، فانفرد حافظ واستوى على القلوب وأحرز مكانة لاتدانيها مكانة » .

ويحتج الأستاذ أباظه لشوقي بقوله :

أي أديب لم يتغن بقصيده ، في جميع ضروب الشعر ، وأي أديب

لم يفرغ الى سماعه ، يتدفق في الحفل بصوته الجهوري الممتع والقائه البديع الخلاب الذي كان يدوي بين الجماهير فيضم سحرا وفخامة جديدين الى ديباجته الساحرة الفخمة .. ولست أحب أن أعيد عليكم قصائده الخالدة في البارودي ، وعثمان اباظة والاستاذ الامام ، وقاسم أمين ، وصبري ، وعلي يوسف ، والمويلحي » .

ويسوق لنا مختارات من شعره في قصيدة ينوه بشأنها وهي خمرية بذ فيها أبا نواس ولم يبلغ شأوه فيها أحد كما يقول وهي :

اوشك الديك أن يصيح ونفسي	بين هم وبين ظن وحدس
يا غلام : المدام والكأس والطا	س وهييء لنا مكانا كأمس
أطلق الشمس من غياهب هذا الد	ن واملأ من ذلك النور كأسي
وأذن الصبح أن يلوح لعيني	من سناها فذاك وقت التحسي
وادع ندمان خلوتي وائتناسي	وتعجل واسبل ستور الدمقس

شوقي وحافظ

يقول الدكتور طه في كتابه (شوقي وحافظ) :

كنت مرة عائدا مع الاستاذ لطفي السيد بعد أن حضرنا اجتماعا لتخليد ذكرى حافظ قبل أن يموت شوقي ، وكنا نتحدث في أمر الشاعرين فقال لطفي بك :

لقد خدعني حافظ عن نفسه كما خدعني شوقي عنها ! كنت ألقي حافظا أول عهده بالشعر وكان يسمعني من شعره فلا يعجبني ، فقلت له ذات يوم ! أرح نفسك من هذا العناء فلم يخلقك الله لتكون شاعرا ولكنه لم يقبل نصحي وحسنا فعل فما زال يجد ويكدح حتى أرغم الشعر على أن يذعن له وأصبح شاعرا وكنت شديد الاعجاب بشعر شوقي أقرؤه في لذة تكاد تشبه الفتنة وأثني عليه كلما لقيته ، فما زال شوقي يكسل ويقصر في تعهد شعره حتى ساء ظني بشعره الأخير ! .

ويحتكم الاستاذ أباظه الى القراء في هذا الذي أثبته الدكتور طه عن حافظ في كتاب (شوقي وحافظ) بقوله :

واكتفي بأن أحتكم للقراء في رأي أستاذنا « لطفي بك » وموافقة الدكتور طه عليه فان الاجماع يقول غير ذلك يقول بضعف شعر حافظ في السنين الأخيرة من حياته ، أما شوقي فلم يدرك الضعف شعره ولا تطرق اليه الوهن وكل من قرأ قصة مجنون ليلى وقد أخرجها شوقي في آخر حياته يرى فيها البرهان الساطع والدليل الناصع القاطع ، فما تلوتها

مرة الا أخذتنى هزة الطرب ونشوة العجب وأكبرت لغة العرب · وقد قال عنها حافظ بأنها معجزة المعجزات وآية الآيات فليسمح لى الدكتور طه المعجب بالفيلسوف ديكارت القائل بنظرية الشك حتى يصل الى الحقيقة أن أشك فى اسناده هذا الرأى لأستاذنا الكبير لطفى السيد ·

ثم يتحدث الاستاذ دسوقى أباظه عن حافظ بقوله :

واسقنا ياغلام حتى ترانا ... لا نطيق الكلام الا بهمس
خمرة قيل انهم عصروها ... من خدود الملاح فى يوم عرس
مذ رآها فتى العزيز مناما ... وهو فى السجن بين هم ويأس
أعقبته الخلاص من بعد ضيق ... وحبته السعود من بعد نحس

ويستطرد الاستاذ الاديب الكبير فى التنويه بشأن حافظ بقوله :

« وقد برع فى النظم فى الاجتماعيات فاهتز لشعره العالم العربى كله ، وتبوأ المكان اللائق ، تحت الشمس ، وأخذ بعض الناس يفاضلون بينه وبين شوقى ، وتلك مرتبة لم ينلها قبله أحد» ·

« أما قصائده فى تأبين الشيخ محمد عبده ، ومصطفى كامل ، وسامى البارودى وفى عزل السلطان عبد الحميد ، فقد جاوزت الابداع ، وجرت مجرى المثل فعظم خطره وتألق نجمه وأصبح شاعر النيل غير مدافع » ·

وكان اذا خلونا به يحمل على شوقى وشعره ، ولا يسلم له بالامامه ولا يعترف له بالزعامة وكان يحب كبير الشعراء خليل مطران ويخلص له وطالما سمعته يطنب فى مدحه ويذكر الاساتذة محرما (الشاعر أحمد محرم) والكاشف ونسيما بالخير · ويذكر بالخير الكاتبين المازنى والعقاد وله فيهما وفى الدكتور طه حسين رأى معروف ·

شاعر

وَلَـكِنَّنِي فِي مَعْرَضِ الْقَوْلِ شَاعِرٌ

أَضَافَ إِلَى التَّارِيخِ قَوْلاً مُخَـلَّدَا

حافظ .. نشأ شاعرا

وحين أشار الاستاذ ابراهيم دسوقى أباظه الى شاعرنا حـــافظ ابراهيم فى حديثه عنــه بدار الأوبرا فى الحفل الذى أقيم عام ١٩٣٧ بقوله :

« ولد حافظ فى ٤ من فبراير عام ١٨٧١ م فى ذهبية كانت راسية أمام ديروط على النيل لأعمال كانت تقام باشراف أبيه ، ولعمرى أنه لميلاد جدير بشاعر » ، ثم يقول :

ولو كنت شاعرا لزعمت أن ميلاد شاعر النيل فى أحضان النيل وفى مهد من جمال الطبيعة الساحر كان له تأثير فى شـــاعرية حافظ المبكرة ، وفى انه فتن بوطنه وبرح به هواه فحمل قيثارته يتغنى بعظمته ويبكى لمصابه ، ويهيب بأبنائه لانقاذه ويذكره بماضيه وحضـــارته حتى استحق أن يلقب بشاعر النيل ويكفيه ما فى اللقب من اعجاب وتقـــدير وتبجيل .

أقول أنه عندما تحدث الاستاذ ابراهيم دسوقى أباظه بهذا لم يسع الاستاذ العقاد الا أن يعلق على هذا بعد وفاة حافظ بقوله :

«لااخال أن حافظا فى مولده قوبل بترحيب أوفق من هذا الترحيب»

ثم مضى الاستاذ أباظه يؤرخ لحافظ فسرد لنا جانبا من حيـــاته يجمل بنا أن نقتطف فقرات منه :

« نشأ حافظ شاعرا ، فقد حدثنى رحمه الله أنه نظم كثيرا فى أثناء الدراسة الابتدائية ولكنه عندما شب عمد الى شعر الحداثة فأتلفه جميعا لكيلا نحظى من كلامه الا بالشعر الناضج الرصين» .

توفى أبوه بعد عامين من ولادته فأقام فى أكناف خاله وأمه السيدة زينب ، ولم تمض سنوات حتى ماتت أمه أيضا فأمسى اليتيم لطيما .

وأحسب أن تلك الظروف القاسية أحدثت فى نفسه ثورة ألم عظيم وهم مقيم وجعلته ينظر الى الدنيا نظرة كئيبة قاتمة حالكة السواد وغلب على شعره الكلام عن البؤس وشكوى الزمان .

اختار حافظ كتاب البؤساء لهوجو فعربه ، فكنت ترى شـــبح حافظ يهيم فى كتابه بين أولئك البائسين ، وكان مبدعا فى شكواه بليغا

عظيما ، قاسيا رحيما حتى عرف بالتفوق أولا فى هذا الباب ، ولفت اليه الأنظار ، وكان ممن لفت نظرهم الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده وبعض أصدقائه وفى مقدمتهم سليمان أباظه من وزراء المعارف السابقين وسعد زغلول وجمع عظيم من العلماء والاعيان .

وما أن اهتم به الامام وأصدقاؤه الكثيرون حتى أخـــذت السحب تنجاب شيئا فشيئا والغيوم المتلبدة تنقشع رويدا رويداً .

وقد أبدع في شكوى الزمان في قوله :

جنيت عليك يا نفسى وقبـــلى   عليك جنى أبى فدعى عتـــابى
ولولا أنهـــم وأدوا بيـــانى   بلغت بك المنى وشـــفيت مابى

ويقول يشكو بؤسه ويصور حاله :

وددت لو طرحوا بى يوم جئتهم   فى مسبح الحوت أو فى مسبح العطب
انى احتسبت شبابا بت أنفقـــه   وعزمة شابت الدنيـــا ولم تشب .
كم همت فى البيد والآرام قائلة   والشمس ترمى أديم الارض باللهب
اذا نطقت فقاع الســـجن متكأ   وان ســـكت فان النفس لم تطب

ويتحدث عن رحلة اشتراكه فى حملة السودان :

« انتظم حافظ فى ســـلك طلبة المدرسة الحربية وكانت غاية أمله ومعقد رجائه وبعد أن أتم دراسته بها عام ۱۸۹۱ م التحق بالجيش المصرى برتبة الملازم الثانى بالطوبجية » .

ثم اشترك فى حملة السودان الشرقي بسواكن ثم فى الخرطوم .. وكانت النفوس اذ ذاك تضطرم بوطنية قوية ملتهبة يتعهدها الخـــديو السابق ويذكيها ، فاكتشف الانجليز جمعية سرية من الضباط لها صلة بالخديو — ومنهم حافظ — فأحيلوا الى المحـــاكمة فى قلعة الجبل فأحيل الى الاستيداع .

« لجأ حافظ عقب ذلك الى الاستاذ الامام وتمكن رحمه الله من اعادته للخدمة فى البوليس ثم أحيل الى المعاش بعد أن قضى فى خدمة الجيش والبوليس أربعة عشر عاما » .

شاعر النيل

«واتصل بأمير الشعراء (أحمد شوقى) وبفضل صداقته لصاحب الاهرام التحق بها فطار صيته ، ونبه قدره ، واشتهر شعره ونثره ولقبته الاهرام بشاعر النيل ، وأجمع الناس عليه فاستولى على هذا اللقب وعرف كيف يذود عنه ويحميه ، ويدافع عنه منافسيه فيه » •

شاعر الوطنية

« وكانت البلاد تغلى غليانا يقود زمامه فتى شجاع يشعل فيها روح الثورة والكفاح هو المرحوم مصطفى كامل ، فأعدها للنضال ، وجاء حافظ يقيم له جهوده ويوقظ النار تحت مرجل العواطف الوطنية الصادقة ، فكان لسان بلاده الغاضبة الحانقة الثائرة ، وكان شاعر الوطنية والاجتمـــاع والمناسبات الخطيرة ، .وكانت قصائده تدوى فى الآفاق فيتلقفها المتحمسون والسياسيون والادباء على السواء ، وتضفى عليهم الى جانب الوطنية علما وأدبا وتفيض على الشرق كله أخلاقا وبلاغة وسحرا ، فكان شاعر الوطنية الأولى » •

ونحن نثبت هذا المقال عن حافظ لصديق له كثيرا ما تودد له واحتفى به ومس جدثه الطاهر حين دعى لتخليده بقوله :

« ليس فينا من لايشعر نحو شاعر مصر الكبير بدين يتطلب الوفاء ولكن شعورا آخر يقعد بنا هو العجز عن حسن الأداء» •

شوقى فى شعر حافظ

واذا تردد «شوقى» فى شـــعر حافظ ونهض حافظ بواجب الولاء لشوقى وأعلن انضواءه تحت رايته ، فهو أمر لا غرابة فيه ، فما قامت هناك ملاحاة بين الشاعرين الكبيرين اللذين ضمهما عصر واحد ولا سيما أن شوقيا كان يعطف على حافظ، وكانت حال حافظ على مانعرف من الضيق والشدة ولعله قد اختار ميدانه الوطنى المرتبط بوجـــدانه المصقول وأحاسيسه الثائرة فحاله شبيهة بحال وطنه وكلاهما طريد البؤس والاضــطهاد اضطهاد الحياة وخشونة الزمن فحين يركن اليها ليؤاسيها ويبكي عنها ، ويشكو بلسانها ويدفع عن حوزتها يرفه عن نفسه ويتعزى ، كما تعزى امرؤ القيس وهو يخاطب الورقاء بقوله :

أجارتنا آنا غريبـــان هاهنــــا   وكـــــل غريب للغريب نسيب

أقول بأن الصبوة التى أذكاها البؤس فى حياة حافظ التقت بالجـو السياسى القائم والمشبع بضروب العنت والعسف • فأرهف فى نفسه الحس وزاد من فورته وثورته ووجد فى نضرة أمه الباقية ، الخالدة ، المســتذلة (مصر) ترويحا عن نفسه واستمساكا لروحه ، وحين غامر وقامر وصفقت له الجماهير واندلعت شرارة الثورة فى أعصاب الشباب ، ورأى أن له فى النفوس فعل السحر وأنس الى القلوب المكلومة التى التفت به وانعطفت له تفجرت قريحته بذلك الينبوع الوطنى والشعر السياسى الذى اجتمعت له عدته واستوت له طريقته ، وأوتى أكله من راحة الضمير واسترواح النفس وصفاء البال حين يأخذ بيد قومه وهو المصرى الأصيل ابن النيل الذى يهتز للمعروف ويغيث الملهوف ويتعشق البطولة ، لقد كان كالمغنى الشعبى الذى يأخذ بزمام الجماهير فما تزال تصفق له وتحتفى به وتقدر مروءته ومكانته وهو يشجيها ويبث فيها الحياة ، ويسقى ظمأها ويرأم التياعها •

ثم كان ذلك الشأو المرموق الذى اتخذ شكله الأدبى العام فهو شاعر النيل وهو المنافح عنه ، وهو درة الحفل والاقة المهرجان •

ثم كان ما وهب الله له من طلاقة فى الالقاء وتعبير فى الصـــوت ، والتفات وبراعة فى اخراج ذلك الكلام المنغوم ، ذلك اللحن الساحر •

وكانت المحافل وهى تلتقط تلك الدرر وتذيع فيما بينها وتتناقــل صدى تلك الألحان التى ينشرها حافظ ويذيعها بين الصحف والحفلات •

كان عود الثقاب في يوم الحر الصائف يقع وينبث في الهشيم فما هي الا النيران والدخان وما وراءهما من عرام ·· وصدام ·

وكان قبل ذلك وبعد ذلك كله شاعرية حافظ وموهبته النامية في الجو المهيأ لها ·

فاذا أنشد أمير الشعراء احمد شوقي يخاطب شاعر النيل بقوله :

ياحافظ الفصحى ، وحارس مجدها ... وامام من نجلت من البلغاء
مازلت تهتف بالقديم وفضله ... حتى حميت أمانة القدماء
وغدا سيذكرك الزمان ولم يزل ... للدهر اصغار وحسن ثناء

حين يحيي أمير الشعراء حافظا بقصيده هذا نجد حافظا يتحدث عن نفسه بترفق يطامن زمانه ويجامل أقرانه في تواضع الأعلام آونة ··

وهل أنا الا امرؤ شاعر ... كثير الأماني قليل النشب
يقول ويطرب أترابه ... ويقنع منهم بذاك الطرب

وفي أسلوب ساخر لاذع يكاد فيه ينكر نفسه :

تعلقت حينا بذيل البيان ... وأدخلت نفسي فيمن كتب
فلا السبق لي في مجال النهى ... ولا لي يوم الفخار العجب
ولا أنا من علية الكاتبين ... ولا أنا بالشاعر المنتخب

ثم يذكر نفسه قليلا ، ويطلق لأحاسيسه التعبير ولكنه يقيم عليها حارسا من فنه وفطنته وحاجته :

لم أجد أحدا في الشعر يسبقني ... الا فتى ماله في السبق الاه
ذاك الذي حكمت فينا يراعته ... وأكرم الله والعباس مثواه

وماذا يضيره اذا احترس لنفسه ولم يركب رأسه فيغضب شوقي اذا هو جهر بمكانته التي يحسها ، ويكتمها ، ولا يبوح بها الا لخلصائه ، ومنادميه ، ان ذلك لن يكون على حساب غيره بل على حساب نفسه هو وهو حر فيها هو الذي يملكها ، وهو الذي يحمل اصرها ووزرها ·· فلا عليه اذا سعى مع الساعين وانضم الى الوافدين ، ودخل مع لداته وأقرانه وأجمعوا على مبايعة شوقي بالامارة ·· ولا عليه اذا نكس رءوس قوافيه احتشاما وتكريما :

أتيت سوق عكاظ ... أسعى بأمر الرئيس
أزجي اليه قواف ... متكنسات الرءوس
ليست بذات رواء ... تزهى به في الطروس

ولا بذات جمـــال • • يسرى بهـا فى النفوس
لم يحبها فضل شـوقى بقيـــــة من نسيس

وكأنما كان شوقى ملكا يحكم ، وكان حافظ وزيرا له يحوطه بمـا يحيط به الوزراء ملوك الطغيان بالهل والهيلمان :

قـــال الرئيس ومن ذا يقول بعــــد الرئيس
سقى الحضـــور شرابا ينسى شراب القســوس
معتقـــا قبل عـــاد فى مظلمات الحبــوس
يريك والليــــل داج شموســـه فى الكؤوس

ثم يغمز المزهر أو يضرب على الصنج ويزف شوقى فى حلبـــة المهرجان :

بنات أفكار شـــوقى فى جـــلوة كالعروس
تزهى بمعنى ســـرى أتى بمعنى شـــموس

وهو اذ يبدع فى بيانه هذا ويمتع ، يمكر بالحفل ومن فيـه ولا ينسى أن يأخذ بحقه فى ذلك الاعجاز الشعرى الذى يديره على النفوس ويكرم به شوقى •

ان عقارب الشعراء حين تدب دبيبها ليست فى حاجة أكثرمما برع فيه حافظ ليستهويها ويرقصها ويتحـاشى أذاها ، فالمكانة الرسمية التى كان يتمتع بها شوقى والمنزلة التى أنزلها من الملوك والحكام ومن يلوذ بهم لم تكن ضعيفة الحيلة اذا هى أرادت أن تحيط بهـذا الشاعر الذى نبغ فنه وبزغ نجمه •

ها هو شوقى يعود من منفاه فيستقبله حافظ ويسكره ويسحره :

ورد الكنانة عبقرى زمـــــانه فتنظرى يا مصر ســـحر بيانه
النيل قد ألقى اليه بســــمعه والمـاء أمسك فيـــه عن جريانه

ويعيد ويزيد ••

فاصدح وغن النيل واهزز عطفه يكفيه ماعنـــــاه من أحــزانه
واذكر لنا الحمراء كيف رأيتهـا والقصر ماذا كان من بنيـــانه
ماذا تحطـــم من ذراه وما الذى أبقت صروف الدهـر من أركانه
واها عليـه وأهــــله وبنـــاته أيام كان النجم من ســـكانه

ويذكر ملك الأندلس بما لا يدع لغيره فيه وصفا :

اذ ملك أندلس عريض جـــاهه وشبابه المبكى فى ريعـــانه

الفتح والعمران آية عهـده وكتائب الأقدار من أعـوانه
لبست به الدنيا لباس حضارة قد كان يخلعه على جـيرانه

ويحلق حافظ وتصفو قريحته ويعتدل مزاجه ويغمر زهوه الابداع فينشد :

هـذا امرؤ قد جاء قبـل أوانه ان لم يكن قد جـاء بعد أوانه
ان قال شـعرا أو تسنم منبرا فتعـوذوا بالله من شـيطانه
تخذ الخيـال له براقـا فاعتلى متن السـها يستن فى طيرانه
ما كـان يأمن عثرة لو لم يكن روح الحقيقة ممسـكا بعنـانه
انا لنلهـو اذ نجـد ، وانـه ليجد اذ يلهـو بنظم جمـانه
أقلامه لو شـاء شك قصـيرها هام الثريا ، والسـها بسنانه

ويبشر وطنه بلقاء العندليب العائد ..

فالحمـد لله الذى قـد رده من بعـد غربته الى أوطانه
فتنظروا آياته وتسـمعوا قـد قام بلبلكم على أغصانه

ويفيض فى الاعتذار مع تقديم آيات الاجلال والاكبار حين تمسك به الظروف الخاصة عن حضور حفلة قران احدى كريمـات شوقى ، ولعله ما تخلف الا لتحرجه منغشيان ذلك العرس الذى تتألق فيه الحللوترف فيه الموشيات وهو ذو القناع الأسود واللباس الأنكد ..

انه يتلمس العله فيجدها فى المرض ولا بأس فى ذلك ولكنه يحرص على الاعتذار :

يا سـيدى وامامى ويا أديب الزمـان
قد عاقنى سـوء حظى عن حفلة المهـرجان
وكنت أول سـاع الى رحاب « ابن هانى »
لـكن مرضت لنحسى فى يـوم ذاك القران
وقـد كفانى عقابا ما كان من حـرمانى
حرمت رؤية شـوقى ولثم تلك البنـان !

وحين يهتف الشاعر ويصرح فى ذلك المهرجان المشهود الذى بـويع فيه شوقى أميرا للشعر نضع أمام القارىء أبياتا من قصيدة تبلـغ المائة بيت أنشدها فى مهرجان تكريم شوقى عام ١٩٢٧ مع رتل من شـعراء الاقطار العربية :

بلابل وادى النيل بالمشرق اسجعى
بشـــعر أمير الدولتين ورجعـــى

أعيدى على الاســـماع ما غردت به
براعة شـــوقى فى ابتداء ومقطـــع

براها له البـــارى فلم ينب سنها
اذا ما نبا العســـال فى كف أروع

وفيها يقول حافظ :

لئن عجبوا أن شاب شوقى ولم يزل
فتى الهوى والقـــلب جم التمتع

لقد شاب من هول القوافى ووقعهـا
واتيـــانه بالمعـــجز المتمنـــع

ويقول له عملت على نيل الخلود ، ولا يقول له سوى هذا الأسلوب:

تملكت من ملك القريض فسـيحه
فلم تبق يا شوقى لنا قيـــد اصبع

فبـــالله دع للناثرين وســـيلة
تفىء عليهم واتـق الله واقنـــع

عملت على نيـــل الخـــلود فنلته
فقـــل فى مقام الشكر يارب أوزع

جـــلا شـــعره للناس مرآة عصره
ومرآة عهد الشعر من عهد تبـــع

أتراه يحترس فى التعبير واختيـار اللفظ ثم يفتن فى الزهو بابراز أوابده :

أجل لقد كان حافظ وهو يكتب يتخير اللفظ الذى يضم المعنى الذى يعنيه ويدرك به مرامه :

نفيت فلم تجـــزع ولم تك ضارعا
ومن ترمه الأيام يجـــزع ويضرع

فى المصراع الثانى من البيت السابق ما يشير الى المعنى الذى قصدنا اليه ، فما كان حافظ ليضرع وينكس رءوس قوافيه لشـــوقى لولا رمية الأيام له ٠

وأخصبت فى المنفى وما كنت مجدبا
وفى النفس خصب العبقرى السميدع

تذكرت عذب النيـــل والنفس صبة
الى نهـــلة من كوب ماء مشعشع
وأرسلت تستـتسقى بنى مصر شربة
فقطعت أحشـــائى وأضرمت أضلعى

وهو يهنىء شـــوقى ويهنىء وطنه ويثبت لله عطفه ولطفه ورحمته لعودته :

أبى الله الا أن يردك ســـالما ومن يرعه يسلم ويغنم ويرجع
وعدت فقرت عين مصر وأصبحت رياض القوافى فى ربيع موشـع
وأدركت ما تبغى وشيدت آية على الشاطىء الغربى فى خير موقع

وما أحسن ما يصف به كرمه ابن هانىء فى خيال خصب لماح :

حمى يتهادى النيل تحت ظلاله تهـــادى خود فى رداء مجزع

ثم يذكره بظمئه لنهلة من ماء النيل ويغريه ليعب منـــه وقد ذلله الله له :

لقـــد كنت ترجو منه بالأمس قطرة
فدونكه فأبرد غليـــلك وانقع

ثم يعلن الآمر الذى اجتمعوا له فى بيته الشهير :

أمير القـــوافى قد أتيت مبايعـــا
وهذى وفود الشرق قـد بايعت معى

وهو يقوى نفسه فى البيت قوة لا ضريب لها فحينما بايع بايعت معه الوفود ، ولم يكن ثم اختلاف ..

والبيت الأخير يكفى وحده لأن يكون قصيدة خالدة !

اخوة الادب . واخوة العرب

ولا يفوتنا ونحن نسجل رأى حافظ ابراهيم فى أمير الشـــعراء أن نثبت دون تزيد أو تعليق ماصادفنا فى البحث مما ندعه لفطنة القارىء .

يذكر الاستاذ الجليل الشيخ عبد القادر المغربى رئيس المجمع العلمى العربى بدمشق فى تقديمه لديوان الشاعر عبد المحسن الكاظمى .

يقول الاستاذ الشيخ المغربى :

كان الامام (يقصد الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رحمة الله عليه) يتعهد الشاعر الكاظمى فى آخر كل شهر بعشرة جنيهات ، يودعها غلافا ثم تسلم اليه فى داره دون أن يشعر بما فى الغلاف أحد ، وبعد وفاة الامام لم يجد مندوحة عن السعى لدى الخديو فى أن يكون له مرتب شهرى من الأوقاف فتوسط فى هذا الامر الشيخ على يوسف صاحب المؤيد ، فكان الشيخ يراجع الخـديو فى تقرير الراتب ، والخـديو يأبى ــ كلما روجع بشأنه ــ الا الرضخ له من مال الاوقاف بنحو خمسين جنيها ، وكنت أذهب مع الشيخ عبد المحسن الى الديوان فيقبضها ، وقد تكررت هذه المعاملة المرة بعد المرة ، والشيخ عبد المحسن فى كل مرة يظهر التأفف من تناوله المعونة على هذه الصورة التى ماكان يراها تتفق مع كرامته ، واباء نفسه . وكان يلح على الشـــيخ على تارة بنفسه وطورا بواسطتى أن يكلم الخديو فى تعيين راتب شهرى مقطوع يريحه من عناء التوسط ومكابدة المعـــاملات الديوانية .

وان انتساب الشيخ الكاظمى الى الامام المفتى ان كان من شأنه أن يحدث فتورا نحوه من نفس الخديوى ، فما كان قط ليحدث مثل هـــذا الفتور فى نفس الشيخ على يوسف ، فكنا ننزه الشيخ عليا عن وصمة الفتور لكننا كنا واقفين وقفة الايجاس من حالة الخديوى عباس .

ثم ضاق الشيخ عبد المحسن بالأمر ذرعا فكلفنى أن آخذ من الشيخ على وعدا بانجاز المسألة مع الخديو : اما سلبا يريح النفس . أو ايجـابا يزيح العلة فتركت الشيخ عبد المحسن فى غرفة التحرير ، ودخلت عـلى الشيخ على ، وبلغته الرسالة وكان يصحح مقالة للطبع ، فترك القلم من يده وتنفس الصعداء ، ثم قال :

ــ ماذا أصنع ياأستاذ ؟ أنهيت القضية أمس مع الخـديو ووعـــد

وعدا أكيدا باصدار أمره بتعيين الراتب ، وقد شكرت له ، وخرجت من عنده ، لكنني لم أكد أبرح الباب حتى دخل عليه بعض النـــــاس (ولم يسمه لى) ٠

فقال للخديو : رأيت فلانا خارجا من عندك ، فماذا يبغى ؟ فقـال : قررنا راتبا للشيخ عبد المحسن الكاظمى ، قال : أنسيت أنه شاعر المفتي (يقصد الشيخ محمد عبده) وقد قال فيه من الشعر كذا وعرض فيك بكذا وكذا ٠٠ ؟

قال الشيخ على يوسف : فما كان من الخديوى الا الشح برفده ٠٠ والنكول عن وعده ، فلما وعيت هذا رجعت الى الشيخ الكاظمي ، فأخبرته الخبر فتأثر جد التأثر وقال : أتعرف من هو بعض الناس ؟ قلت : لا٠ قال: هو احمد شوقى ٠

ويعلق الاستاذ حكمت الجادرجى قنصل المملكة العراقية بالاسكندرية وهو الناشر لديوان الكاظمى على هذه الحادثة بقوله :

جاء فى عدد مجلة الرسالة الصادر فى ١٣ من اكتوبر سنة ١٩٤٧ مايلى بقلم (الجاحظ) فى معرض الـكلام عن رأى حافظ ابراهيم شـاعر النيل فى أحمد شوقى ٠

رأى حـــافظ

« وقص علينا حافظ ابراهيم كيف جاء المرحوم الشيخ عبد المحسن الكاظمى الى مصر غريبا طريدا فحب أن يكون له فى رحاب الخـــــديو متسع ، ولكن شوقى خشى منافسة الشاعر العراقي فسد عليه الباب وقطع عليه كل رجاء ، وكفر فى هذا بأخوة الأدب واخوة العرب وبالواجب نحو رجل شطت به الدار ووجد السيد عبد المحسن فى الاستاذ الامام حمى ، ولكن الحمام لم يمهل الاستاذ الامام ، وهنا تهدج صوت حافظ ، ودمعت عيناه ولم يستطع أن يتم الحديث » ٠

أفق ساعة ..

أفق ساعة ، وانظر الى الخلق نظرة　　تجدهم ـ وان راق الطلاء ـ هم هم
على ظهرها من شر أطماعهـــم دم　　وفوق عبا بالبحر من صنعهم دم
تفانوا على دنيا تغر وباطل . . .　　يزول اذا ما ضجت الأرض منهم
فليتــك تحيــا يا أبا الشعر ساعة　　لتنظر مايصمى ، ويدمى ، ويؤلم
وقائع حرب أجج العـــلم نارها　　فكاد بها عهد الحضارة يختـــم
وتعلم أن الطبع لازال غالبـــا　　ســـواء جهول القـــوم والمتعلم
فما بلغت منـــه الحضارة مأربا　　ولا نال منه العلم ما كان يزعـــم

حاسد وعذول !

ويأخذنى العجب ، وتتملكنى الدهشة من ذلك الذى يسألنى : لم تكتب عن حافظ ؟ وكيف تعده شاعر القومية ؟ وهو الذى كتب ما كتب فى مديح المعتمد البريطانى .. ! الى آخر تلك الحملة المغرضة ضد ذلك الشاعر الوطنى الخالص .

ولو أنى فى حديثى عن حافظ أخلص هذا البحث فى مثل ما يخالج أمثال هؤلاء لهان الأمر فى الحجاج والإقناع . بل اننا اذا ماالتفتنا لمثل هذه القضايا فسوف نحيد عن جوهر بحثنا ، فان هذا الشاعر الذى يرى فيه بعض غلاة الرأى مايرون من ضروب الأقاويل ، وتهاويل الكلام ، قد حكم فيه التاريخ ، وأصدر فيه الأدب ما يسمو به عن تلك النزوات .

فمن نفس على حافظ مكانته واعتبر ذيوع صيته ونباهة شأنه أوفى من شاعريته ومن كبر عليه أن يعقد له تاج الخلود بجانب ضريبة شوقى وخاصة فى ميادينه التى اختص بها ومن اعتل عليه بما قرأ له فى سياسياته من أبيات صانع فيها الانجليز ومن كانوا من أتباع مدرسته ، وأشياع أخرى .

أقول لكل هؤلاء ، وهم يعسرون فى الحساب ، ويتواصون بالكيد له والولوغ فى مكانته وشاعريته .. ان لكل رأيه فيه ، بيد أن هذه الآراء مع اختلافها لا ينبغى أن تأخذ الطريق على الساعى الى الروض يتملى من حسن زهراته ويروى من طيب نفحاته ، وعلة العلل فينا أننا نتعصب ولا نذعن للحجة القارعة .

ولو أن منصفا نظر الى هذا العملاق نظرة متجردة ، فنظر الى شعره بالنسبة الى عصره ، ومجتمعه ، وما كان يخب فيه ويضع فى حياة لم يكن أمثال أى مجترىء من هؤلاء بمستطيع أن يشجع كما تشجع حافظ

هل يضع الناقد فى حسابه ذلك الجو الذى تنفس فيه حافظ وهو يتحدث عن وطنه ويقول :

اذا نطقت فقاع السجن متكأ   وان سكت فان النفس لم تطب

ومن هو حافظ هذا فى اصطراعه مع هؤلاء الغلاة من المستعمرين ، بل عملائهم المصريين ؟ ألم يستشهد من استشهد فى الصراع الذى طال وامتد الى سبعين عاما ؟ ألم يلق العنت كثيرون ؟ ومن ذا الذى كان يستطيع

غير حافظ أن يجهر بالشكوى فى حادث دنشواى ؟ وفى خطاب المعتمد البريطانى بمثل ماجهر به حافظ وبمثل ماأيقظ به أمته •

ألا نعد حافظا أحد هؤلاء الاعلام الذى كانت لهم القيادة والبطولة فى ايقاظ مصر ، ومجاهدة المستعمرين ، والصبر على أذاهم ، فى السودان

ثم يدخل فى الموضوع، موضوع الشعب وحقوقه ، ومظالم الاستعمار وفى مصر •• لقد اصطنع بعض اساليب السياسيين وهو يعيش معهم ، فاذا وجه خطابه الى الانجليز بقوله : وهم القائمون بالامر فينا ، مشيرا الى حادث دنشواى :

أيهـــا القائمون بالامر فينـــا هل نسـيتم ولاءنا والودادا ؟ !
خفضوا جيشـــكم وناموا هنيئا وابتغوا صيدكم وجوبوا البـلادا

مشيرا الى القيد الذى يرسف فيه الشعب :

انمـــا نحن والحمـــام سواء لم تغادر أطواقنـا الأجيـــادا

ويشير الى قتيل الشمس بقوله :

لا تقيـــدوا أمـــة بقتيــــل صادت الشمس نفسه حين صادا

ثم يثور ويفور بقوله بعد فترة الاستهلال :

ليت شعرى أتلك محـــكمة التف تيش عادت أم عهد نيرون عـادا

ويبلغ ذروة البيان فى التهكم والسخرية بهم اذ ينشد :

كيف يحـلو من القوى التشـفى من ضعيف ألقى اليه القيـادا
انها مشـــلة تشف عن الغيظ ولسنا لغيظـــكم أنـــدادا

ان المرمى الذى حدا بالشاعر أن ينشد قصيـدته تلك ، ليس هو المناجاة لتلك الدولة المتعسفة أو التقرب الى مندوبيها بمصر ، أو التماس منفعة لدى حكام مصر من العملاء ، أو عطف قلب المدعى العمومى ابراهيـم الهلباوى الذى يخاطبه حافظ بقوله ينعي عليه موقفه المزرى من بنى وطنه:

أيهـــا المـــدعى العمومى مهلا بعض هـــذا فقد بلغت المرادا
قـد ضمنـــا لك القضـاء بمصر وضمنـــا لنجلك الاســـعادا

ويدمغه بالحجة ويحمله وزر الحدث المشئوم بقوله :

أنت جـــلادنا فلا تنس أنا قد لبسنا على يديك الحـــدادا

وانما حدا بالشاعر أن يسكب دمعة على الحدث الخطير ، دمعة يستثير بها بنى وطنه ويفتح أعينهم على الخطب الذى وقع بين ظهرانيهم ، وينبـه

هذا الشعب الى معرفة أعدائه ـ من المستعمرين ـ الذين لايملك الشعب فى مقارعتهم الا النوم والاستكانة حينذاك :

أمة النيـــل أكبرت أن تعـــادى   من رماها وأشفقت أن تعـــادى
ليس فيهـــــا الا كـــلام والا   حسرة بعــــد حسرة تتهـــادى

وهو فى هذا الجو المكفهر جو السياسة العابس والتسلط من القوى المتربص مسلوب المروءة والضمير ضـد الشعب الضعيف الأعزل ، يهيب ببنى وطنه من عملاء المستعمر فى شخص ذلك المدعى العمومى، بل ويصرخ فيه وفى أمثاله مخاطبا مصر :

لا جرى النيل فى نواحيك يا مصـ   ـــر ولا جادك الحيا حيث جادا
أنت أنبت ذلك النبـــت يا مصر   فأضـــحى عليك شـــوكا قتادا

فاذا تصرمت أشهر ثلاثة والدمع لم يجف على الشهداء والنفوس فى جزعها مانزال هالعة ، واذا ما أوشكت الحادثة أن يخف أثرها أو يشغل الناس شاغل عنها ، يجد الشاعر فى استقبال اللورد كرومر وهو عائد من مصيفة فرصة للمعاتبة والمغاضبة ، العتب على الحدث الذى ما يزال ماثلا فى قلب كل مصرى ، حادث دنشواى ، والمغاضبة لما نقلته أسلاك البرق من ذلك التقرير الظالم الذى رفعه اللورد كرومر الى دولته ، وفيه يطعن على المصريين ويجرحهم وقد نشر هذا بالصحف المصريه •

كتب عميد الانتداب البريطانى الى انجلترا ينـــدد بمسلك الشعب المصرى ويتهمه بأنه لايقابل الجميل بالجميل ، فهو يدعى ان الاصلاحات التى تقدمها الدولة المسعورة كان يجب أن تقابل بالشكر والامتنان وعرفان الجميل ، ولكن شعب مصر فى نظره ذلك الشعب الذى نصبت فيه محاكم التفتيش فى دنشواى ليس أهلا للخير •

كتب هذا «كرومر» الطاغية ، فتصدى له الشاعر يفند حجته ويحاور خديعته وينافحه ويلاحيه ، ثم يأخذ بتلابيبه ، ثم يوقظ شعبه ، ويكشف ألاعيب المستعمر :

استمع اليه يخاطب (قصر الدوباره) وهو يعنى ساكن القصر بما أمده الله من حول وطول وقوة ، وهل لحافظ ابراهيم الشاعر الفقير الضعيف حول وطول وقوة الا هذا البيان الناصع :

أهـــلا بساكنك الكريم ومرحبا ؟   بعـــد التحيـــــة اننى أتعتب

صيغة رسالة بعث بها حافظ فى أبيات من الشعر فحين نشر هذا البيت نقول :

المعتمد البريطانى ـ ساكن القصر المكرم ـ تحية وأهلا بك ومرحبـا

انني أحمل اليك عتاب هذا الشعب فيما ذهبت اليه .

ثم يقول :

نقلت لنا الأسلاك عنك رسالة ... باتت لها أحشاؤنا تتلهب
ماذا أقول وأنت أصدق ناقل ... عنا ، ولكن السياسة تكذب

أفطنت معي أيها القارىء في هذه الابيات ماذا يعنيه الشاعر : ؟

انه يصور حالة مصر من تلهب أحشائها واضطراب جذوة الغضب فيها بعد ماأحيطت بما نقله اللورد كاذبا عليها ، وان كان تقريره أصدق تقرير تستمع اليه دولته ، ثم يجاذبه الحوار ويحيطه علما بأن مصر لاتستجيب لظواهر الاصلاح ، وان ذلك من حقها :

علمتنا معنى الحياة فما لنا ... لانشرئب لها ، ومالك تغضب

ثم يدخل في الموضوع،موضوع الشعب وحقوقه ومظالم الاستعمار .. والحزن المسيطر على النفوس وما اجترحوه من سيئات وفظائع في الحادث المشئوم :

ان ضاق صدر النيل عما هاله ... يوم الحمام فان صدرك أرحب
أو كلما باح الحزين بأنة ... أمست الى معنى التعصب تنسب

ويترفق في عتابه على طريقته اللاذعة وهو يحس بأن شعبه كليل مستضعف :

رفقا عميد الدولتين بأمة ... ضاق الرجاء بها ، وضاق المذهب
ان أرهقوا صيادكم فلعلهم ... للقوت لا للمسلمين تعصبوا
ولربما ضن الفقير بقوته ... وسخا بمهجته على من يغصب

وينتقل الشاعر الى مرحلة أخرى في القصيدة ، هي وصف الفاجعة وترديد أحداث المصاب ، اثارة النفوس، وبعث الضغينة في القلوب وتحريك الشعب :

حسبوا النفوس من الحمام بديلة ... فتسابقوا في صيدهن وصوبوا
خليتهم والقاسطون بمرصد ... وسياطهم وحبالهم تتأهب
جلدوا ولو منيتهم لتعلقوا ... بحبال من شنقوا ولم يتهيبوا
شنقوا ولو منحوا الخيار لأهلوا ... بلظى سياط الجالدين ورحبوا
يتحاسدون على الممات وكأسه ... بين الشفاه وطعمه لا يعذب

ويتصعد الأسى في نفسه وتهيجه الذكريات فيواصل وصف الفاجعة:

موتان : هذا عاجل متنمر ... يرنو ، وهذا آجل يترقب

والمســـتشار مـــكاثر برجـــاله ومعـــاجز ومنـــاجز ومحزب

ويلقى عليه درسا بالغا فى السياسة بقوله :

طاحوا بأربعة فأردوا خامســـا هو خير ما يرجو العميد ويطلب

حب يحـــاول غرســه فى أنفس يجنى بمغرسها الثنـــاء الطيب

أى انهم قتلوا الشهداء الاربعة ثم أرادوا بهذا ما يحاولون غرسه من حب ، أى أن فى هذا الحادث القضاء على ماقد يكون هناك من عـلائق بين المستعمر والشعب • وضياع بكل أساليب السياسة فى عطف القـلوب المخدوعة بتلك السياسة •

ويوجه اليه الخطاب مناصحا فى أسلوب الحكيم يسدى النصح الى الأغرار :

فاجعـــل شعارك رحمة ومـودة ان القـــلوب مع المـودة تكسب

واذا سئلت عن الـكنانة قل لهـم هى أمـــة تلهـو وشـعب يلعب

واستبق غفلتهـــا ونم عنهـــا تنم فالناس امثـــال الحوادث قلب

واذا كان الشاعر لايكاد يستريح ذهنه حتى يلتمس سببا للشكوى من الاحتلال فانه لايفتأ يخاطب ذلك العميد ويحاسبه ويكشف ألاعيبـــه ويرصد حركات سياسته وخداعه :

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذبت حواشيه حتى بات ظلما منظمـــا

ويطلب اليه أن يكف عن المن والأذى ويرفض باسم الشعب مايدعيه من اصلاحات ويطلب اليه أن يعيد عهد اسماعيل فانه خير من المن وان كان عهد اسماعيل أطغى وأظلم فقد كانت تجلد فيه ظهور الناس ويســـخرون تسخير الحيوان :

تمن علينا اليوم أن أخصب الثرى وان أصبح المصرى حرآ منعمـــا

أعد عهد اسماعيل جلدا وســخرة فانى رأيت المن أنـكى وآلمـــا

وفى تعبير الشاعر بقوله : «أخصب الثرى» فيه أحتراس من اسـناد الخير اليهم ، فالخصب والنماء طبيعة أرضنا • ومع هذآ فهم يمنون علينـا بتلك الطبيعة الصادقة •

ويرى الشاعر أن فى خصب الارض وجدب أهلها ما لايستحق المن فالفقر محقق ، وهو بهذا يشير الى أن خصب الارض ليس بعائد على الشعب وانما الشعب فى فقر وجدب بسبب نهب غلاتهم وسلبأموالهم ومحصولاتهم فى قوله :

اذا أخصبت أرضى وأجدب أهلها فلا أطلعت نبتا ولا جادها السما

ولله دره وهو يذكرهم بما أصيبت به البلاد على أيديهم :

نهش الى الدينـــار حتى اذا مشى — به ربه للسوق ألفاه درهمـــــا

وفى مثل المرة السابقة أى بعد شهرين آخرين ، يقف الشاعر وقفة جديدة وكأنما هو محام اختارته مصر للدفاع عنها ، والقضية تؤجل وتنظر على فترة من الزمان مابين خمسين يوما أو سبعين .

فهذا العميد البريطانى يستقيل ويعود ، فمن ذا الذى يحاسبه على سياسته فى تلك المدة ومن ذلك المحامى الذى يقـــوم منذرا تلك الدولة الاستعمارية ويضرب لها الأمثال عن تلك الفترةالطويلة التى لم ينجح فيها.

فى دنشواى . . !

أو كلما باح الحزين بأنه … أمست الى معنى التعصب تنسب
رفقا عميد الدولتين بأمة … ضاق الرجاء بها وضاق المذهب
في (دنشواى) وأنت عنا غائب … لعب القضاء بنا ، وعز المهرب
حسبوا النفوس من الحمام بديلة … فتسابقوا فى صيدهن وصوبوا
نكبوا ، وأقفرت المنازل بعدهم … لو كنت حاضر أمرهم لم ينكبوا
خليتهم والقاسطون بمرصد … وسياطهم وحبالهم تتأهب
جلدوا ولو منيتهم لتعلقوا … بحبال من شنقوا ، ولم يتهيبوا
شنقوا ولو منحوا الخيار لأهلوا … بلظى سياط الجالدين ، ورحبوا
والمستشار مكاثر برجاله … ومعاجز ، ومناجز ومحزب
يختال فى أنحائها متبسما … والدمع حول ركابه يتصبب

حافظ ابراهيم

حديث الناس ..!

وحين يؤرخ للتاريخ فترة تزيد على أربعة وعشرين عاما حكم فيهـا عميد الدولة الانجليزية (اللورد كرومر) مصر يتحدث حافظ بلسـان الشعب حديث الناس فى قصـيدته تلك التى نشرت فى ابريل عام ١٩٠٧ ، وبينا يسخر منه بقوله :

لقد حـــان توديع العميد وانه ... حقيق بتشييع المحبين والعـــدا
فودع لنا الطود الذى كان شامخا ... وشيع لنا البحر الذي كان مزبدا

ويزيد فى تهكمه وسخريته به في قوله :

أمنا، فلم يسلك بنا الخوف مسلكا ... ونمنا، فلم يطرق بنا الذعر مرقدا

ثم يدير عليه وعلى القارىء رأيه فى قوله ويحصى عليه تاريخه :

تشعبت الآراء فيك فقــائل ... أفاد الغنى أهل البلاد ، وأسعدا
وكانت له في المصلحين سـياسة ... ترخص فيهـا تارة وتشـددا

بينما يعلن له ذلك بباغته بالحقائق الدامغة ، وبما جره من افساد وما اقترفته السياسة الانجليزية فى مصر مما أوضحه بأسلوب شـعرى ناصع لايحتاج الى تعليق أو شرح :

قضيت على أم اللغـات ، وانه ... قضاء علينا ، أو سبيل الى الردى
ووافيت والقطران فى ظـل راية ... فما زلت «بالسودان» حتى تمردا
فطاح كمـا طاحت مصوع بعـده ... وضاعت مساعينا بأطماعكم سدى

ويذكره بمطاعنه على المصريين وحجب المؤيد ومنعـه من دخول السودان :

حجبت ضياء الصحف عن ظلماته ... ولم تستقل حتى حجبت المؤيدا
وأودعت تقرير الوداع مغـامرا ... رأينا جفـاء الطبع فيها مجسدا
غمزت بهـا دين النبى واننـا ... لنغضب ان أغضبت فى القبر أحمدا
يناديك أين النابغون بعهـدكم ... وأى بناء شـامخ قد تجـددا
يناديك : وليت الوزارة هيئـة ... من الصم لم تسمع لأصواتنا صدى

ثم يعاوده فى العتب والمحاورة الجريئة التى يأخذ فيهـــا بتلابيبه لمحاسبته الحساب العسير كمواطن حر جرىء :

بربك ماذا صدنا ولوى بنـــا عن القصد ان كان السبيل ممهدا
أشرت برأى فى كتابك لم يكن سديدا ، ولكن كان سهما مسددا
وحاولت اعطاء الغريب مكانة تجر علينا الويل والذل سرمدا
فياويل مصر يوم تشقى بندوة يبيت بها ذاك الغريب مسودا

ثم يعدد له سوءات السياسة الاستعمارية :

ألم يكفنا أنا سلبنا ضياعنا على حين لم نبلغ من الفطنة المدى
وزاحمنا فى العيش كل ممارس خبير ، وكنا جاهلين ورقدا
وما الشركات السود فى كل بلدة سوى شرك يلقى به من تصيدا
فهذا حديث الناس ، والناس ألسن اذا قال هذا صاح ذاك مفندا

الذل شنشنة العبيد ..

عجبت لقومى لايحفظون تاريخهم .. ذاك الذى سطره صاحب اليراعة الساحر «حافظ» وهو يستقبل معتمدا جديدا فى مصر بعثت به اليها الدولة الاستعمارية عام ١٩٠٧ بعد رحيل سلفه اللورد كرومر .

فبينما يشيع حافظ العميد الراحل ويعلق فى رقبته «كشف الحساب» ويدمغه بذلك الاطار الاسود الذى جلل صحيفته زهاء قرن من الزمان يعيث فيه فسادا فى ربوع بلادنا .

تراه يستقبل تبعا آخر من أتباع تلك الدولة الخاسرة هو السير «غورست» .

وفى دراسة قصيدته تلك التى يسجل فيها آراءه ومشاعره وينفض بها همومه وأحزانه وما استوعبته نفسه ، واستودعه سره من بغض شديد لهذه العصابة التى لاتني تسرف فى التنكيل بالشعوب ، تراه يستهلها بما يقوى همته ، ويشد عزيمته وما به يزهى على التاريخ فى مواقفه ، وكأنه بطل فاتح يسجل لنفسه يوما مشهودا :

بنات الشعر ، بالنفحات جودي فهذا يوم شاعرك المجيد

ثم يستعلى بمكانة القصيد الذى يرفعه الى سموات الذرا :

اذا ما جل قدرك عن هبوط مريه الى سمائك بالصعود

ولله دره ، وهو ينزه نفسه فى مقامه هذا مقام الغايات الكبرى حيث يصوغ قريضه ويسوق نشيده دفاعا عن وطنه لاطامعا فى عرض زائل :

فما أنا واقف برسوم دار ... ولا مستنجز خلف الوعود
ولكني وقفت أنوح نوحا ... على قومي ، وأهتف بالنشيد
وأدفع عنهم بشبا يراع ... يصول بكل قافية شرود
بنات الشعر ان هي أسعدتني ... شكوت من العميد الى العميد
ولم أجحد عوارفه ، ولكن ... رأيت المن داعية الجحود

ولعلها شكاة شعب في ثوب ميثاق ودعوى الى عدل واصلاح ، بل لعلها نذير يقدمه للمستعمر الجديد ، فيقص عليه طرفا من سيرة سلفه ، لا بل انه يفصح له بأن الشعب المصرى واع لألاعيب المستعمر ، مستمسك بحقه ، وان المفكرين فى هذا البلد لايمكن أن يعيشوا فى غفلة :

اذا اعلولى الصياح ، فلا تلمنا ... فان الناس فى جهد جهيد !
على قدر الأذى ، والظلم يعلو ... صياح المشفقين من المزيد
جراح فى النفوس نغرن نغرا ... وكن قد اندملن على صديد

ثم يتحدث الشاعر باسم شعبه وكأنه مفوض عنه بالمطالبة جهرا بحقه:

ولكنا نطالبكم بحق ... أضر بأهله نقض العهود
رمانا صاحب التقرير ظلما ... بكفران العواقب والكنود
وأقسم لا يجيب لنا نداء ... ولو جئنا بقرآن مجيد
وبشر أهل مصر باحتلال ... يدوم عليهم أبد الأبيد
وأنبت فى النفوس لهم جفاء ... تعهده بمنهل الصدود

ثم ينتفض الشاعر وكأنماهاجته الذكريات وأشجته الأحداث فيتحدث عن دنشواى بناقوسه ذاك الذى يقرع به الآذان :

قتيل الشمس أورثنا حياة ... وأيقظ هاجع القوم الرقود
فليت كرومرا قد دام فينا ... يطوق بالسلاسل كل جيد
ويتحف مصر آنا بعد آن ... بمجلود ، ومقتول شهيد
لننزع هذه الأكفان عنا ... ونبعث فى العوالم من جديد

ثم يندد بسياسة المستشار « دنلوب » بما هو أهل له :

هبوا « دنلوب » أرحبكم جنانا ... وأقدركم على نزع الحقود
وأعلى من « غلادستون » رأيا ... وأحكم من فلاسفة الهنود

ويعلن رأيه بصدد تصرفاته :

فانا لا نطيـــق له جـــوارا وقد أودى بنـــا أو كاد يودي
مللنا طـــول صحبته وملت ســـوابقنا من المشى الوئيد
خذوه فأمتعوا شـــعبا سوانا بهـــذا الفضل والعـــلم المفيد

ثم يعلن الضيق أشد الضيق بالانجليز وأتباعهم فى مصر :

أرى أحداثكم ملكوا علينـــا (بمصر) موارد العيش الرغيـد
وقد ضقنا بهم ، وأبيك ذرعـــا وضـــاق بحملهم ذرع البريد
فخبرهم وأنت بنـــا خبير بأن الـبذل شنشـــنة العبيد
وأن نفوس هـــذا الخلق تأبى لغير الههـــا ذل الســـجود

أنت جلادنا

أيها المـــدعى العمومى مهــلا بعض هذا ، فقد بلغت المــرادا
قد ضـــمنا لك القضـاء بمصر وضــمنا لنجلك الاســـعادا
فاذا ما جلست للحـــكم فاذكر عهد مصر ، فقد شفيت الفــؤادا
لاجرى النيل فى نواحيك يامصـــر ولا جادك الحيا حيث جــادا
أنت أنبت ذلك النبت يا مصــر فأضحى عليك شوكا قتـادا
أنت أنبت ناعقـا قام بالأمســس فأدمى القلوب ، والاكبـادا
ايه يا مدرة القضـــاء ! ويا من ساد فى غفلة الزمان وشـــادا
أنت جلادنا ، فــلا تنس أنــا قد لبسنا على يديك الحــدادا

حافظ أبراهيم

الشاعر والزعيم

أجل كان حافظ على منابر القاهرة ، وفى حشود الشباب يستنهض الهمم ويستثير الجذوة ويوقد نار الوطنية ويؤجج مشاعل الحرية ، اثر حادث دنشواى وكان الزعيم مصطفى كامل فى أوربا يخطب الجماهير ، ويذيع فى الرأى العام ويجبه السادة الانجليز بما اقترفه عملاؤهم من آثام ضد شعب برىء استمع الى مقاله وحجاجه وهو يعرض تلك القضية على الرأى العام العالمى ، ويعلن بها حربا لا هوادة فيها على الاحتلال وينشر ذلك فى صحافة أوربا بعنوان : الى الأمة الانجليزية ... الى العالم المتمدين .. !

انه يصف تلك الحادثة ويعلق عليها فيقول وليس هناك أبلغ مما كتب :

هذه هى الوقـــائع .. وما علمها أصحاب الأمر من الانجليز حتى فقدوا الرشد وثاروا لقيـــام المصريين بالمدافعة عن أنفسهم وعن أملاكهم وبدلا من أن يقابلوا الحادثة بسكون جاش ككل المشاجرات والمعـارك ، بالغوا فيها وجسموها ، وأعلنت الصحف الموالية للاحتلال قبل المحـاكمة بأن العقوبات والعبرة التى ستضرب للنـاس ستكون هائلة ، فلم يكن العدل هو المنشود فى المسألة بل الانتقام الفظيع .. » « ونشرت نظارة الداخلية بأمر المستر منشل المستشار الانجليزى قبل المحاكمة بأسبوع مذكرة رسمية أثقلت كواهل المتهمين بالتهم .. وقصدت بصراحة التأثير فى المحكمة والرأى العام ، وبلغ احتقار احدى الصحف القائمة فى خدمة الاحتلال للعدل ، أنها نشرت خبر ارسال المشانق الى دنشواى قبـــل المحاكمة .

وقد راع الشعب كل ذلك ، فأخذ يتساءل عن الحكم الذى ينتظـر صدوره بعد مظاهرة كهذه المظاهرة ..

« وقد اجتمعت المحكمة فى يوم ٢٤ يونية وأى محكمة استثنائية لا دستور يقيدها ، ولا قانون يربطها لقضاتها أن يحكموا بكل العقوبات التى تخطر على البال ! محكمة الأغلبية فيها للانجليز ، ولا تستأنف أحكامها ولا تقبل العفو .

ويتحدث الزعيم الوطنى مصطفى كامل :

« قضت هذه المحكمة ثلاثة أيام فى نظر القضية ، وتبين أن الضباط

الانجليز هم الذين أهاجوا الفلاحين بسلبهم في ممتلكاتهم ، وبجرحهم احدى نسائهم ، وأن الفلاحين هجموا على الانجليز بوصفهم صيادين يختلسون الصيد ، لا ضباطا بريطانيين ،

واعترف أمام المحكمة أطباء انجليز بينهم الدكتور نولن الطبيب الشرعي للمحاكم ، بأن الكابتن بول مات بضربة الشمس ، وأن جراحه وحدها لم تكن كافية وحدها لاحداث الموت •

« ولم تترك المحكمة الا ثلاثين دقيقة لأكثر من خمسين متهما ليقولوا ماعندهم ، وأبت سماع أقوال أحد رجال البوليس حيث أكد أن الضباط الانجليز أطلقوا العيارات النارية على الأهالى وبنت حكمها على تأكيدات الضباط الذين كانوا السبب فى المعركة والذين يعتبرهم العدل فى كل بلد خصما للمتهمين •

« وفى يوم ٢٧ يونيه صدر الحكم بشنق أربعة من المصريين وبالأشغال الشاقة المؤبدة على اثنين وبالأشغال الشاقة لمدة ١٥ عاما على واحد ، وبها لمدة ٧ سنوات على ستة ، وبالحبس لمدة عام مع الجلد على ثلاثة ، وبالجلد على خمسة ، وجلد كل واحد من هؤلاء خمسين جلده بكرباج له خمسة ذيول •

« قررت المحكمة فى حكمها تنفيذ الحكم فى اليوم التالى بحيث لم يمض الا خمسة عشر يوما بين الواقعة وتنفيذ الحكم ••

«وفى الساعة الرابعة بعد منتصف الليل من يوم الاربعاء ٢٧ من يونيو جيء بالأربعة المحكوم عليهم بالشنق والثمانية المحكوم عليهم بالجلد أعفت المحكمة واحدا منهم لأن الطبيب قرر ضعف بنيته وعدم استطاعته تحمل الجلد » جيء بهم من شبين مقر مديرية المنوفية الى قرية الشهداء التى تبعد بأربعه كيلو متر عن قرية دنشواى ، ولبثوا هناك تسع ساعات ينتظرون الانتقام المروع وفى الساعة الأولى بعد ظهر يوم الخميس ٢٨ من يونيه جيء بهم الى دنشواى ، وكل أصحاب الأمر من الانجليز قد صمموا على تنفيذ الحكم فى محل الواقعة • وفى الساعة التى وقعت ، ويقول محامى مصر وزعيمها الشباب مصطفى كامل :

« نصبت المشانق ووضعت آلات الجلد والتعذيب فى وسط دائرة مساحتها ٢١٠٠ متر مربع ، وأحاطت عساكر الانجليز بالمحكوم عليهم ، والتفت الخيالة المصرية حول الانجليز وتولى المستر متشل مستشار الداخلية ومعه مدير المنوفية أمر التنفيذ ! »

«وقد تقدم اليهما ابن أول المحكوم عليهم بالشنق سائلا مقابلة والده لأخذ وصاياه الأخيرة فرفضا قبول الرجاء الذى هو أعز مايرجوه الانسان ويحتمه الشرع والعدل » !

وفى منتصف الساعة الثانية امتطت الجنود الانجليزية خيولهـــا وشهرت سيوفها ، وبدىء بعد ذلك بدقيقة في الشنق ! •

« فشنق رجل ولبث أعضاء عائلته وأقاربه وهم على بعـــد يملأون الفضاء بصراخهم الممزق للقلوب ، وجلد اثنان أمام الجثة ••

« وتكرر هذا المنظر ثلاث مرات واستمر ســـاعة من الزمن منظر وحشى مهيـــج للعواطف بكى منه بعض الحاضرين الأوربيين وأذرفوا دموع الحنان ، وأبدوا النفور الشديد مما رأوه وذهب كل واحد يكرر كلمة أحد المشنوقين « لعنه الله على الظالمين »!

ان هذا الذى راح يفضح به محامى مصر سياسة الاستعمار الجشعة المفضوحة كان يردده فى محافل القاهرة وفى نفس الوقت صيداح الوطنية وشاعر النيل حافظ ابراهيم ،

وكانت المعانى التى تفيض عن بيانات محامى مصر الشاب وزعيمها البطل فى أوروبا تتردد بأقوى ماتكون القوة عنفا وصخبا فى مقاطع أبياته التى لاتزال تتردد على الاسماع - كانت الطريقة واحدة وكان الدفاع واحدا ، وكان العنف هو العنف وكان ذلك كله لأن القضية كانت واحدة كانت قضية الحرية ، كانت قضية مصر ، وأما ذلك الحادث فلقد كان فألا حسنا لمصر وللمصريين كما كان شؤما على الظالمين •

ونعود فنكرر ما أثبتناه آنفا وهو أن مصر على عهـد حافظ لم تكن مصرنا الحـــاضرة ، ولم يكن حافظ يكتب ما كتب ، وينشد ما أنشد فى المحافل والمهرجانات سرا وانمـــا كانت صيحات تدوى من فوق المنـــابر يتحدث بها عن آلام مصر وآمالها ، عن مصاير الأمة العربية وما يعتورها من أحداث •

قتيل الشمس

قتيل الشمس أورثنــــا حيــاة　　وأيقظ هـــاجع القــوم الرقود
فليت كرومرا قد دام فينــــــا　　يطوق بالســـلاسل كلَّ جيــد
ويتحف مصر آنا بعــــــد آن　　بمجـلود ، ومقتول شــــهيد
لتنزع هــذه الأكفان عنــــا　　ونبعث فى العــوالم من جــديد

حافظ ابراهيم

جئت أسأل .

وحين يقف مصطفى كامل يتحدث عن حادثة دنشواي وهو يخاطب الانجليز بجلجلته محتجا عليهم فى قوله :

« وان يوم ٢٨ من يونيه من عام ١٩٠٦ سيبقى ذكره فى التاريخ شؤما ونحسا فهو خليق بأن يذكر فى عدد أيام التناهى فى الهمجية والوحشية ٠٠ وانى جئت أسأل اليوم ، أسأل الامة الانجليزية نفسها والعالم المتمدين اذا كان يصح التسامح فى اغفال مبادىء العدل وشرائع الانسانية الى هذا الحد ! »

جئت أسأل الانجليز الغيورين على سمعة بلادهم وكرامتها أن يقولوا لنا اذا كانوا يرون بسط النفوذ الأدبى والمادى لانجلترا على مصر بالظلم والعسف وصنوف الهمجية ٠

« جئت أسأل الذين يجاهرون فى كل آن ذاكرين الانسانية مالئين الدنيا بعبارات الانفعال والسخط ٠٠ »

جئت أسأل الأمة الانجليزية اذا كان يليق أن تترك الممثلين لها فى مصر يلجأون بعد احتلال دام أربعة وعشرين عاما الى قوانين استثنائية ووسائل همجية بل وأكثر من همجية ليحكموا مصر ويعلموا المصريين ماهى كرامة الانسان !

حين يذكر الزعيم الوطنى مصطفى كامل ذلك يؤيد برهانه ويقوى حجته ويفزع خصمه المكابر بقوله :

« وقد أنشأ الشعراء المصريون عن حكم دنشواى أشعارا تخلد ذكرى المناظر الوحشية التى أهينت فيها المدنية الانسانية والعدل بأقصى الصور المهيجة للوجدانات والنفوس ٠ »

فهل كان لمصطفى كامل وأحزابه سواعد تشد من عزيمته فى جهاده ونضاله من قوة فى تلك المعارك سوى هذا الذى كان يثور به ويفور ويزلزل كيان الانجليز وهو يسدد الضربات اليهم فى ايقاظ الشعب وحث الشباب على الجهاد بشعره المنبثق عن أعصاب ثائرة وروح مغامرة ٠

كان مصطفى كامل فى انجلترا يحاج الانجليز ، وكان حافظ على منابر القاهرة يفضح أساليب الاستعمار ويندد بفعلتهم الشنيعة ٠

وبينا حافظ ينتقد بسياسة «المستشار» ، تشهد له المحافل مواقفه المشهورة التي ينشد فيها شعره ليوقظ بني وطنه ، وما يزال في نفسه مافيها من قالة المعتمد البريطاني واتهامه مصر والمصريين لدى بريطانيا بأننا شعب غير أهل للنهوض وانه كافر بأنعمهم لعنة الله عليهم ، فمـا يستحق أن يمكن له في التوسع في التعليم .

أقول ان شاعرنا لاينسى له ذلك وان كان قد فند تلك المقالة في قصيدته التي أشرنا اليها فانه ينتهز فرصة مشروع انشاء الجامعة وينشد في الجمع الحاشد وهو يجلجل بصوته وحجته ويوقظ النيام من قومه :

لاتقنطوا ان قرأتم ما يزوقـه ... ذاك العميد ويرميكم به غضبا

بني على الافك أبراجـا مشيدة ... فابنوا على الحق برجا ينطح الشهبا

وجاوبوه بفعـل لايقوضه ... قول المفند أنى قال أو خطبا

ثم يصرخ فيهم ويطالبهم بألا يركنوا الى الراحة أو النوم ، فعدوهم لايهجع ولا ينام :

لا تهجعوا انهـم لن يهجعوا أبدا ... وطالبوهم ، ولكن أجملوا الطلبا

وعدم الهجوع هو الثورة والدأب في المطالبة بالحقوق وهو يتحلل من تلك الدعوة بطالب الترفق

وحين يصول ويجول بهذا الخطاب يضع نصب أعينهم الغرض الاكبر من انشاء الجامعة ، الغرض الوطني وهو بعث الحياة في أعصاب الشعب الذي استذله العدو .

ولا حياة لكم الا بجامعـة ... تكون أما لطلاب العلا وأبا

تبني الرجال وتبني كل شاهقة ... من المعالي وتبني العز والغلبا

وهو لايساهم في مشروع اجتماعي وانما يدعو الى بناء وطني وارساء دعائم القوة وخلق الرجال ، واذن فلا يكون ذلك بالقاء الكلمات ثم جمع الدنانير والدراهم لا ، ولكنه يريد أن تتكتل القلوب وتقام أسوار الجامعة من تلك الاكباد وينصح بني قومه ألا يدعو للعدو طريقا الى تخذيلهم بقالة كاذبة مما يتخرص بها فيقول لهم وهو يصرح عن طبيعته ، تلك الطبيعة التي تحتقر المادة وتهتم بالمعنويات السامية :

ضعوا القلوب أساسا لا أقول لكم ... ضعوا النضار، فاني أصغر الذهبا

وابنوا بأكبادكم سورا لها ودعوا ... قيل العدو فاني أعرف السببا

ثم يردد الابيات التي سقناها :

لاتقنطوا ان قرأتم ما يزوقـه ... ذاك العميد ويرميكم به غضبا

ولله دره ينشد مصر وشعبها محرضا لها على التشبث بانشاء الجامعة وهو يرى ان حياتها فى اقامتها وبنائها واتاحة الفرصة لخلق الشباب وبناء الرجال ولكنه يلجأ فى هذه المرة الى اثارتهم :

يامصر، هل بعدهذا اليأس متسع — يجرى الرجاء به فى كل مضطرب؟
لا نحن موتى ولا الأحياء تشبهنا — كأننا فيك لم نشهد ولم نغب
نبكي على بلد سال النضار به — للوافدين وأهلوه على سغب

وما أشد براعته وهو يقدم الرجال فى الاكتتاب للمشروع :

هذا هو العمل المبرور فاكتتبوا — بالمال انا اكتتبنا فيه بالأدب

واذا كتب حافظ يعرض بسياسة المستشار دانلوب وهو يعوق تقدم التعليم ونشره بمصر ، يذع القادة من بنى وطنه ويحرضهم على الأخذ بأسباب العزة ويحملهم هم دون المستشار اللوم والتبعة :

ياسعد أنت (مسيحها) — فاجعل لهذا الموت حدا
انا لا ألوم المستشار — اذا تعلل أو تصدى
فسبيله أن يستبد — وشأننا أن نستعدا
هى سنة المحتل فى — كل العصور وما تعدى

وهل هناك مصلح أو زعيم وطنى استطاع أن يواصل قرع الأذان بمثل أذان حافظ وهو يرغبهم تارة فى المجد ، ويوقظهم تارة أخرى .. وينعى على الخاملين منهم طورا ثالثا لايترك مناسبة أو حادثا أو علة يعتل بها الا ، وترى بيانا متدفقا يقرع الأسماع :

كاشف الكهرباء ليتك تعنى — باختراع يروض منا الطباعا
آلة تسحق التواكل فى الشرق — وتلقى عن الرياء القناعا
ان فينا لولا التخاذل أبطالا — اذا ماهم استقلوا اليراعا
وعقولا لولا الخمول تولاها — لفاضت غرابة وابتداعا
ودعاة للخير لو أنصفوهم — ملأوا الشرق عزة وامتناعا

وما هى تلك الامنية التى كانت تصطرع بخيال الشاعر ولا أقول تداعبه :

ليت شعرى متى تنازع مصر — غيرها المجد فى الحياة نزاعا
ونراها تفاخر الناس بالأحياء — فخرا فى الخافقين مذاعا ؟

هذه هى روح حافظ ظلت تهفو كالملاك وتخفق فى الآفاق تسيطر على القلوب وتعمل عملها فى النفوس ، فاذا رفعنا منزلته وقدرنا مكانته فاننا لم نعد منحه بعض حق الوفاء علينا له ..

... لم يستيطر على لبه الا ذلك الحب الطاغى والتعشق لوطنه فهو معه فى أفراحه ؛ وهو معه فى شدائده .. استمع اليه ما يفتأ يردد مقالته فى تفنيد تخرصات الانجليز ودعاواهم الكاذبة مقويا عزيمة الشعب رابطا على قلبه :

فديناك يا شرق لا تجزعن ... اذا اليوم ولى فراقب غدا
فكم محنة أعقبت محنة ... وولت سراعا كرجع الصدى
فلا يوئسنك قبيل العداوة ... وان كان قيلا كحز المدى

أراك مقر الطامعين

فياشرق ! ان الغرب ان لان أو قسا ففيه من الصهباء طبع مـذوب

فخف بأسها في الرأي، والرأي يصطلي وخف ضعفها في الكأس والكأس تطرب

وياغرب أن الدهر يطفو بأهله ويطويه تيار القضاء فيرسب

أراك مقر الطامعين كأنما على كل عرش من عروشك أشعب

حافظ ابراهيم

مواكب .. :

ونصاحب التاريخ فنعود لنقف مع الشاعر وقفات طوالا بين يـدى نماذج من قصائده نسرح الخاطر فيها ونصاحب القارىء فى جلاء صـور شائقة منها ٠

فلم يكن حافظ وهو يغشى الأندية والمجتمعات العامة ثم يقف فى صدر الاحتفالات والمهرجانات لينشد عاشقى أدبه ومتذوقى فنه الا بطلا من أبطال المواكب الشهيرة ٠

فكان يقف بصوته الجهير فى الموقف الخطير ليلقى خطابا سياسيا ، أو مقالا اجتماعيا ، أو نصحا يسديه ولكن ليس فى تلك القوالب المعروفة فى فنون النثر وانما فى ترانيم وألحان ٠

وإن لنا لوقفة طويلة معه أمام قصيدته تلك التى أشرنا اليهافي صدر هذا الكتاب .. والتى كانت هتاف الجماهير ابان العدوان الثلاثي الغاشم عام ١٩٥٦

وهى قصيدته التى أنشدها فى تكريم (عدلى يكن) بعد عودته من الخارج وقطع المفاوضات مع الانجليز ، وقد جاءت على لسانه «مصر تتحدث عن نفسها» وذلك عام ١٩٢١ ، ولعلها كانت من بواكير الثورة المصرية الأولى ٠

وقف الخلق ينظرون جميعـــا   كيف أبنى قواعد المجد وحدى

ويكفى أن يكون مطلع القصيدة هذا البيت ، فلعل من يرجع بذاكرته قليلا الى الوراء الى عهد تاميم القناة ، يذكر ذلك المعنى جملة وتفصيلا ، فقد كان العالم يتجه الينا لينظر ماذا نحن صانعون بعد التأميم ٠٠ وهل نستطيع أن نقوم برفع قواعد هذه الدعامة العامة من دعامات التحرير الكبرى ٠

ولكنه يستدرك ويعقب بأن ذلك ليس أمرا عسيرا علينا بشواهد التاريخ التى تسجل لنا تلك القدرة القادرة ٠

وبناة الأهرام فى سالف الدهـ   ـر كفونى الكلام عند التحدى

وقد كانت نظرة الشاعر صائبة فى وضع مصر فى مكانها من الشرق وزعامتها وقيادتها لنهضاته :

أنا تاج العـلاء فى مفرق الشر   ق ، ودراته فرائد عقدى

أى شىء فى الغرب قد بهر النـا   س جمالا ولم يكن منه عندى ؟

وهو يزهى بالمقومات الطبيعية التى تفضل الخالق سبحانه فنفح بها هذا الوطن الكريم :

فترابى تبر ونهرى فرات ... وسمائى مصقولة كالفرند
أينما سرت جدول عند كرم ... عند زهر مدنر عند رند
ورجالى لو أنصفوهم لسادوا ... من كهول ملء العيون ومرد
لو أصابوا لهم مجالا لأبدوا ... معجزات الذكاء فى كل قصد
انهم كالظبا ألح عليها ... صدأ الدهر من ثواء وغمد
فاذا صيقل القضاء جلاها ... كن كالموت ماله من مرد

ثم يشير الى انهذا الوطن «مصر» لا قيامةللشرق بدونه فاذا ما نزلت به كارثة وطوحت به الاقدار أحاطت بالشرق الدوائر ولا قيامة له بعده :

أنا ان قدر الاله مماتى ... لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدى
مارمانى رام وراح سليما ... من قديم عناية الله جندى

وأى بيان أبلغ من هذا البيان فى تعبيره عما أحاط الله به هذا الوطن من منعة وعزة دون كل معتد غاشم :

ما رمانى رام وراح سليما ... من قديم ، عناية الله جندى
كم بغت دولة على وجارت ... ثم زالت وتلك عقبى التعدى
اننى حرة كسرت قيودى ... رغم قيد العدا وقطعت قدى
ان مجدى فى الأوليات عريق ... من له مثل أولياتى ومجدى ؟

ويقرر السبق لنا فى النهضة الفكرية فى قوله :

أنا أم التشريع قد أخذ الرو ... مان عنى الاصول فى كل حد
ورصدت النجوم منذ أضاءت ... فى سماء الدجى ، فأحكمت رصدى
وقديما بني الأساطيل قومى ... ففرقن البحار يحملن بندى

وليته عاش معنا اليوم وشهد تلك الاحلام التى كان يتحدث عنها فى الماضى ويترنم بها :

فسلوا البحر عن بلاء سفينى ... وسلوا البر عن مواقع جردى
أترانى وقد طويت حياتى ... فى مراس لم أبلغ اليوم رشدى ؟
أى شعب أحق منى بعيش ... وارف الظل أخضر اللون رغد

وينعى على المستعمرين :

أمن العدل أنهم يردون المـ ... ـاء صفوا وأن يكدر وردى

أمن الحق أنهـــم يطلقون الأســـ ـــد منهم وأن تقيـــد أســـدى

وهو يؤرخ للتاريخ ماعاناه وطنه من جهاد الغاصب :

نصف قرن الا قليـــلا أعـــانى ما يعـــانى هوانه كل عبـــد
نظر الله لى فأرشــــــد أبنـــا ئى فشدوا الى العلا أى شـــد

ويزلزل ببيانه وقوته وحجته الدامغة أركان الباطل فيدوى نشيده :

انما الحق قوة من قـــوى الديـــ ـــان أمضى من كل أبيض هندى

وحافظ كما سبق وأشرت يعيش معنا بأبياته هذه :

قد وعدت العـــــــلا بكل أبى من رجالى فأنجزوا اليوم وعـــدى
وارفعوا دولتى على العـــلم والأخلا ق فالعلم وحده ليس يجـــدى

ويصف الغرب ونوازعه :

ان فى الغرب أعينـــــا راصدات كحلتها الاطماع فيكم بسهد
فوقها مجهر يريهـــــا خفـــــايا كم ، ويطوى شعاعه كل بعـــــد

ويسطر دستور السياسة المصرية لبنيها المساميح فى هتافه :

واصفحوا عن هنـــات من كان منكم رب هاف هفـــا على غـــير عمـــد

ويشير الى الأحداث تتوالى :

نحن نجتاز موقفـــــــا تعثر الآ راء فيـــــه وعثرة الرأى تردى
ونعير الأهواء حـــــربا عوانا من خلاف والخلف كالسل يعدى
فقفوا فيه وقفـــة الحزم وارمـــوا جانبيه بعزمـــة المســـــتعد

آه لقومى لو يعون ماتركه هذا الشاعر وهو يصيح فيهم بفنون القول فى سياق شعره وهو يقف بهم عند مطلع فجر الحرية فى قوله :

اننا عنـــد فجر ليـــل طويـــل قد قطعناه بين سهد ووجـــــد
غمرتنا سود الأهـــــاويل فيه والأمـــــانى بين جزر ومـــــد
وتجـــلى ضيـــاؤه بعـــد لأى وهو رمز لعهـــــدى المسترد
فاستبينوا قصد السبيل وجـــدوا فالمعـــالى مخطوبة للمجـــــــد

اذا الملك الجبار صعر خده ..

ونقف معه وقفة أخرى نطالع تلك القصيدة التى اختار رويها ووزنها على نهج قصيدة بشار بن برد التى يقول فيها فى سياق مديحه لعمر بن هبيرة :

(أذا ألملك ألجبـــار صعر خده   مشينا اليه بالسيوف نعاتبه)

أجل نقف معه وهو يصـــور الخليفة المخلوع والملك الدابر المقطوع وهو « عبد الحميد » سلطان الترك بعـــد أن أدبر عنه الزمان ، وزال سلطانه ، ويستهل قصيدته بقوله يهنىء دولة الترك بعيد دستورهم الذى أعيد اليهم بعد الانقلاب العثمانى وخلع السلطان عبد الحميد :

أجـــل ، هـــذه أعلامه ومواكبه
هنيئا لهم ، فليسحب الذيل ساحبه

هنيئا لهم ، فالكون فى يوم عيدهم
مشارقه وضـــاءة ومغـــاربه

رعى الله شعبا جمـــع العدل شمله
وتمت على عهـــد الرشـــاد رغائبه

ويناصح الشعب التركى :

خذوا بيد الاصلاح والأمر مقبل   فانى أرى الاصلاح قد طر شاربه
وردوا على الملك الشباب الذى ذوى   فانى رأيت الملك شابت ذوائبه

ويشير فى بيان رائع الى أبطال الانقـــلاب الذين قاموا يحاســـبون السلطان المخلوع :

ثلاثة آســـــاد يجانبها الردى   وان هى لاقاها الردى لا تجانبه
يصارعها حـــرف المنون فتلتقى   مخالبهـــا فيه وتنبـــو مخالبـــه
روت قول بشار فثارت وأقسمت   وقامت الى عبد الحميد تحاسبه

وقول بشار الذى يعنيه الشاعر :

اذا الملك الجبـــار صعر خـــده   مشينا اليه بالسيوف نعاتبـــه
رجال من الايمان ملأى نفوســـهم   وجيش من (الأتراك) ظمأى قواضبه
صوارمه ســـــمر القنا وكراته   رءوس الأعادى والحصون ملاعبه

ويتحدث عن السلطان عبد الحميد فى محنته بعد خلعه :

ولم يحمـــه حصن ولم ترم دونه   دنانـــيره والأمر بالأمر حـــازبه
ولم يخفه عن أعين الحق مخـــدع   ولا نفق فى الارض جم مسـاربه
أقام عليـــه مهلـــكا عنـــد مهلك   يمر به روح الصبا فيواثبـــــه
تحاماه حتى الوهم خاف اغتياله   فلو مسه طيف لدارت لوالبـــه
وأسرف فى حب الحياة فحاطهـــا   بسور من الاهوال لم ينج راكبه

ففى كل قفل للمنيـــــة مكمن — وفى كل مفتاح قضاء يراقبــه
وفى كل ركن صـورة لو تكلمت — لما شك فى عبد الحميد مخاطبــه
تماثيل ايهام أنيمت وأقعــدت — تراءى بهـــا أعطافه ومنـــاكبه
تمثله فى نومه وجلوسـ ـــه — وتخدع فيه الموت حين يقـاربه
أقام عليـــه ألف موت محجب — ليغلب موتا واحدا عز غالبـــه

وفى أسلوب تهكمى ساخر يقول :

سلوه أأغنت عنه فى يوم خلعـه — عجائبه أو أحرزته غرائبـــــه
وقد نزل المقدار بالأمر صـــادعا — فضاقت على شيخ الملوك مذاهبه
وأخرجه من « يلدز » رب «يلدز» — وجرده من سيف «عثمان» واهبه
وأصبح فى منفاه والجيش دونه — يغالب ذكرى ملكه ، وتغـــالبه
يناديه صوت الحق ذق ما أذقتهم — فكل امرىء رهن بما هو كاسبه
هم منحوك اليوم ما أنت مشتتــه — فرد لهم بالامس ما أنت سالبه
لك الله يا (تموز) انك باســـم — لجرحى الأسى والدهر تعنو نوائبه
فكم رعت جبارا وأرهقت ظالمـــا — وأنصفت مظلوما توالت مصائبه
مضى عهدالاستبداد واندك صرحه — وولت أفاعيــه ، وماتت عقاربه

وهو بهذه القصيدة لايعدو أن يصور لنا باعجازه ذلك العرش الذى هوى لسليل تلك الاسرة فى مصر وهو الملك المخلوع فاروق فما أشـــبه الليلة بالبارحة .

عاصف يرتمى ..

واذا جاز لنا أن نختار من نماذج الادب اللباب صورا لما اعتملت به حياة الشاعر فان فى عرض هذه اللوحة المثيرة التى رقمها ببراعة ذلك المصور الشاعر وهو فى رحلة الى ايطاليا يصف ماعاناه فيها ويسـطر ماانعكس فى خياله لخير مايجد فيه القارىء متعة :

استمع اليه ينشد وهو نفس هائجـــة ثائرة مغضبة آيسة آنا ، ومطمئنة الى رحمة الله آونة أخرى فى ديباجة مشرفة وبيان أخاذ :

عاصف يرتمى وبحر يغـــير — أنا بالله منهمـــا مستـــجير
وكأن الأمـــــواج ــ وهى توالى — محنقـــات ــ أشجان نفس تثور
أزبدت ثم جــــرجرت ثم ثارت — ثم فارت كمــــا تفور القـــدور

ثم أوفت مثل الجبال على الفلك ... وللفلك عزمة لا تخور
أزعج البحر جانبيها من الشد ... فجنب يعلو ، وجنب يفور
وهى تزور كالجواد اذا ما ... ساقه الطمان ندب جسور

ثم يصف حاله وشدة فزعه :

وعليها نفوسنا خائرات ... جازعات كادت شعاعا تطير
فى ثنايا الامواج والزبد المندو ... ف لاحت أكفاننا والقبور

واذ يضيق به الامر ويصل هياج البحر الى ذروته وتتعرض الباخرة للخطر الداهم يشير بقوله :

مر يوم وبعض يوم علينا ... والمنايا الى النفوس تشير
ثم طافت عناية الله بالفلـ ... ـك فزالت عمن تقل الشرور
ملكت دفة النجاة يد اللـ ... ـه فسبحان من اليه المصير
أمر البحر فاستكان وأمسى ... منه ذاك العباب وهو حصير

ثم يناجى البحر بعد أن سكن بقدرة الله تعالى وأمره في فلسفة مؤمنة :

أيها البحر لايغرنك حول ... واتساع وأنت خلق كبير
انما أنت ذرة قد حوتها ... ذرة فى فضاء ربى تدور
انما أنت قطرة فى اناء ... ليس يدرى مداه الا القدير

ويحلق فى تصويره وابداعه ويرى أن عليه حقا لتلك التى أقلته وتثبت أمام الأعاصير وهى الباخرة (اسبيريا) فينشدها :

ايه « اسبيريا » فدتك الجوارى ... منشآت كأنهن القصور
يا عروس البحار انك أهل ... أن تحليك بالجمان البحور
فالبسى اليوم من ثنائى عقدا ... تشتهيه من الحسان النحور

وحين يتلفت الى الارض التى يفد عليها يجيبها بقوله :

ايه ايطاليا عدتك العوادى ... وتنحى عن ساكنيك الثبور
فيك يا مهبط الجمال فنون ... ليس فيها عن الكمال قصور
ودمى جمع المحاسن فيها ... صنع الكف عبقرى شهير

ويصف تلك الدمى والاحجار التى بعث الفن فيها الحياة فيقول :

قد أقيمت من الجماد ولكن ... من معانى الحياة فيها سطور
فهى تبدو من الملائك يكسو ... ها جمال على حفافيه نور

ولقد تجد عجبا فى ريشة الشاعر وهو يتنقل بها فى تسـطيره لمشاهداته فى ايطاليا ، وما يعيه عنها من حياة نابضة تحتها نذير الموت المتربص :

أرضهـم جنة وحـور وولدا ن كمـا تشتهى ، وملك كبير
تحتها ـ والعيـاذ بالله ـ نار وعـذاب ومنـكر ونكير

وهى قدرة فى التعبير للنقيضين لا يبدع فيها أو يحس غير شاعرنا حافظ فى مثل هذا الاسلوب الساخر المعبر، وهو يصف بركان (فيزوف):

ذاك فيزوف قائمـا يتلظى قد تعـالى شـهيقه والزفير
ينذر القوم بالرحيـل ولـكن ليس يغنى مع القضاء النـذير

ولله دره وهو يسجل خواطره عن حب الوطن وتقديسه فى معرض وصفه :

وكذاك الأوطـان مهما تجنت ليس للحر عن حماها مسـير

واذ تطول بنا القصيدة لا يمكننـا أن نميل دون أن نعرض صورا فريدة مما أثبته فيها حيث انطلق خيـاله يذيع مكنون سره ومحتويات صدره وخزائن تفكيره انه بعد أن يذكر تقديس الأوطان يلوى بخياله إلى وطنه فيتحدث على طريقته :

شمسهم غـادة عليها حجـاب **فهى شرقيـة** حوتها الخـدور

فانظر الى تشبيه شمس ايطاليا المستترة بالغمام بأنها « شرقيـة حوتها الخدور» ثم انظر الى شمسنا نحن فى شعره :

شمسنا غـادة أبت أن توارى فهى غربية جلاها السـفور

ولعله يقارن بين غادتين : غادة مصرية ، وأخرى ايطالية فى بيتيـه هذين ، ثم ينتقل الى وصف جو ايطاليا وأبنائها الى جانب وصفه جو مصر وأبناء مصر :

جـوهم فى تقلب واختـلاف غير أن الثبـات فيهم وفـير
جـونا أثبت الجواء ولـكن ليس فينا على الثبـات صبور

وهو فى هذين الوصفين يعانى من نفسه ألما ممضا ، اذ هو يسجل على بنى وطنه ماهم فيه من نعم ، وما هم عليه من قصور ..

ولديهم من الفنـون لبـاب ولدينا من الفنون قشـور

ويصيح صيحة المصلح الذى لايملك الا ارسال الكلام تنديدا بمـا احتواه نظام الوقف من عرقلة الاصلاح وتعويق الحياة :

أنكر الوقف شرعهم فلهذا كل ربع بأرضهم معمور

ليس فيها مستنقع أو جدار قلما تداعى أو مسكن مهجور

كل شبر فيها عليه بناء مشمخر أو روضة أو غدير

فهل كان حافظ مهندسا قبل أن يكون شاعرا ، هل كان مصلحا قبل أن يكون ناظما ؟

لقد خرج حافظ من وطنه فى رحلة الى ايطاليا فلم ينس أنه قد بعد عنها للعودة اليها وفى جعبته مشروعات ، وهاهو يذيع نظراته فى التخطيط لهذه المشروعات الاصلاحية ، وهذه سمة الشعراء ورجال الأدب حينما يزاولون أمور الحياة لا يغمضون عيونهم وهم دائما ناصحون باذلون .

وحين يدرس مجتمع ايطاليا فى رحلة يتحدث عن شئون حياتهم :

قسموا الوقت بين لهو وجد فى مدى اليوم قسمة لا تجور

كلهم كادح بكور الى الرز ق ولاه اذا دعاه السرور

لاترى فى الصباح لاعب نرد حوله للرهان جم غفير

لا ولا باهلا سليم النواحى للقهاوى رواحه والبكور

لم يحل بينهم وبين الملاهى أو شئون الحياة جو مطير

لا يبالون بالطبيعة حنت أم تجنت أم احتواها النعور

قد أعدوا لحادثات الليالى عدة لا يحوزها التقدير

وبهذا الاسلوب الذى يشير فيه الى طبيعتنا نحن بجانب نهضات الشعوب يتحدث الشاعر :

نضروا الصخر فى رءوس الرواسى ولدينا فى مواطن الخصيب بور

قد وقفنا عند القديم وساروا حيث تسرى الى الكمال البدور

ويلفت نظره ويأخذ بلبه تلك النظافة التى تطالعه أينما سار :

ولع القوم بالنظافة حتى جن فيها غنيهم والفقير

فاذا سرت فى الطريق نهارا خلت أنى على المرايا أسير

أفرط القوم فى النظام وعندى أن فرط النظام أسر ونير

وما أعجب مايتراءى للناظر وهو يقرأ قوله فى ختام قصيدته :

ولذيذ الحياة ما كان فوضى ليس فيها مسيطر أو أمير

وكم غــريق راح فى لجـــــة يهوى بهــا الطـــود فلا يظهر
وكم أســـــــير بات فى أسره ونفســـــــه من حسرة تقطـــر

ثم يخاطب هواة الحروب ممن ضلوا دون النصر والظفر :

ان لم تروا فى الصلح خيرا لكم فالدهـــر من أطماعكم أقصر
تســـوءنا الحرب وان أصبحت تدعو رجـــال الشرق أن يفخروا
أتى عـــلى الشرقى حـــين اذا ما ذكر الاحيـــاء لا يذكـــر
ومـــــر بالشرق زمـان ومـــا يمر بالبـــال ولا يخطـــــر
حتى أعـــاد الصـــفر أيامــــه فانتصف الأســـود والأسمر
فرحمـــــة الله عـــلى أمــــة يروى لهـــا التـــاريخ ما يؤثر

رحمة الله على أمة

ان الباحث المدقق ، والناقد البصير ليرى ، وهو ينقل بصره بين قصيد شاعرنا أن له خاصة تتصل به هو دون غيره ، وان تلك الخاصية تتبع هوى نفسه ومشاعره

ذلك الهوى ، وتلك المشاعر فى استشراف الغايات العلا التى يترقبها أمام التاريخ وتلك الحسرات التى يرجعها فى التلفت الى الماضى العزيز وهو فى ذهول بين الاحداث التى تمر به وتتابع عليه ، وفيها وطنه سليب الحرية ، مهيض الجناح ، ما بين مخلب مستنسر وطعمه نهمان مسغوب ٠

ولا أدرى على التحديد لم اخترت هذه القصيدة لاقدمها للقارىء ، أهى الديباجة المشرقة أم الروعة فى الوصف ، أم براعة التصوير ، أم ذلك الروح المسيطر من تحليقات الشاعر فى تأريخ الحوادث وتسطيرها والتنفيس عن شاعريته وميوله وشرقيته ؟ بل وعروبته ٠

ولكننى أدرى لماذا عدت بعـــد أن استنفدت قراءة القصيدة لأتلوها على نفسى من جديد ٠

لقد أدركت مرمى الشاعر فى الأبيات الاخيرة منها وهو يلقي عليهــا بخاتمه ليطبعها بطابع حافظ ٠

ان ذلك الخاتم هو تلك الأبيات :

أتى عــلى الشرقى حـــين اذا ماذكر الأحيـــــاء لا يذكر

ومـــر بالشرق زمـــان ، ومـــا يمـــر بالبـــال ، ولا يخطر

فرحمـــــة الله عـــلى أمـــة يروى لهـــا التـــاريخ ما يؤثر

انها حسرته على (أمه) مصر ، وهو يندب حظها ويتحسر عليها ويذكر ماضيها ، وبهذا نعود فنسطر للقارىء عيون هذه القصيدة التى سجل فيها الشاعر حدثا من الأحداث العالمية : انها الحرب اليابانية الروسية ، ويفتتح بيانه المعجز فى قصيدته بقوله :

أســــاحة للحرب ، أم محشر ؟ ومورد المـــوت أم الـــكوثر ؟

وهــذه جنـــد أطـــاعوا هوى أربابهم ، أم نعـــم تنحـــر ؟

ثم ينتقل الى أولئك الغلاظ القلوب الذين غرهم سلطانهم فأمعنوا فى اذلال البشر وفرض السيطرة عليهم :

لله ما أقسى قـلوب الألى قاموا بأمر الملك واستأثروا !
وغرهم فى الدهر سلطانهم فأمعنوا فى الارض واستعمروا
قد أقسم البيض بصلبانهم لا يهجرون الموت أو ينصروا
وأقسم الصفر بأوثانهم لا يغمدون السيف أو يظفروا
فمادت الارض بأوتادها حين التقى الأبيض والأصفر

وبهذه السهولة فى اختيار اللفظ ، واليسر فى انتقاء العبارة ، والتأنق فى صياغة المعنى يخاطب حافظ الحرب :

أشبعت يا حرب ذئاب الفلا وغصت العقبان والأنسر
ان كان هذا الدب لاينثني وذلك التنين لا يقهر
والبيض لا ترضى بخذلانها والصفر بعد اليوم لا تكسر
فما لتلك الحرب قد شمرت عن ساقها حتى قضى العسكر ؟

وما أروع وصفه لتلك الموقعة الفاصلة التى كان مقرها (مكدن) وهى مدينة فى منشوريا لقد خسر الفريقان فى هذه الموقعة مائة وعشرين ألف مقاتل ، وأسر اليابانيون من الروس أربعين ألفا ، وقد غطت الدماء تلك المدينة حتى ظهرت وهى مغطاة بالدم وكأنها ياقوتة حمراء يغار منها الدر والجوهر .

سالت نفوس القوم فوق الظبا فسالت البطحاء والأنهر
وأصبحت (مكدن) ياقوتة يغار منها الدر والجوهر
ياقوتة قد قومت بينهم بأنفس كالقطر لا تحصر
أضحى رسول الموت ما بينها حيران لا يدرى بما يؤمر
عزريل ! هل أبصرت فيما مضى وأنت ذاك الكيس الأمهر
كذلك المدفع فى بطشه اذا تعالى صوته المنكر
تراه ان أوفى على مهجة لا الدرع يثنيه ، ولا المغفر

ثم يسترسل فى سكب عبراته على القتلى والجرحى ومؤاساة الخلائق ممن دهتهم هذه الحرب وغشيتهم أحداثها :

فكم قتيل بات فوق الثرى ينتابه الأظفور ، والمنسر !
وكم جريح باسط كفه يدعو أخاه وهو لا يبصر

نظرات فى الديوان

فى النظر الى مطالع قصائد شاعرنا حافظ ابراهيم يجد القارىء فنونا شتى من العبقرية ، والنبوغ ، بالاضـــافة الى حسن الرواء ، والصبغة الادبية الاصيلة وقد تأتى لحافظ ابراهيم مالم يتأت لكثير من الشعراء الاعلام فى التوفق الى اختيار مطالـــع قصائده ، والقـــدرة الخارقة على ابتداع أفانين المزاهر وضروب الالحان التى توافق الحال .

وقد كان فيما يبهر نظرى حين أتلو القرآن الكريم وأردد بصرى فى قصار السور تلك التى نزل بها الروح الامين على قلب الرســـول الاعظم ، ليقرع بها المكذبين ، ويفحم بها المعاندين تلك المطالع الرائعـــة المعجزة التى تبدأ بها قصار السور فانك حين تقرأ :

« بسم الله الرحمن الرحيم : انا أنزلناه فى ليلة القدر ، وما أدراك ماليلة القدر .. » ويكون الله سبحانه قد فتح عليك بالعلم والتذوق وكنت ممن يفقهون أسرار اللغة بل لو كنت من ذوى الفطرة المستقيمة فحسب ، لادركت من فورك سمو هذا البيان . فتأخذك روعة الاعجاز

« انا أنزلناه فى ليلة القدر »

ففى الاســـتهلال المفخم باسناد الانزال الى الذات القدســـية ذات الخالق سبحانه ثم فى التعبير عن القرآن الكريم بالاشارة اليه بالضـــمير فى أنزلناه على أنه أمر مقرر وشىء معلوم ، واختيار لفظة القـــدر وهو الشأن العظيم . وفى هذا الايجاز المحيط بدقائق الحال مايخرس ألسنة شانئى الرسول الكريم ..

وكذلك اذا تأملنا فى قوله تعالى فى افتتاح سورة الكوثر .. « انا أعطيناك الكوثر » وفى قوله تعالى : « اذا زلزلت الارض زلزالها » فى أول سورة الزلزلة ، وفى قوله تعالى « تبت يدا أبى لهب وتب » فى أول سورة « أبو لهب » وفى بقية تلك السور التى نطالع فيها الاعجـــــاز والايجاز مايمتع السامع ويأخذ بلبه ، وينطلق بأوضح برهان وأبلغ بيان بأن هذا الكتاب ، آيات الله المعجزات .

فاذا تأتى لشاعر من الشعراء بلاغة فى القول وقدرة على صوغ أبكار المعانى فى الاسلوب الطلى ، ثم كان لهذا الشاعر من القدرة والتوفيق فى اختيار مفاتيح القصائد بمثل ما ورد على لسان حافظ ، فانه حقى

بكل تقدير حقيق بكل اعتبار وتأمل ، وهو يحسن الاختيار فى افتتاح قصائده لأن جلها ان لم يكن كلها قد أذيع على الناس من منابر القول فى حفلات عامة ، فهو على دربه بمواطن التأثير فى السامع وهو يرى أنه شاعر شعبى يخاطب الجماهير ، فكيف تغيب فطنته عن اختيار ما يناسب الحال .

لقد كان حافظ موفقا ، كل التوفيق ، قادرا على صدق التعبير فى اختياره مطالع قصائده .

وحين تستمع الى مطالع هذه القصائد وقد عرف عنه أنه كان حاد الذكاء جهير الصوت قوى التأثيرفى السامع بحسن القائه ، بهذه الخصائص وبما أوتى من البيان تستطيع أن تضعه فى مكانه بين شعراء الخلود .

استمع معى الى مطلع قصيدة له وهو يتحدث على لسان يابانية فى معرض مناصحة بنى وطنه :

لا تلم كفى اذا السيف نبا　　صح منى العزم والدهر أبى

ومطلع قصيدة أخرى فى رثاء الزعيم سعد زغلول :

ايه ياليل هل شهدت المصابا　　كيف ينصب فى النفوس انصبابا

وقوله فى مطلع آخر على لسان مصر وهى تتحدث عن نفسها

وقف الخلق ينظرون جميعا　　كيف ابنى قواعد المجد وحدى

وقوله فى وصف حرب :

أساحة للحرب أم محشر　　ومورد الموت أم الكوثر

وفى استقبال العام الهجرى :

أطل على الأكوان ، والخلق تنظر　　هلال رآه المسلمون فكبروا

وفى تحية الاسطول العثمانى :

بالذى أجراك ياريح الخزامى　　بلغى البسفور عن مصر السلاما

وفى رثاء اسماعيل صبرى :

نعاك النعاة ، وحم القدر　　ولم يغن عنا وعنك الحذر

ويؤبن محمد المويلحى :

دمعة من دموع عهد الشباب　　كنت خبأتها ليوم المصاب

وفى مطلع قصيدة تربى على مائتى بيت وعلى عهد وزارة الوزير الشهير اسماعيل صدقى :

قد مر عام يا سعاد ، وعام　　وابن الكنانة فى حماه يضام

وفى مطلع قصيدة يستقبل بها شوقى وقد عاد من منفاه :

بنــات الشعر بالنفحات جــودى   فهــــذا يوم شــاعرك المجيــــد

وقوله :

ما لهــــذا النجم فى الســـــحر   قدســــــها من شــــدة السهر

وقوله :

أبــكى وعين الشرق تبــكى معى   على الاريب الـــكاتب الالمعــــى

وقوله فى مطالعة الهلال :

لى فيك حين بدا ســــناك وأشرقا   أمـــل سألت الله أن يتحققــا

وهى كما يرى القارىء مطالع قصائد ترشد الى الموضوع وتومى الى الهدف وتأخذ بمشاعر المستمع فيحس بقيمة الشاعر وقدرته ، وتفرض عليه متابعته والاستمتاع ببيانه الساحر

قضى الامر كله فى ثوان ..

وفى وصف زلزال مسينا عام ١٩٠٨ م .

ما لمسين عوجلت فى صـــــباها   ودعاها من الردى داعيـــــــان

ومحت تلكم المحـــاسن منهـــــا   حين تمت آياتهــــــا آيتان

خســـفت ثم أغــــرقت ثم بادت   قضى الامـــــــر كله فى ثوانى

فهنا الموت أسود اللون جــــــون   وهنا الموت أحمر اللون قـــــانى

ثم يصف ما يتعرض له الطفل ، والفتاة ، وذهول الابوة فى تلك المشاهد المروعة ..

رب طفــل قد ساخ فى باطن الار   ض ينـــــادى : أمى أبى أدركانى

وفتـــاة هيفــاء تشوى على الجمـ   ـر تعانى من حــــره ما تعـــانى

وأب ذاهــل الى النـــــار يمشى   مستميتا تمتـــــد منه اليـــــدان

باحثا عن بنــــاته وبنيـــــه   مسرع الخطو مستطير الجنـــــان

تأكل النـــــار منه لاهو نــــاج   من لظاها ولا اللظى عنـــــه وانى

غصت الأرض أتخم البحر مما   طـــوياه من هـــــذه الأبدان

ويستفيض فى عرض صور من أبشع مايتصور الفكر فى تلك المرائى المثيرة المذهلة :

لا رعى الله ســاكن القمم الشـ ... م ولا حاط ســاكن القيعــان
قد أغارا على أكف براهــا ... بارىء الكائنات للاتقــان
كيف لم يرحمــا أناملهــا الغـ ... ر ولم يرفقــا بتلك البنــان ؟
لهف نفسى وألف لهف عليهــا ... من أكف كانت صــناع الزمان
مولعات بصــيد كل جميــل ... ناصــبات حبــائل الالوان
جاءها الأمر والسراة عكوف ... شــائدات روائع البنيــان

الى أن يقول من روائع وصفه وهو يخاطب تلك المدينة التــاريخية بقوله :

ايه (مســين) آنسى اليــوم ... «بمبيى» فقد أوحشت بذاك المكان
أنسى الدرة التى كانت الحلــ ... ية فى تاج دولة الرومان
غالهــا قبلك الزمــان اغتيالا ... وهى تلهو فى غبطــة وأمــان
جاءها الامــر والسراة عــكوف ... فى الملاهى على غنــاء القيــان
فانطووا كانطواء أهــلك بالامــ ... س وزالت بشــاشة العمران

الى معشر الكتاب

وينعى حظ العربية بين أهلها ويوجه خطابه فى آخرهــا الى معشر الكتاب :

وسعت كتاب الله لفظا وغــاية ... وما ضقت عن آى به وعظــات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ... وتنسيق أســماء لمخترعــات
أنا البحر فى أحشائه الدر كامن ... فهل سألوا الغواص عن صدفاتى
أيطربكم من جانب الغرب ناعب ... ينادى بوأدى فى ربيع حيــاتى
أيهجرنى قومى ـ عفــا الله عنهم ... الى لغة لم تتصــل برواة ؟
سرت لوثة الافرنج فيها كما سرى ... لعاب الأفاعى فى مســيل فرات
الى معشر الكتاب والجمع حافــل ... بسطت رجائى بعد بسط شكاتى
فاما حياة تبعث الميت فى البــلى ... وتنبت فى تلك الرمـوس رفاتى
واما ممات لا قيــامة بعــده ... ممات لعمرى لم يقس بممــات

ويقول مشيرا الى الكفايات المعوقة ، والقوى البشرية المعطلة :

ان فينا لولا التخاذل أبطــا ... لا اذا ماهم استقلوا اليراعــا

وعقـــــولا لولا الخمـــول تولا ها لفاضت غرابة وابتـــــداعا
ودعاة للخير لو أنصفوهــــــــم ملأوا الشرق عزة وامتنـــــاعا

ويقول وهو يتمنى ، وان كانت اليوم قد تحققت أمانيه وأحلامه :

ليت شعرى متى تنـــازع مصر غيرها المجد فى الحياة نزاعـــــا

وقوله من قصيدة أخرى موجها خطابه الى الشباب متطلعا الى الغـــد المأمول متصفحا فيه وثباتهم :

فياأيها الناشـــئون اعمـــــلوا على خـير مصر ، وكونوا يـــــدا
ستظهر فيـــكم ذوات الغيـــوب رجـالا تـكون لمصر الفـــــدا
فياليت شـــــعرى من منــــكم اذا هى نادت يلبى النـــــدا ؟

وقوله فى التعبير عن أواصر الصلات بين أبناء العروبة :

لمصر أم لربوع الشـام تنتسب هنا العلا وهنـــاك المجد والحسب
أم اللغات غداة الفخر أمهمـــــا وان ســـألت عن الآباء فالعرب
أيرغبان عن الحســـــنى وبينهما فى رائعات المعـــالى ذلك النسب؟
اذا ألمت بوادى النيـــــل نازلة باتت لها راسيات الشام تضطرب
هذى يدى عن بنى مصر تصافحكم فصافحوها تصافح نفسها العرب
فما الكنانة الا الشام عـــاج على ربوعها من بنيها ســــادة نجب

ومما نطرف به القارىء فى ثوبه وحذائه :

لى كساء أنعم به من كســـــاء أنا فيــــه أتيــه مثـــل الكسائى
حاكه العز من خيـــوط المعـــالى وســـقاه النعيـــم ماء الصفـــاء
خـــــــاطه ربــــه بابرة يمن أو جروا سمها خيوط الهنـــاء
يا ردائى ، وأنت خـــــير رداء أرتجيـــــه لزينة وازدهاء
غفلت عنـــــك للبـــــلى نظرات وتخطتـــــك ابرة الرفـــاء
صحبتنى قبل اصطحـــابك دهرا بـــــــذلة فى تلون الحـــرباء
كسف الدهر لونها واستعارت لون وجه الكذوب عند اللقـــاء

واستمع اليه يتحدث عن الشمس :

لاح منهـــا حاجب للنـــاظرين فنســـوا بالليـــل وضاح الجبين

هى أم الارض فى نسبتهـــــــا   هى أم الكون والـكون جنـــين
هى أم النــــار والنور معــــــا   هى أم الريح والمـــاء المعـــين
هى طلع الروض نـــــورا وجنى   هى نشر الورد طيب اليــــاسمين
انما الشـــــمس وما فى آيهــــا   من معـــــان لمعت للعـــــارفين
حكمـــــة بالغـــــة قـــد مثلت   قـــــدرة الله لقـــــوم عاقلين

أبريء عنه يعفو مذنب ؟؟

وحين ننتقي من جوهر شعره ودر قريضه ذلك النسيج الرفيع وهو يتحدث عن الشاعر الفرنسي «فيكتور هوجو» صاحب كتاب البؤساء الذي قام بنقله الى العربية شاعرنا حافظ ابراهيم ، نسوق للقاريء لوحة خصبة بأفانين الخيال والامتاع :

أعجمي كاد يعلو نجمه — في سماء الشعر نجم العربي
صافح العلياء فيها والتقى — «بالمعري» فوق هام الشهب
ما ثغور الزهر – في أكمامها — ضاحكات من بكاء السحب
نظم الوسمي فيها لؤلؤا — كثنايا الغيد أو كالحبب
عند من يقضي – بأبهى منظرا — من معانيه التي تلعب بي
بسمت للذهن فاستهوت نهى — مغرم الفضل ، وصب الأدب
وجلتها حكمة بالغة — أعجزت أطواق أهل المغرب
سائلوا الطير اذا ما هاجكم — شدوها بين الهوى والطرب
هل تغنت أو أرنت بسوى — شعر (هوغو) بعد عهد الغرب
عاف في منفاه أن يدنو به — عفو ذاك القاهر المغتصب
بشروه بالتداني ونسوا — انه ذاك العصامي الأبي
كتب المنفي سطرا للذي — جاءه بالعفو ، فاقرأ واعجب
أبريء عنه يعفو مذنب ؟ — كيف تسدي العفو كف المذنب
جاء والاحلام في أصفادها — مالها في سجنها من مذهب
طبع الظلم على أقفالها — بلظاه خاتما من رهب
جاءها (هوغو) بعزم دونه — عزة التاج ، وزهو الموكب
وانبرى يصدع من أغلالها — باليراع الحر لا بالقضب
هاله ألا يراها حرة — تمتطي في آلبحث متن الكوكب
ساءه ألا يرى في قومه — سيرة الاسلام في عهد النبي
قلت عن نفسك قولا صادقا — لم تشبه شائبات الكذب
أنا كالمنجم تبر وثرى — فاطرحوا تربي ، وصونوا ذهبي

هجعت ياطير ولم أهجع ..

ومن أعذب شعره مدحته تلك التى كتب بها الى محمد بن ابراهيم ابن هلال وهو من الشعراء والكتاب الاعلام :

هجعت يا طـير ولم أهجـع ما أنت الا عاشـق مـدعى

لو كنت ممن يعرفون الجـوى قضيت هـذا الليـل سهدا معى

يا من تحاميتم سـبيل الهـوى أعيـذكم من قلق المضـجع

وحسرة فى النفس لو قسـمت على ذوات الطوق لم تسـجع

ويابنى الشـوق وأهـل الأسى ومن قضـوا فى هـذه الأربع

عليكم من واجـد مغـرم تحيـة الموجـع للمـوجع

ويسترسل شاعرنا فى وصف الصبوات واللواعج :

لله ما أقسى فـؤاد الـدجى على فؤاد العـاشق المـولع

هـذا غليظ لم يرضـه الهوى ما بين جنبى أسـود أسـفع

وذاك فى جنبى فتى مـدنف على سـوى الرقة لم يطبـع

ويجيد الوصف حين يعرض للوجدانيات فى قوله :

وأغيـد أسـكنته فى الحشـا وقلت : يانفسى به فاقنعى

نفـاره أسرع من خـاطرى وصـده أقرب من مـدمعى

وخـده لا تنطفى ناره كأنمـا يقبس من أضلع

تساءلت عنى نجـوم الـدجى لمـا رأتنى دانى المصرع

قالت نرى فى الارض ذا لوعـة قد بات بين اليـأس والمطمـع

يئن كالمفئـود أو كالذى أصـابه سهم ، ولم ينزع

أن كان فى بدر الدجى هائمـا أما لهـذا البـدر من مطلع

أو كان فى ظبى الحمى مغـرما أما لهـذا الظبى من مرتع

ثم ينتقل الى ذكر صاحبه مشيرا الى مناقبه ومحامده :

هيهـات يا أنجـم أن تعلمى مثـير أشـجانى أو تطمعى

انى لضنـان بذكر اسـمه ضنى بود الـكاتب الألمعى

صحبتـه دهـرا فألفيتـه فتى كريـم الأصـل والمنزع

مـودة كالخمـر ان عتقت جادت ، وفضل باسـم المشرع

وعـزمة لو قسـمت فى الورى باتوا من الشـعرى على مسـمع

وفى لوحة أخرى يسطر الشاعر أوضاح الطبيعة ولهوات القلوب فيها ..

ويتحدث فى التعبير عن الاثر الذى تركته بنفسه زيارة نادىالالعاب الرياضية وذلك فى ليلة أحياها النادى ، وأنشد فيها الشاعر قصيدته التى مطلعها :

بنادى الجزيرة قف ساعة — وشاهد بربك ما قد حوى
ترى جنة من جنان الربيع — تبدت مع الخلد فى مستوى
فقل للحزين ، وقل للعليل — وقل للملول : هناك الدوا
وقل للأديب : ابتدر ساحها — اذا ما البيان عليك التوى
وقل للمكب على درسه — اذا نهك الدرس منك القوى
تنسم صباحا تجدد قواك — فأرض الجزيرة لا تجتوى

ويصفها فى يوم قائظ لافح حره وقد نزل منها منزلا طيبا قرت به عينه وطابت نفسه فراح ينعى على أولئك اللاهين الغافلين ممن يمضون أوقاتهم ويقتلونها فى المقاهى والحانات .

ويارب يوم شديد اللظى — به الشمس نزاعة للشوى
به الريح لفاحة للوجوه — روى عن جهنم ما قد روى
قصدت الجزيرة أبغى النجاة — وجسمى شواه اللظى فاشتوى
فألفيت ناديها زاهرا — وألفيت ثم نعيما ثوى
فأنزلنى منزلا طيبا — وروى فؤادى حتى ارتوى

الى أن يقول ينكر على قومه مسلكهم فى قضاء أوقات الفراغ فى غير طائل :

فما بال قومى لا يأخذون — لتلك الجنان طريقا سوى
ومـا بال قومى لا ينزلون — بغير « جروبى » وبار اللوا
تراهم على نردهم عكفا — يبادر كل الى ما غوى
ولو أنصفوا الجسم لاستظهروا — له بالمران وطيب الهوا

ويناغى ذلك النادى بما حفلت به لياليه وما أشجى نفسه فيه رافعا صوته بالدعوة الى غشيانه والدعاية له .. فى أبياته :

فيانا ديا ضم أنس النديم — ولهو الكريم وقيت البلى
لياليك أنس جلاها الصفاء — فأسرت اليك وفود الملا
فكم ليلة طاب فيك الحديث — فكان الكئوس وكان الطلا

فمن مشجيـــات الى مطـــربات الى مضـــحكات تســـلى الى ٠٠
وقد زان لهـــوك ثوب الوقـــار فلهوك فى كل ذوق حـــــلا

ويفيض فى الوصف ويغرق فى الدعاية ويرى رأيه فى أن هذا هو مقام النعيم ومنزله والا ٠٠ فلا ٠

فقل للذى بات تحت العقـــود بحـرب على نفســـه مبتـــلى
أتلك الأمـــاكن لا تســـتراد ؟ أتلك المنـــاظر لا تجتـــلى ؟
أتحت الســـماء وبدر الســـماء وبين الرياض ، وبين الخـــلا
يمل الجلوس ويفنى الحـــديث فهـــذا النعيـــم والا فـــلا
مكان لعمـــرك ما حـــل فى نواحيـــه ذو الحزن الا ســـلا

فما أنت فى مصر ٠٠

ولله در الشاعر وهو يشيد بمكانة هذا الندى فيجذب اليه القلوب المتشوفة بقوله :

فمـــا أنت فى مصر ان لم تطر اليه فتشـــهد تلك الحـــلى

وتحضرنى فى هذا المقام طرفة أدبية أرى أن يشاركنى فيها القارىء وقد كان من دواعى ذكرها بيت شاعرنا ذاك الذى يذكر فيه ، أنك لست من مصر ان لم تشاهد تلك المغانى فى قوله :

فمـــا أنت من مصر ان لم تطر اليه فتشـــهد تلك الحـــلى

ففى متحف المنيل (قصر المنيل) الذى تقوم عليه وزارة الثقـــافة والارشاد القومى ، والذى كان يسكنه «الأمير محمد على» يرى الزائر فى احدى الأبهاء الداخلية لافتة اهتم صاحب القصر بابرازها لتكون فى مواجهة الزائر الكريم ، وهى طرفة من الشعر جاءت على شكل قصيدة نمقت فى اطار بديع تقرأ فيها حين تطالعها متأملا :

اذا كنت فى مصر ولم تك ساكنا على نيلها الجارى، فما أنت فى مصر
وان كنت فى مصر بشاطىء نيلها ومالك من شىء فما أنت فى مصر
وان كنت ذا شىء ولم تك صاحبا لالف له لطف ، فما أنت فى مصر
وان كنت ذا الفولم تك مالـــكا لكيس حوى ألفا ، فما أنت فى مصر
وان حزت ماقلنا ، ولم تك هائما تميل لمن تهوى فما أنت فى مصر

وهى لوحة تعبر عن افتنان صاحب القصر بهذا البذخ وتعشق الفن ومنازع الصبوات الذى يطيب ويلذ لمن انصرف عن جادة الحياة واستهوته زخارفها وزينتها ــ كتبت بخط الفنان الكبير سيد ابراهيم ولكننى لم أهتد الى الشاعر الذى صاغها ٠

وقوله فى معرض المناصحه :

قل له : جـــل من له الملك لا ملك لغـــير المهيمن المعبـــود

وقوله :

قد تولى محمــد الخــامس المـــ ــلك فأعظم بتــاجه المعقــود
طأطئى للجـــلال يا أمـــم الأر ض سجودا ، هذا مقام السجود

ويقول :

ثلاثة آســـــاد يجانبها الردى وان هى لاقاها الردى لا تجانبــه
يصارعها صرف المنـــون فتلتقى مخالبها فيه ، وتنبو مخالبـــه

وقوله :

صوالجـــه ســـمر القنــا وكراته رءوس الأعادى والحصون ملاعبــه

وقوله :

تزن الـــــكلام كأنه ماس بميزان التجـــار
وتصـــــون معنى ربه صون اللآلىء فى المحـــار

وقوله ويعنى «الاستاذ احمد لطفى السيد» :

انى قرأت كتـــــابه بين الخشوع والاعتبـــار
فاذا المترجـــم مـاثـــل جنب المؤلف فى اطـــار
وعليهـــــا نور يفيض من المهـــــابة والوقار

وقوله فى مدحه :

لم يجر فى ناديك هجـ ــر القول أو خلع العذار
حلو التواضع والتـــوا ضع آية القوم الخيـــار
مر التـــكبر حين يد عوك التواضع للصـــغار

ويصف يراعة شوقى :

براها له البارى فلم ينب سنهــا اذا مانبا العسال عن كف أروع
لديها وفود اللفظ تنساق خلفها وفود المعانى خشعا عند خشـــع
اذا رضيت جاءت بأنفاس روضة وان غضبت جاءت بنكبـــاء زعزع
على سنها رفق يسيل ورحمـــة وروح لمن يأسى ، وذكرى لمن يعى
تطير بروق الفـــكر خلف بروقهـــا تناشـــــدها بالله لاتتسرعى
تحاول فوت الفـــكر لو لم تكفها أنامـــله كف الجمـــوح المروع

وقوله :

فان كنت قوالا كريما مقـــاله فقل فى سبيل النيل والشرق أودع

وفى وصف مغانى لبنان وجناتها :

اذا تأملت فى صنع الاله بهـــا لم تلق فى وشيه صنعا لانسـان

فى سهلها وأعاليها وسلسلهـــا برء العليل وسلوى العاشق العانى

وفى تضوع أنفاس الرياض بهـا روح لكل حزين القلب أسـوان

وفى صاحبه (محمد المويلحى) يصف قلمه :

تأوى الظبــاء اليه وهى أوانس وتحيد عنه الأسد وهى ضـوارى

وقوله فى تهنئة المقتطف بعيده الخمسينى :

فى كل لفظ حكمـة مجـلوة وبكل سـطر مهبط لصواب

فاللفظ فيــه مقوم بصحيفـة والسطر فيه مقـوم بكتـاب

وقوله :

العلم فى البأساء مزنة رحمـة والجهل فى النعماء سوط عذاب

وقوله فيما يصاب به الشيوخ من اضطراب فى الاعصاب وهو يعلل ذلك فى مقام المديح والاطراء :

لاحت برأسك هزة ولعلهـــا من وقع فكرك لا من الاعصـاب

فكر سريـع كره متـــدفع كتدفع الأمواج فوق عبـــاب

وقوله :

يا ســاكن البيت الزجـــا ج هبلت لا ترم الحصـــونا

أرأيت قبلـــك عـــاريا يبغى نزال الـدار عينـــا ؟

وقوله :

كاد الزمان لنـــا ولا عجب اذا كاد الغريـم

وقوله :

فشرابك المـــاء الشـنا ن وشربى المـاء الحميم

وقوله :

قـــرمت والله حتى صاحت عصـــافير بطنى

وقوله :

وافى كتـــابك يزدرى بالدر أو بالجوهـــر

فقرأت فيــه رســـــالة مزجت بذوب الســـــكر
معنى ألذ من الشـــــما تة بالعــدو المـــــدبر

ومن دعاباته لصديق له :

غفـــرانك اللهــــم انى من ظلامتـــــــــه برى
ســــــويته كالــكركدن وجاءنا كالأخـــــدرى
وجــه ولا وجـــه الخطو ب وقامـــــة لم تشبر
ومن العجائب أن مثـــ ـــل لســــانه لم يبتر
ولقد عجبت لبخـــــله ولـــكفه المتحجــــر
لا يصرف السـحتوت الا وهو غير مخـــــــير

وقوله :

فرحت وفى نفسى من اليأس صارم وعدت وفىصدرى منالحلممصحف

وبيته :

شاب فيهم ولاؤهم حين شــابوا وولائى فى عنفوان الشــــباب

وبيته :

هجعت يا طـــير ولم أهجــــع ما أنت الا عاشـــق مـــــدعى

وبيتاه :

وأغيـــد أسكنته فى الحشـــــا وقلت : ! يانفس به فـــــاقنعى
نفــــاره أسرع من خاطرى وصـــده أقرب من مـــــدمعى

وبيته على لسان (هوغو) :

أنا كالمنجـــــــم تبر وثــــرى فاطرحــــوا تربى وصونوا ذهبى

وبيته :

انما الشــــام والـكنانة صـــنوا ن برغم الخطوب عاشــــا لزاما

وبيته :

ولوع بتصوير الطباع فلم يجـز بعاطفة الا حسبناه يرســــــــم

وبيته :

من العناية قد ريشت قوادمهـــا ومن صميم التقى ريشت خوافيها

وبيته :

يرمى الأعادى بآراء مســــددة وبالفوارس قد سالت مذاكيهـــا

غزل . !

وما أنا والغرام وشـــاب رأسى وغال شـــبابى الخطب الجسام
لعمـــرك ما أرقت لغـــير مصر ومـــالى دونها أمـــل يرام
ذكرتُ جـــلالها أيام كانت تصـــول بها الفراعنة العظـــام
وأيام الرجـــال بهـــا رجـــال وأيام الزمـــان لهـــا غـــلام
فأقلق مضـــجعى ما بات فيهـــا وباتت مصر فيـــه فهل ألام ؟

حافظ ابراهيم

ملامح من شخصية الشاعر

وحين يتجول النظر فى ديوان حافظ يقف على سمات عامة يتضح منها جوانب من شخصية الشاعر ، وهو اذ يعبر فى بيانه المنظوم عن هذه الجوانب من شخصيته فانما يجلى للمتأمل ما انطوت عليه نفسه ، وما تأثر به ، والانطباعات التى لاتكاد تفارق تلك السمات والملامح ، وتراه فى مدحه ، وهجائه وشوقه وحنينه ، وفى همته وشجاعته ، ونوازع آرائه لا يكاد يستطيع أن يتخلى عن هذه السمات وتلك الملامح التى هى جزء من كيانه •

استمع اليه وهو يهنىء صديقا له بقوله :

ياهماما فى الزمـــان له   همـــة دقت عن الفطن
وفتى لو حــــل خاطره   فى ليـالى الدهر لم تخن

لاينسى أن يعبر عن آلامه بقوله :

يالقومى اننى رجـــــل   حرت فى أمرى، وفى زمنى
أجفـــاء أشتكى وشـــقا   ان هـــذا منتهى المحن

وحين يمتدح الامام الشيخ محمد عبده بقوله :

انى لأبصر فى أثنـــــــاء بردته   نورا به تهتدى للحق ضـــــلال

لاينسى أن يسجل خفقات قلبه التى تنم عن حاله وقد ضاقت به الحال:

يا من تيمنت الفتيـــا بطلعتـــــه   أدرك فتاك فقد ضاقت به الحال

ودمعة الشاعر يسفحها عبرة حزن وأسف فى تجلده الظـــاهر وهو مغترب عن مصره الى قطر شقيق فى مقالته :

ولى الشباب وجازتنى فتـــــوته   وهدم السقم بعـد السقم أركانى
وقد وقفت على الستين أســـألها   أسوفت أم أعدت حر أكفـــانى
شــــاهدت مصرع أترابى فبشرنى   بضجعة عندها روحى وريحـــانى
كم من قريب نأى عنى فـــأوجعنى   وكم عزيز مضى قبـــلى فأبكانى
انى مللت وقـــــوفى كـل آونة   أبكى وأنظم أحـــــزانا بأحزان

تنم عن بالغ الألم الذى يشير اليه فى أن المتصفح لديوانه يرى أن نصفه شعر مراث وأحزان :

اذا تصفحت ديـــوانى لتقـــرأنى   وجدت شعر المراثى نصف ديوانى

وما آلم بيتيه وهو يذيع وجعه وحاجته الى الراحة والاستشفاء فى مخاطبة لبنان :

أتيت مستشفيا والشوق يدفع بى الى رباكم وعودى غير فينان
فأنزلونى مكانا أستجم به وينجلى عن فؤادى برح أحزانى

ويشكو ويذيع شكواه فيما يبثه صديقه

أشقى وأكتم شقوتى والله بى وبها عليم
لا مصر تنصفني ولا أنا عن مودتها أريم
واذا تحول بائس عن ربعها فأنا المقيم

وهو فى بؤسه يعلن تمنياته وحاجة نفسه الى الترويح عنها والعيش الهنيء بين مشتى ومصطاف ، استمع اليه فى احدى قصائده :

ياليتنى كنت من دنياى فى دعة قلبى جميع ، وأمرى طوع وجدانى
أقضى المصيف بلبنان على شرف ولا أحول عن المشتى بحلوان

وتسمع الى أنته فى غربته وهو بالسودان يندب حظه النكد :

جنيت عليك يا نفسى وقبلى عليك جنى أبى فدعى عتابى
فلولا أنهم وأدوا بيانى بلغت بك المنى وشفيت مابى

وفيها يقول :

وما أعذرت حتى كان نعلى دما ووسادتى وجه التراب
وحتى صيرتنى الشمس عبدا صبيغا بعد ما دبغت اهابى
وحتى قلم الاملاق ظفرى وحتى حطم المقدار نابى

وحين يكتب اليه الهراوى الشاعر أبياتا يسأله عن مقامه وحاله يرد عليه حافظ :

انا فى الجيزة ثاو ليس لى فيها أنيس
أنكر الأنس مكانى ونأى عنى الجلوس
ليس يدرى من رآنى أطليق أم حبيس

ويعود فيكتب الى أصدقائه وهو فى السودان :

من واجد منفر المنام
طريد دهر جائر الأحكام
مشتت الشمل على الدوام

ملازم للهـــم والســقام

اليـــكم يانزهة الأنام

هذا هو حافظ يشكو بؤسه ويبكي دهره وشتات شمله ، وهولايدري خبيء الايام ترصد له من طيب الثناء ونباهة الذكر ماتراه معي أيهـــا القارىء ونحن نتقصى أخباره ونقدر أمره وشأنه ،

واذ نسير معه في طريقه هذا شوطا وهو في أســناه نطالع ماكتبه وهو مريض :

مرضتـــا فمـــا عادنا عائــد ولا قيـــل أين الفتى الألمعي

ولا حن طـــرس الى كـــاتب ولا خف لفظ على مســـمع

وينعى على دولة الأدب جفاءها وسوء تقديرها فيرميها بما هي أهــل له ولعل الله قد استجاب دعاءه على أيامنا فأصابت لعنته حمـــاة القريض بصفة خاصة فكان ذلك الشعر «السايب» !

فيـــــادولة آذنت بالزوال رجعنا لعهـــد الهوى فارجعي

ولا تحسبينا ســلونا النسيب وبين الضـــــلوع فؤاد يعي

وفي ادكار أيام شبابه يسجل ظواهر هذه الفترة من حياته :

أهفو اليــه على ما أقرحت كبدي من التباريح أولاه ، وأخــراه

لبســـته ودمـوع العـين طيعة والنفس جيـــاشة والقلب أواه

فـكان عوني على وجـــد أكابده ومر عيش على العــلات القاه

ويشير الى دمعه الذي كم روح عن نفسه وغسل حنايا قلبه :

كم روح الدمع عن عيني وكم غسلت منه السوابق حزنا في حنـاياه

ويذكر لهو الصبا يبكيه ويبكي معه شبابه وما أوفى عليه من أياب المشيب :

قالوا تحررت من قيد الملاح فعش حرا ففي الأسر ذل كنت تأبـاه

فقلت : يا ليته دامت صرامتـــه ما كان أرفقه عندي ، وأحنـــاه

بدلت منه بقيـــد لست أفلتـــه وكيف أفلت قيدا صاغـــه الله

ويقارن بين أسرى الهوى ، وأسرى المشيب فيبدع ويرقم بقلم الخيال والبيان على صفحات الاعجاز تلك الصورة :

أسرى الصبابة أحياء وان جهدوا أما المشيب ففي الأمـوات أسراه

عبرات الشاعر

وإذا كان نصف ديوان الشاعر قصائد أنشدها فى رثاء أحبابه وخلانه وعارفيه كما أشار الى ذلك بقوله وهو فى سن الستين يترقب لقاء الموت :

وقد وقفت على الستين أسألها ... أسوفت أم أعدت حسر أكفانى
كم من قريب نأى عنى فأوجعنى ... وكم عزيز مضى قبلى فأبكانى
انى مللت وقوفى كل آونة ... أبكى وأنظم أحزانا بأحزان

الى أن يقول :

اذا تصفحت ديوانى لتقرأنى ... وجدت شعر المراثى نصف ديوانى

كان لابد من وقوفنا مع مراثيه وتتبع تلك العبرات التى شغلت نصف ديوان الشاعر وأرقت وتره وهزت مشاعره •

ولسنا بمقام تعليل الأسباب التى أدت الى أن يكون نصف فنه فى المراثى ، فما يعنى الأدب ذلك فى شىء ، وان رده اخوانه وصحابته الى حياته الحزينة ، وكثرة معارفه وصفاء نفسه ووفائه ، وما كان عليه ذلك العصر من أن عادة رثاء الفقيد كانت متبعة فى الأغلب الأعم •

وعندى أن الذى يمكن أن نخوض فيه هو تلك العبرات التى استهلها فى رثاء أصدقاء حياته وصحبته • وممن ألف العيش فى أمنافهم والتقى بهم وعاصروه وألفوه وهم ممن قادوا الحرمة الوطنية معه ، واضطلع معهم بدوره فى النضال •

ان عبرات الشاعر فى مصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وسعد زغلول والبارودى ، ومحمد عبده ، وحفنى ناصف ، وغيرهم •• وغيرهم •• من هذه الطبقة التى كان لها القيادة على عصر حافظ كانت ألما يعصر قلبه ووفاء يفيض من روحه :

استمع اليه يرثى البارودى فى قصيدة يستهلها بقوله :

ردوا على بيانى بعد «محمود» ... انى عييت وأعيا الشعر مجهودى

يقول :

لبيك يا شاعرا ضن الزمان به ... على النهى والقوافى والأناشيد
تجرى السلاسة فى أثناء منطقه ... تحت الفصاحة جرى الماء فى العود
فى كل بيت له ماء يرف به ... يغار من ذكره ماء العناقيد

لو حنطوك بشعر أنت قائـــله غنيت عن نفحات المسك والعود

ويحلق بخياله فى تكريم الفقيد

اقول للمـــلأ الغـــادى بموكبـــه والناس ما بين مكبود ومفئـــود

غضوا العيون فانالروح يصحبكم مع المـلائك تكريما « لمحمود »

وتبلغ به الاجادة ذروتها فى التعبير عن صدى الحزن فى نفسه وهو يرثى الاستاذالامام الشيخ محمد عبده فيبلغ به الوفاء ذروته وهو يخشى طول الحياة بعده :

لقد كنت أخشى عادى الموت قبله فاصبحت أخشى أن تطول حيـاتى

ويذكر حسناته :

أبنت لنا التنزيل حكما وحكمـة وفرقت بين النور والظلمـــات

ويقول :

بكىالشرق فاهتزت لهالارضرجة وضاقت عيون الــكون بالعبرات

ففى الهند محزون وفىالصين جازع وفى مصر باك دائم الحســـرات

وفىالشام مفجوعوفىالفرس نادب وفى تونس ماشــئت من زفرات

ويذكره مصلحا موجها :

فياويح للشورى اذا جد جــدها وطاشت بها الآراء مشــتجرات

وياويح للفتيـــا اذا قيـــل من لها وياويح للخــيرات والصــدقات

لقد كنت مقصود الجوانب آهـــلا تطوف بك الآمال مبتهـــلات

مثابة أرزاق ، ومهبط حكمـــة ومطلع أنوار وكنز عظـــات

ويبكى مصطفى كامل فيخاطب قبره :

أيا قبر لو أنا فقـــدناه وحـــده لكان التأسى من جوى الحزن شافيا

ولكن فقـــدنا كل شىء بفقـــده وهيهات أن يأتى به الدهر ثانيـا

ويبكيه فى حفل الاربعين بقوله :

غادرتنـــا والحـــادثات بمرصد والعيش عيش مذلة واســـار

ماكان أحوجنـــنا اليك اذا عـدا عاد ، وصاح الصـــائحون بذار

قـــم وامح ما خطت يمـين كرومر جهـــلا بدين الواحد القهـــار

ويصح حجاجه وبيانه فى الدفاع عن وطنه :

لعبت يمينـــك باليراع فأعجزت لعب الفوارس بالقنا الخطـــار

وجريت للعلياء تبغي شـــأوها فجرى القضاء وأنت فى المضمـار

أو كلمـا هز الرجـاء مهنـدا ... بدزت اليه غـوائل الاقـدار

ويصف يوم الفجيعة فيه :

شـاهدت يوم الحشر يوم وفاته ... وعلمت منه مراتب الأقـدار
ورأيت كيف تفى الشعوب رجالها ... حق الولاء وواجب الاكبـار
تسعون ألفا حول نعشك خشـع ... يمشون تحت لوائك السـيار
خطوا بأدمعهم على وجـه الثرى ... للحـزن أسطارا على أسـطار

ويشير الى قصر عمره مع ما أنجز فيه من جلائل الأعمال بقوله :ـ

ان الثـلاثين التى بك فاخرت ... باتت تقاس بأطول الأعمـار
ضمت الى التاريخ بضع صحائف ... بيضـاء مثل صحائف الابرار

ويشير الى كفاحه :

مازلت تختار المواقف وعـرة ... حتى وقفت لذلك الجبـار
وهدمت سورا قد أجـاد بنـاءه ... فرعون ذو الأوتاد والأنهـار

ويبكى قاسم أمين :

شغلتك عن دنياك أربعـة ... والمرء من دنيـاه فى شـغل
حق تنـاصره ومفخـرة ... تمشى اليها غير منتحـل
وحقـائق للعـلم تنشـدها ... ما للحـكيم بهن من قبـل
وفضـيلة أعيت سـواك فلم ... تمـدد اليه يدا ولم تصـل

وتشير الى رأيه فى السفور والحجاب :

ان ريت رأيك فى الحجـاب ولم ... تعصم فتلك مراتب الرسـل
الحـكم للأيام مرجعـه ... فيما رأيت فنم ولا تسـل

ويخاطبه ويذكر فى مضمون خطابه الامام الراحل :

قـل للامـام اذا التقيت به ... فى الجنتـين بأكرم النزل
ان الحقيقـة أصبحت هـدفا ... للراكبـين مـراكب الزلل

ويبكى الشيخ على يوسف فيقول :

أودى فتى الشرق بل شيخ الصحافة بل ... شيخ الوفائية آلوضـاحة الحسب
اقام فينـا عصاميا فعلمنـا ... معنى الثبات ومعنى الجد والدأب
قالوا : عجبنـا لمصر يوم مصرعه ... وقد عجبت لهم من ذلك العجب
ان الالى حسبوها غـير جازعـة ... لاينظرون الى الاشـياء عن كثب

ويشير الى حال المؤيد بعد موت عميده :

كم أرجفوا بعد موت الشيخ وارتقبوا ... موت المؤيد فينـــا شر مرتقب
وان يمت تمت الآمـــال فى بلد ... لولا المؤيد لم ينشـــط الى طلب
صبابة من رجـــاء بين أضلعنـــا ... قد بات يرشف منها كل مغتصب
لولا (المؤيد) ظـــل المسلمون على ... تناكر بينهم فى ظلمـــة الحجب

ويرثى الشيخ سليم البشرى :

اشـــيخ المسلمين نأيت عنـــا ... عظيـــم الاجر موفور الثواب
اذا ألقى السؤال عليـــك ملق ... تصـــدى عنك برك للجـــواب
ونادى العدل والاحســـان انا ... نزكى ما يقـــول ولا نحـــابى

أما فجيعته وعبراته فى الزعيم محمد فريد فاستمع اليـــه يخاطب النيل :

أيهـــا النيل لقـــد جـــل الأسى ... كن مدادا لى اذا الدمع نفـــد
واذبلى يا زهـــرة الروض ولا ... تبسمى للطـــل فالعيش نكد
فلقد ولى (فريد) وانطـــوى ... « ركن مصر » وفتـــاها والسند

ويوغل فى النواح عليه والبكاء :

يا غريب الـــدار والقبـــر ويا ... سلوة النيل اذا ما الخطب جـــد
وحســـاما فـــل حـــديه الردى ... وشهابا ضـــاء وهنـــا وخمد
قل لصب النيـــل ان لاقيتـــه ... فى جوار الدائم الفرد الصـــمد
ان مصرا لاتنى عن قصـــدها ... رغم ما تلقى وان طال الأمـــد
جئت عنهـــا أحمـــل البشرى الى ... أول البانين فى هـــذا البلد
فاسترح واهنـــأ ونم فى غبطـــة ... قد بذرت الحب والشعب حصد

ولم يكف شاعرنا هذا البكاء والنواح على أصحابه وخلصائه وانما حين استبد به الالم وهو يبكى الاستاذ الامام ويذكر المرحوم حفنى ناصف لم يتمالك أن بكى نفسه وهو يشير الى تلك الارهاصات التى تلازم الشعراء ذلك أنه اشترك فى رثاء الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده مع نخبة من الادباء والشعراء وكانوا ستة على الترتيب :

الشيخ أحمد أبو خطوة ثم حسن عاصم باشا ، ثم حسن عبد الرازق ثم قاسم أمين ، ثم حفنى ناصف ، ثم حافظ ابراهيم • واتفق ان مـــات الأربعة الأولون على ترتيب وقوفهم فى الرثاء واذ فطن الى ذلك المرحـــوم حفنى ناصف بعث الى حافظ بالأبيات الآتية :

أتذكر اذ كنا على القبر ســـتة ... نعدد آثار الامام ونـــنـــدب

وقفنا بترتيب وقد دب بيننـــا ... ممات عـــلى وفق الرثاء مرتب
أبو خطوة ولى وقفـــاه عاصـــم ... وجاء لعبد الرازق المــوت يطلب
فلبى وغابت بعــــده شمس قاسم ... وعما قليل نجم محيـــاى يغرب
فلا تخش هلكا ما حييت وان أمت ... فما أنت الا خـــــائف تترقب
فخاطر وقع تحت القطار ولاتخف ... ونم تحت بيت الوقف وهو مخرب
وخض لجج الهيجـــاء أعزل آمنا ... فان المنايا عنك تنـــأى وتهرب

يذكر هذا شاعرنا فيضمن بكاه الاستاذ الامام فى ذكراه رثاء المرحوم حفنى ناصف فيقول :

قد وقفنـــا ستة نبكى عـــلى ... عـــالم المشرق فى يوم عصيب
وقف الخمسة قبـــلى فمضـــوا ... هكذا قبـــلى ، وانى عن قريب
وردوا الحوض تبـــاعا فقضـــوا ... باتفـــاق فى منـــايا هم عجيب
انا مـــذ بانوا وولى عهـــــدهم ... حاضر اللوعة موصول النحيب
هدأت نـــيران حزنى هـــدأة ... وانطوى حفنى فعادت للشبوب

أما بكاؤه اســـماعيل صبرى فقــد رثاه بمطولة من عيون شعره استهلها بقوله :

نعـــاك النعاة وحم القـــدر ... ولم يغن عنـــا وعنك الحـــذر
اذا ذكرت ســـير النـــابهين ... فسيرة (صبرى) تجب السير

ويصف شعره :

وشـــعرك كالمـــاء فى صفوه ... على صفحتيه تراءى الصـــــور
عيون القصائد مثـــل العيون ... وشعرك فيهن مثـــل الحور

أما سعد زغلول فينشد فى حفل تأبينه قصيدته التى مطلعها :

ايه ياليل هل شهدت المصـــابا ... كيف ينصب فى النفوس انصبابا

وفيها يقول :

أين (سعد) ؟ فذاك أول حفـــل ... غاب عن صـــدره وعاف الخطابا
لم يعـــود جنوده يوم خطب ... ثم ينادى فـــلا يرد الجوابا
انهـــا النكبة التى كنت أخشى ... انهـــا الساعة التى كنت آبى
انهـــا اللفظة التى تنسف آلا ... نفس نسفا وتفقر الأصـــلابا

ومنها يقول :

خرجت أمة تشـيع نعشـا … قد حـوى أمة وبحرا عبـابا
حملوه على المدافـع لمـا … أعجز الهـام حمله والرقابا

ويشير حافظ فى رثاء الزعيم سـعد زغلول الى النعى الذى ساقته « التيمس » حين وافاه الأجل بقوله :

ساقت (التيمس) العزاء الينـا
وتوخت فى مدحـك الاسـهابا
واعتراف (التاميز) يا (سـعد)
مقيـاس لمـا نال نيلها وأصـابا

ثم يعدد مناقبه :

يا كبـير الفؤاد والنفس والآ … مال أين اعتزمت عنـا الذهابا
كيف ننسى مواقفـا لك فينا … كنت فيهـا المهيب لا الهيابا ؟
كنت فى ميعة الشباب حساما … زاد صـقلا فرنده حين شابا

ولله دره وهو يبكيه بما هو أهل له :

جـزع الشرق كله لعظيـم … مـلأ الشرق كله اعجـابا
جمـع الحق كله فى كتاب … واستثار الاسـود غابا فغابا
ومشى يحمـل اللواء الى الحق … ويتلو فى النـاس ذاك الكتابا
أى مكر يدق عن ذهن سـعد … أى ختل يريـغ منه اضطرابا
عجزت حيلة الشـباك وكان … الشرق للصيد مغنما مستطابا
كلمـا أحكموا بأرضك فخـا … من فخاخ الدهاء خابوا وخابا
أو أطاروا الحـمام يوما لزجل … قابلوا منك فى السـماء عقابا
قـد بلوناك قاضيا ووزيرا … ورئيسـا ومدرها خـلابا
فوجدناك من جميع نواحـ … ـيك عظيـما موفقا غـلابا

ويرثى (باحثة البادية) وهى السيدة ملك ناصف بنت المرحـوم حفنى ناصف :

ملك النهى لا تبعـدى … فالخلق فى الدنيا سـير
انى أرى لك سـيرة … كالروض أرجـه الزهر

وفيها يقول :

لا كان يومك يـوم لا … ح آلحزن مختلف آلصور

علمت هاتفة القصـــــو ر نواح هاتفة الشـــجر
وتركت أتراب الصبا حزنا يقطعن الشـــعر

ويعلل شدة حزنه وجزعه بما لمسه من جزع أبيها وفزعه :

أنا لم أذق فقد البنــــ ـــين ولا البنات على الكبر
لكننى لـــــــما رأيت فؤاده وقـــــد انفطر
ورأيته قد كاد يحـــــ ــــرق زائيريه اذا زفر
وشـــــهدته أنى خطا خطوا تخبـــــل أو عثر
أدركت معنى الحزن حز ن الوالدين ، فمـــا أمر.
يا بـــرة بالـــــوالد ين أبوك بعـــدك لا يقر

وفي هذه النماذج التى اقتطفناها من شعر حافظ فى رثائه أصدقاءه واخوانه فى النضال ما يضىء الطريق أمام المتـــأمل ، وهى فى سهولتها وجزالتها ووضوح مراميها ومعانيها غنيةعن التعليق ، فكلها تنضح بالحب والوفاء وترديد جلائل الأعمال وحسن الوفاء فى جميل العزاء ٠

فاذا عرضنا قليلا من نمـــاذج وفائه للأحياء من صحابته وهو يبعث اليهم بالتحية ، أو ينشدهم مكرما اياهم فى مناسبات التكريم فمـــا أروع ما يتصيد الشاعر من فريد المعانى فى صوغه لهذا النـــــوع من القريض الخالد وما أمتع ما يزجيه للقلب والعقل معا من أسلوب رائع يضم المعنى البكر ٠

ان الخيال الرائق حين يتصيد المعنى العذب فى الأســـــلوب البديع ليشجى صاحب الفكرة المتأمل ، يقول حافظ فى معرض مدحه أســـــتاذ القريض محمود سامى البارودى عام ١٩٠٠ م :

كلانا له عذر فعـــذرى شبيبتى وعذرك انى هجت سيفا مجردا
هوينا فما هنا كما هان غيرنا ولكننا زدنا مـــع الحب سؤددا
وما حكمت أشواقنا فى نفوسنا بأيسر من حكم السماحة والندى
نفوس لهـــا بين الجنوب منازل بناها التقى واختارها الحب معبدا .

وهو شعر رفيـــع ينطق بالحكمة ويضم جوهر المعانى وأبكار الفن الشعرى الأصيل ٠ انه يناجى شاعرا فحلا من شعراء العربية بل أســـتاذ الشعراء فلا عجب اذا ارتفع فى التعبير :

ورحت الى حيث المنى تبسعث المنى
وحيث حداً بى من هوى النفس ماحدا

ولا بدع أن يفتن فى أبراز قدرته وحسن تودده :

كذلك لم أذكرك والخطب يلتقى
به الخطب الا كان ذكرك مسعدا

فهو شديد الوفاء بعيد الترسل فى المدح والتعبير بخياله الذى يلابس أحاسيسه أشد ملابسة ، ويدفق من خوالج نفسه وهواتف شعوره عن اخلاصه وحبه وعميق ولائه لمن يمدحه من محبيه .

ذلك شأنه وهو يذكر الاستاذ الامام بقوله :

كأن فؤادى ابرة قد تمغطست
بحبك أنى حرفت عنك تعطف

كأن يراعى فى مديحك ساجد
مدامعه من خشية الله تذرف

الى أن يقول وهو يطوع قلبه وقلمه لهذا المدح البعيد فينتزع منه صورة جديدة ليكون داعية للاصلاح ونذيرا به فى تنديده بالبدع المستهجنة

أمام الهدى! انى أرى القوم أبدعوا ... لهم بدعا عنها الشريعة تعزف
رأوا فى قبور الميتين حياتهم ... فقاموا الى تلك القبور وطوفوا
وباتوا عليها جاثمين كأنهم ... على صنم للجاهلية عكف
فأشرق على تلك النفوس لعلها ... ترق اذا أشرقت فيها وتلطف
فأنت بهم كالشمس بالبحر انها ... ترد الأجاج الملح عذبا فيرشف
له كل يوم فى رضى الله موقف ... وفى ساحة الاحسان والبر موقف

وهو الشاعر الذى لايذهب بدا خياله فى ترجيع هذا اللحن على نفس الوتر ، وفى مدحه للاستاذ الامام :

يا أمينا على الحقيقة والافتا ... ء والشرع والهدى والكتاب
أنت نعم الامام فى موطن الرأ ... ى ، ونعم الامام فى المحراب
خشع البحر اذ ركبت جواريـ ... ـه خشوع القلوب يوم الحساب
وبدا ماؤه كخاطرك المصقـ ... ـول أو كالفرند أو كالسراب
يتجلى كأنه صحف الأبـ ... ـرار منشورة بيوم المآب

فهي تسرى كأنهـــا دعوة المضـــطر فى مسبح الدعاء المجـاب
وسرى البرق للجزائر بالبشـــــرى بقرب المطهـــر الأواب

ثم ينتفض الشاعر الى ماستوعبته نفسه من كفران مصر بالأعلام من بنيها ، ويودع شعره ما استكن فى خاطره عنها :

ليت مصراً كغيرها تعرف الفضـــل لذى الفضل من ذوى الألباب

ولله در الشاعر الذى سخره القدر للدفاع عن حوزة الشيخ الامام بما هو أهل له ، وكأن قدر الله اختاره سيفا مصلتا يجرى على رقاب منافحيـه ومعانديه ، وجاحدى فضله ، ولو قد قدر للامام أن يعيش الى مابعد عهد حافظ لوقف على صدى هذا الوفاء الذى يتجسد ويخلد فى ديوانه ، ويحدث العصور بمكانته ، وبما أضفاه عليه من حمد ، وما أسبغه من تكريم وان كانت للامام منزلته فى القلوب وذكراه العاطرة فى النفوس .

ان صـــوروك فانما قد صوروا تاج الفخـار ومطلع الأنوار
أو نقصـــوك فانمـا قد نقصـوا دين النبى محمـــد المختـــار
لن يحجبوك عن الورى أو يحجبوا فلق الصباح ومشرق الأقمـــار
سخروا من الفضل الذى قد أوتيته والله يســـخر منهم فى النـــار

وهو يربط على قلب سعد اذ يناصحه وهو يفاوض المستعمر :

فاوض ولا تخفض جنـاحك ذلة ان العدو ســـلاحه مفـــلول
فاوض فخلفك أمة قد أقســـمت ألا تنام وفى البلاد دخيـــــل
عزل ولكن فى الجهاد ضراغـــم لا الجيش يفزعها ولا الأســطول

ولعل شاعرنا لم يكن متثبتا من أن العدو المستعمر لايمكن أن تفعل به الا السنان والقوة والمنافحة ، فهو حسن الظن بوسائل السلم الآنفـــة التى ما كانت لتنفع مع هؤلاء الثعالب فيناصح المفاوض المصرى بقوله :

أسطولنا الحق الصراح وجيشنا الحجـــج الفصاح وحربنـا التدليـل

ولكنه وهو يعلم ألا سلاح لبنى وطنه الا هذا السلاح ، سلاح الحق الماثل يؤكده ويؤيده ويستنصر به :

خضها هنالك باليقين مدرعـــا والله بالنصر المبـــين كفيـــل

وممارسة الشاعر لاساليب المستعمر تمنحه الفرصة والقدرة عـــلى كشف ألاعيبهم وأحابيلهم :

لا تقرب التاميز واحـــذر ورده مهمـــا بدا لك أنه معســـول
الكيد ممـــزوج بأصـــفى مائة والختـــل فيه مذوب مصـقول

القوم قد ملكوا عنان زمامهم ... ولهم روايات به وفصول
ولهم أحابيل اذا ألقوا بها ... قنصوا النهى فأسيرهم مخبول
فاحذر سياستهم وكن فى يقظة ... سعدية ان السياسة غول
ان مثلوا فدع الخيال فانما ... عند الحقيقة يسقط التمثيل
ولكل لفظ فى المعاجم عندهم ... معنى يقال بأنه معقول
جمعوا عقاقير الدهاء وركبوا ... ما ركبوه وعندك التحليل
فادفع وناضل عن مطالب أمة ... يا سعد أنت أمامها مسئول

وليت الشاعر عاش على عهدنا ليرى كيف تكون معاملة المستعمر وما هى أجدى الوسائل وأليقها به ، ويقف على ماوقفنا به من عزة ومنعة وما ألحقناه بذلك المستعمر من هوان وذلة ٠

لعل روحه الطاهر فى بحبوحة الخلد ينعم بما كان يلذ لخياله أن يتشهاه حيا من باوغ وطنه مآربه على يد أبطال نهضتنا الذين استطاعوا أن يحققوا لوطننا أعز أمانيه .

ورحم الله حافظا وهو لايزال يردد :

فاوض فان اوجزت شرا فاعتزم ... واقطع فحبلك بالهدى موصول
وارجع الينا بالكرامة كاسيا ... وعليك من زهراتها اكليل

وحسبه أنه يدعو لعمل ما وسعته أمته من قدرة على العمل فى منافحة الغاصب ومجاهدته للخلاص مستعينا بالله وهو نعم المعين ٠

انا سنعمل للخلاص ولاننى ... والله يقضى بيننا ويديل

فهو مؤمن بآياته وسنته فى الأولين :

كم دولة شهد الصباح جلالها ... وأتى عليها الليل وهى فلول
وقصور قوم زاهرات فى الدجى ... طلعت عليها الشمس وهى طلول

ثم يخاطب ناشئة البلاد المجاهدة :

يأيها النشء الكرام تحية ... كالروض قد خطرت عليه قبول
يازهر مصر وزينها وحماتها ... مدحى لكم بعد الرئيس فضول
جدتم لها بالنفس فى ورد الصبا ... والورد لم ينظر اليه ذبول
كم من سجين دونها ومجاهد ... دمه على عرصاتها مطلول
سيروا على سنن الرئيس وحققوا ... أمل البلاد فكلكم مأمول
انتم رجال غد وقد أوفى غد ... فاستقبلوه وحجلوه ، وطولوا

اهلا بنابتة البلاد ..

اهلا بنابتــة البــلاد ومرحبــا جددتم العهد الذى قد أخلقـــا
لاتيأسوا أن تســتردوا مجـدكم فلرب مغـــلوب هوى ثم ارتقى
مــدت له الآمـــال من أفلاكهـا خيط الرجاء الى العــلا فتسلقا
فتجشـــموا للمجـد كل عظيمة انى رأيت المجـــد صعب المرتقى
من رام وصل الشمس حاك خيوطها ســـببا الى آمالها وتعلقــا

حافظ ابراهيم

ديوان حافظ

ومن الوفاء للأوفياء ، أن نذكر ببالغ التقدير تلك المشاعر النبيلة التى حدث نفرا من ذوى الرأى والتوجيه الى اخراج ديوان حافظ .

ولم يكن اخراج هذا الديوان من حيث اختيار وقته رهن المصادفة البحت وانما جاء مع الزمن على ميعاد ، ومع الأحداث على تقدير . فبصر الشعب بأمره ، وحكمة الأدباء الأعلام ، وتقدير المسئولين كل ذلك قد التقى عند الحاجة الملحة والدعوة لاخراج هذا الديوان ، وكانت المناسبة التى اختير لها مناسبة وطنية جليلة هى الاحتفاله بذكرى الشاعر .

يحدثنا الاستاذ احمد أمين عن ظروف جمع ديوان حافظ ابراهيم واخراجه بقوله :

رأى على زكى العرابى .. وزير المعارف العمومية حبا منه فى الادب ، وتقديرا لحق الوطن أن يجمع شعر حافظ ، وتقوم على طبعه وزارة المعارف ، وكان من حظى أن ندبنى للقيام بهذا العمل ، فتفضل وطلب الى جمع شعره وضبطه وشرحه ، وكان من حظى أنشاركنى فى هذا العمل الاستاذان أحمد الزين ، وابراهيم الابيارى .

وبهذا تقوم مصر حكومة وهيئات بواجب التكريم لشاعرها ، فترعى تراثه ، وتحفظ لها حق الوفاء والتقدير .

واذا كان لهؤلاء السادة الأجلاء من فضل فى جمع الديوان ، واحتمال الجهد والعنت فى سبيل تقديم متعة فنية ، وطرفة أدبية لأبناء هذا الجيل ، فان مصر بهذا العمل العظيم قد قدمت للشباب ، وللأجيال القادمة تاريخا لجهاد مصر فى سبيل حريتها . بتلك المشاعل ، والأضواء التى سطعت فى سماء العروبة والشرق وان جذوتها لمشبوبة مستعرة فى قلوب الأحرار ، لاتخبو ، ولا تخمد أبدا .

فمدرسة حافظ أروع مدرسة فى العصر الحديث ترسم بها مصر ان شاءت منهجا لبعث الشباب ، وتربية روح الوطنية، فهو غذاء الأرواح تتلفت عليه الأمم ، تتخذ منه السنن الواضحة التى ترشد الى سواء السبيل .

دين الحرية

ذلك هو دين محمد صلى الله عليه وسلم الذى جاء به للناس ، يدعوهم الى الحق ويرشدهم الى الهدى وينير أمامهم الطريق •

يدعوهم الى عبادة الله وحده ، وأن يمسكوا بكتابه ، ويسيروا على الصراط المستقيم وينهاهم عن الضلالة ، والزيغ ، والذلة لغير الخالق الذى فطرهم وأسبغ عليهم نعمته •

أرسى سيد الخلق مبادىء الدين بالكتاب والسنة ، ونبه صحابته رضوان الله عليهم الى مواقف العزة والكرامة ، وضرب لهم أروع الامثال فى حياته الكريمة مرشدا وهاديا ، وداعيا الى الله ورسوله •

وكان صلى الله عليه وسلم ، يرى القربة لله ولرسوله فى فك الرقاب، وتحرير البشرية من طغيان المادة وسيطرة الشهوات ، وتسلط النزوات.

وبالتوحيد أرشد الى ان الحرية أساس الدين، فلاتعبد لغير الله قهار السموات والارض • وأرشد فى التعبد لله أنه حرية مطلقة ، اذ أن عبادة الخالق سبحانه ، أداء حق الوفاء والشكر للرب الرحيم •

ذلكم الله ربكم فاعبدوه ، (اياك نعبد ، واياك نستعين) ، (الا تعبدوا الا الله) ، (يريد الله ليطهركم) •

لافضل لعربى على عجمى الا بالتقوى — كلكم لآدم ، وآدم من تراب — ان أكرمكم عند الله أتقاكم •

سنن كونية عليا ، جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم ، لينبه النفس الضالة الى حقوقها فى الحياة وينبه الى أن الله سبحانه وتعالى ، انما منحها الحياة ، لتعيش عزيزة كريمة ، فلا يتسلط عليها مستعبد باسم الدين ، أو باسم الدنيا ، فالدين لله ، والدنيا سعى وعمل وكدح وجهاد •

وبهذا كانت هذه الدعوة بمثابة : ميثاق السلام ، ونداء التحرير ، اذن به فى الناس رسول رب العالمين •

ومن عهد آدم الى نبوة سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم ، على تقادم الرسالات وتواكب العصور ، كانت هذه الحقيقة تسير مع الفطرة ، اله واحد ، ورسول هاد ، وأمة واحدة .

يدعو الرسول الانسان الى عبادة الله ، والتحرر من قيود الشيطان وعبوديته ، ثم الاخذ من الحياة بحقه أبيا كريما •

وقد شدد الدين فى التوصية والتحذير ، بالا ينزل الانسان عن حقه

فى هذه الحرية التى منحها الله اياه ، وأوضح أن الكفر والضلال والانحراف ان هى الا قيود الحرية والأغلال التى يصنعها الشيطان فى عنق البشرية .

وأرشد الدين الى أن هذه الحرية منطلقة ، فهى دين الله وشرعته فى الدنيا والآخرة .

وآية هذه الحرية تلك النعم التى أسبغها الله سبحانه وتعالى على عباده وافاض منها على الانسان فيضا زاخرا « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها » منح كريمة سابغة ، ومنن جليلة فاخرة ، وحياة رحبة ، فى أرض واسعة وأجواء محلقة ترتد عن مداها العقول والافهام .

وخلق الله العقل فكرا حرا منطلقا ، ومنح الحرية فى التفكير والتدبر والتأمل فى مشاهد هذا الخلق ، والسبح فى آفاق السموات والارض والغوص وراء المكنون من النفائس والذخائر من منح الخالق ، ومواهبه وهى لاتعد ، ولا تحصى . وأرشد الله سبحانه الى أن الهدى هدى الله ، وأنه سبحانه مدبر الأمر — نور السموات والارض ، والرزاق ذو القوة المتين ، ولم يكن هذا تهديدا أو وعيدا ، وانما جاء تذكرة وتبصيرا .

تذكرة بحق الرب على من وهبهم الحياة ، وذكرى الا يتسلط عليهم الغرور :

ذلك الشيطان ، بحبائله ، ونزعاته فى استعبادهم ، واذلالهم وتشكيكه فى قيمة هذه النعمة الظاهرة والباطنة ، التى يتعلق بها الهدى والرشاد لهم والسعادة فى الدنيا والآخرة .

الهكم اله واحد ، ذلكم الذى يحفظ عليكم حريتكم فى الحياة ، وقد رسم لكم السبيل واضحة لهذه الحرية ، ومنحكم القوى الجسمانية والفكرية والروحية ، ووهب لها بنوره القدرة على التمييز ، والتذوق (لئلا يكون للناس على الله حجة) .

ثم هو بعد مثيبكم على استمساككم بهذه الحرية ، فهى نعمة وهبها لكم ولا يرضى لعباده أن ينزلوا عنها لمغرور مضل ، يهوى بهم فى قرار سحيق

ومن رحمة الله ، أن يبشرنا ويوقظنا ، وينبه الغافل منا الى أن هذه النعمه موصولة وانها مستمرة الى أبد الآبدين وان للانسان حياتين دنيوية ، وأخروية ، يستمتع فيهما بسمو هذه المنحة ، فاذا مافرط فيها فى دنياه وسلبها بختال مغرور مضلل ، محتال وافق هواه ، فهى مسلوبة منه فى الآخرة ، بل معذب بها ، ومؤاخذ بجرم تفريطه فيها .

حق أقدس ، ونعمة جزيلة ، تفضل المنعم بها على عباده بأن وهبهم اياها ، وأرشدهم بالعبادات وطهرهم ، ليزع عنهم كيد الشيطان ودعاهم بأن يعيشوا بهذه النعمة أمة واحدة فى سعادة وهناءة ومن فضل الله سبحانه أن يدخر الجزاء الأوفى للمستشهدين فى سبيل حريتهم والدفاع عن كرامتهم فلا يفرطوا فيها . ووعدهم الوعد الصادق بأن يجزل لهم العطاء ، وبشرهم بأن لهم الدرجات العلا .

ذلك فضل الله ، فى منح البشرية هذه الهداية ، رحمة ونورا للعالمين ولم تكن العبودية للنفس البشرية فقط ، وانما جاءت فى صور شتى وعلى أنماط ..

فاستعباد الانسان فى سلبه حقوقه ، والتسلط على مقومات حياته وعزته واستعباد الشعوب فى سلبها حريتها ، وحقوقها ، والتسلط على مقوماتها وما يتصل بأسباب نهضتها .

والعبودية التى تقابل الحرية ، تفسر فى عصرنا هذا بمعنى الاستعمار بل أن الاستعمار ضرب من أفانين العبودية . تلك التى تنشب أنيابها فى الشعوب الحرة بأشكال شتى وصور مختلفة ، وتلتقى جميعا عند سلب الانسان حقه ، اذلاله واستعباده ..

خير أمة أخرجت للناس

واذا كان مانح هذه الحرية ، وهو الله سبحانه وتعالى يخاطب فينا مشاعر العزة والكرامة فيؤذن فينا بأنا خير أمة أخرجت للناس ، فكيف نرضى بحياة الهون والذلة ، لننتكس ونرتكس ، واذا الله سبحانه ، قد أوجدنا فى هذ البقعة المباركة من الأرض الغنية بخيراتهـا وبركاتها . والتى تمتاز بموقعها وجوها وما أفاض الله فيها من متن يكشف عنها الزمان جيلا بعد جيل ، ويؤكد لنا فيها ذلك الكشف كل يوم بأن مذخور الحياة الحرة الكريمة فى هذه الامة وأن مقومات العزة والسعادة فيها ، وأن وسائل النصر والمتعة والغلبة فى أرباضها .

كيف بعد ذلك نغضى عن هذه المكانة الرفيعة التى جبانا الله اياها . ؟

كيف نترك هذا المنزل الكريم .. ونأنس بحياة الدعة والضراعة فى ظل قوام يجوب أرضنا فيقف على ما فيها من مقومات السيادة وثم ينصب شراكه ، ثم يسلبنا هذا الطماح .

ومن عهد الفراعنة الى عهدنا هذا ، وتاريخ هذا الوطن يسجل تلك المشاهد التى كشف عنها هذا التاريخ الطويل ، فالشرق حصن التاريخ.

واذا كانت مصر ، على عهد الفراعنة ، وعلى أيام الفرس ، والرومان والعصور الوسطى والعثمانيين ، وفى ظل الحملة الفرنسية . مطمع الغزاة والفاتحين لمكانتها تلك من خريطة الوجود .

واذا كان الشرق بصفة عامة هو الهدف الاول لاستغلال الغرب وسيطرته وما تعرضت بسببه مصر الى احتلال الانجليز بلادنا أكثر من سبعين عاما وهم يماكروننا طوال هذه المدة بالوعود أثر الوعود للجلاء ، ولا يصدقون فى وعد واحد منها ، اذا كان ذلك بسبب شىء فهو بسبب هذه النعم التى اختص الله بها هذه المنطقة المباركة ، وموقعها بين العالم .

ولقد تعرضت بلادنا فى الحقبة الاخيرة من تاريخنا الى هذا الخطر

الداهم ، وهو الاستعمار ولقـــد شب النزاع بين دول العـــالم بسبب امتياز موقع هذه البلاد • ورغبة كل دولة فى السيطرة علينا ليكون الشرق كالبقرة الحلوب •

فهذه فرنسا تسيطر على مصر بعد الحملة الفرنسية التى وجهتهـــا فى الحقيقة الى تهديد مصالح بريطانيا فى الشرق ، اذ يمكن لها تقويض نفوذها فى الهند والتحكم فى التجارة بين الشرق والغرب عن طريق القناة

وتعود بريطانيا فتفطن الى الخطر الداهم الفرنسى فأمكنها بعد دحر الاسطول الفرنسى فى أبى قير ، استعادة مركزها فى الشرق ، ثم كرست جهودها لطرد الفرنسيين من مصر عام ١٨٠١ لتحل محلها فى التسلط على منطقة الشرق الاوسط •

وبتسلط هذه الدولة علينا وقعنا فى مخالب ذئب مخادع ، يضرب بعضنا ببعض ويخلق الأجواء المناسبة لبث الفرقة • والخلافات بين عناصر الشعب وذلك ليستطيع أن يعيش فى ظلال هذا الخلاف ويبتز من ثرواتنا ما يمكن له بين الشعوب من سيطرة وحياة •

وتطور الموقف الدولى فى أثناء الحرب العالمية وبعدها التى اندلعت شرارتها فى البلقان• وخرجت بريطانيا من هذه الحرب وهى تعض بالنواجذ على مصر ، لما لها من موقع دولى ممتاز ، وللأهمية التى لمستها من تسلطها على القناة •

وفى غمار الحرب الثانية ظلت بريطانيا جاثمة على صدر هذا الوطن تمتص منه الحياة وتعد لنفسها ولجيوشها منه الذخيرة ، والمدد وتنـــكل بشبابه وشعبه على الطريقة التى رسمتها فى سياستها •

وبرز الوعى القومى ، وهبت مصر تجالد المستعمر وتنافحه ، وتاريخ الاستعمار اليوم ، وبعد أن قامت الثورة بضربتها القاضية على هذه الدولة المخاتلة فأطاحت بمقومات الفساد ، وانتزعت جرثومة الشر ، وهيـــأت لمصر عيشا رغدا وحياة عزيزة فى ظل الحرية والكرامة ، تاريخ الاستعمار اليوم ليس فى حاجة الى أن تقصر عنه الفصول الضافية • فى هذا البحث لنكشف لأبنائنا وللتاريخ عنه • وتاريخ الانجليز فى مصر يمتد الى سبعين عاما قضيناها فى بطولة وكفاح واستشهاد •

ودور شاعرنا فى هذه الحقبة الهامة من تاريخ التحرير الوطنى •• دور الباعث الروحى والموجه للشباب الثائر ، فى الاستمســاك بالحرية والزود عنها ومناهضة المستعمر ، وحسبه أنه كان يذكى نار الحماس فى شبيبة مصر والشعب العربى ، فى كل حادثة يرى فيها للمستعمر تسلطا ، وسلبا ، وطغيانا ، وقنصا لحق هذا الشعب المهيض •

واذا كان شاعرنا (حافظ ابراهيم) قد تجاوب مع وطنـــه فى تلك العصور الخوالى فأدى واجبه كاملا كمواطن كريم وهب الله له ذلك السلاح فسله وشهره فى وجه الغاصب وظل يخوض به ميدان السياسة والادب والحرية ، طوال حياته ، فهو انما كان يأخذ بمذهب العزة والقوميـــة التى نادت بهما شاعريته وموهبته •

كان على عهده وطنيون من الشعراء وغيرهم من أصحاب الملـــكات والمواهب وقد أدى كل منهم واجبه • غير أن هذا السيف البتار كان شديد البأس قوى المراس ، وكانت شعلته شواظا من نار يرسله ارسالا على عدو الوطن وهو يهتف :

اذا نطقت فقـــاع السجن متكـأ وان سكت فان النفس لم تطب

فهذه العزة والكرامة في نفسه تأبى المذلة لوطنه ثم تأبى عليه أن يقف من عدوه وعدو بلاده موقف الخنوع والاستسلام •

ولقد ظل الشعر العربى وعاش من عهده الاول يخوض غمار المعارك الحربية والسياسة والوطنية بجانب مسايرة الحياة اللاهية •

فاذا وقفنا بقمة تاريخ الشعر العربى على عهد امرىء القيس وأضرابه من الفحول وجلونا للقارىء الكريم صفحة مشرقة لحياة الشعراء وتجاوبهم مع العصور التى عاشوا بها ومشاركتهم فى شئون الحياة والسياسة والاجتماع

بدأنا بهذا الشعور الجياش الذى انبثق من عواطف النفس •

ذلك قول امرىء القيس وهو فى طريقه الى قيصر ليستعديه على الاخذ بثار أبيه واسترداد ملكه :

بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقـــان بقيصرا

فقلت له لاتبك عينـك انمـا نحاول ملكا أو نموت فنعـــذرا

بل استمع معى الى شعر خالد على الدهر ، انها نفحة لاتزيدها الأيام الا جدة وقوة انه عنترة ينشد شعر العزة والخلود :

ومدجـــج كره الكمـــاة نزاله لا ممعن هـــربا ولا مســـتسلم

سبقت يداى له بعـــاجل طعنـة بمثقف صـــدق الكعوب مقـوم

فشـــككت بالرمح الأصم ثيـابه ليس الكريم على القنـــا بمحرم

وكان الكميت شاعر الشيعة فى القرن الاول يحتج للعلويين على بنى أمية الذين أخذوا الخلافة لأنفسهم :

يقولون لم يورث، ولولا تراثه لقد شركت فيـــه بكيل وأرحب

ولانتشلت عضـــوين منها يحابر وكان لعبد القيس عضو مـؤرب

فان هى لم تصلح لحى ســـواهم اذا ، فـذوو القربى أحق وأقرب

فهو يعدل على منهجه وحجاجه : لو لم يورث النبى صلى الله عليـــه وسلم • لشاعت الخلافة حقا للقبائل العربية جميعا • وهو رأى قد ينقضه رأى غيره •

ويحتج (عبيد الله بن قيس الرقيات) لقريش ، فى قوله :

حبذا العيش حين قومى جميـــع لم تفرق أمورها الأهـــواء
قبل أن تطمـــع القبـــائل فى ملك قريش وتشـــمت الاعـــداء
أيها المشتهى فنــــــاء قريش بيـــد الله عمرهـــا والفنـــــاء

ومنزلة الشاعر من أمته منزلة القيادة والريادة ، فهو على تقادم العهود عزتها وكرامتها ، وسيفها الذى لايفل ، ولا يستنيم وشـــخصية الأمة فى شخصية شاعرها • فهو يهتاج لها ويثور معها وينافح باسمها • ويفخر بأمجادها • ويرمى عن حوزتها •

ولله در لبيد بن ربيعة العمرى وهو ينشد :

انا اذا التقت المجـــامع لم يزل منا لزاز عظيمـــة جشـــامها
ومقسم يعطى العشـيرة حقهـــا ومغذمر لحقوقهـــا هضـــامها
فضلا ، وذو كرم يعين على الندى سمح كسوب زغائب غنامهـــا
من معشر سنت لهـــم آباؤهـــم ولكل قوم ســـنة وامامهـــا

فهو يصف قومه بالنجدة ويعتز بقبيلته •

ولقيس بن الحطيم الأوسى :

ويوم بعـــاث أسلمتنـــا سيوفنا الى نسب فى جسم غســان ثاقب
فهلا لدى الحرب العوان صبرتم لوقعتنا والبأس صعب المراكب

ويرد عليه عبد الله بن رواحه بقوله :

نحامى على أحسابنا بتــــلادنا لمفتقر أو ســـــائل الحق راغب

وفى يوم الربيع وهو من أيام العرب ينشد حسان :

ونحن الفـوارس يوم الربيـــع اذا التبس الأمر ميزانهـــــــا

فيجيبه قيس بن الحطيم :

ويثرب تعلم أنابهـــا قد علمـــوا كيف فرسانهـــا

وفى ظل الراية الاسلامية ، وقومية العروبةفى مجدها ينشدنا عروة ابن زيد :

صبرت لأهل القـــادسية معلمـا ومثلى آذا لم يصـبر القرن يصبر
فطاعنتهم بالرمح حتى تبـــددوا وضاربتهم بالسيف حتى تكركروا
حمدت الهى اذ هـــدانى لدينــه فلله أسعى ما حييت وأشـــكر

وينشد قيس بن زهير :

جلبت الخيل من صنعاء تردى . بكل مدجج كالليث حامى
الى وادى القرى بديار كلب الى اليرموك فالبلد الشآمى
فأبنا القادسية بعد شهر مسومة دوابرها دوامى
فناهضنا هناك جموع كسرى وأبناء المرازبة العظام

ولزياد بن حنظلة فى الغزوات الاسلامية على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

تذكرت حرب الروم لما تطاولت واذ نحن فى عام كثير نزائله
واذ نحن فى أرض الحجاز وبيننا مسيرة شهر بينهن بلابله
واذ أرطبون الروم يحمى بلاده يجاوله قرم هناك يصاوله

ولعتبه بن أبى سفيان ، وقد نزل بمعاوية ، وأنشده الأبيات الآتية يحسن له استمالة عمرو بن العاص معه على أن يمنحه ولاية مصر .

أيها المانع سيفا لم يهز انما ملت على خز وقز
ان مصرا لعلى أو لنا يغلب اليوم عليها من عجز

واذا كان الاحرار يهتفون بالشعر دفاعا ، وذودا ، وحمية واستثارة فما بالك بالموالى اذا اهتاجهم القريض ، فأنشدوا دفاعا عن الشرف والحرية ذلك بشار بن برد ، يقول له أعرابى ما للموالى وللشعر ؟ فتأخذه الأنفة ، وينشد :

تفاخر يابن راعية وراع بنى الأحرار حسبك من خسار

وللوليد بن عتبه فى عثمان بعد أن قتل ، وقد علم أن عليا بعد مقتل عثمان أرسل فأخذ ماكان فى داره من سلاح .

بنى هاشم ردوا سلاح بن أختكم ولا تنهبوه ، لا تحل مناهبه
وأنا خبزناكم ، وما كان منكم كصدع الصفا لايرأب الصدع شاعبه
هم قتلوه كى يكونوا مكانه كما غدرت يوما بكسرى مرازبه
وانى لمجتاب اليكم بجحفل يصم السميع جرسه وجلائبه .

وفى تولية يزيد بن معاوية ، حيث يأخذ له معاوية بالبيعة فى حياته يقول الدارمى الشاعر :

اذا المنبر الغربى خلاه ربه فان أمير المؤمنين يزيد !

ولأعشى ربيعة الشاعر الاسلامى وهو يتعصب لبنى أمية ويمدح عبد الملك بقوله :

وما أنا فيأمرى ، ولا فى خصومتى بمهتضم حقى ، ولا قـارع سنى
وفضلنى فى الشـعر واللب أننى أقول على عـلم وأعرف ما أعنى
فأصبحت اذ فضلت مروان وابنـه على الناس قد فضلت خير أب وابن

وللفرزدق :

ومنا الذى سـل السيوف وشامها عشية باب القصر من فرغـان
عشية لم تمنـع بنيهـا قبيلة بعز عراقى ولا بيمـانى

ولجرير يفخر بمصريته ، وعروبته :

ان الذى حـرم المكارم تغلبـا جعل النبوة والخـلافة فينـا
هل تملكون من المشـاعر مشـعرا أو تشهدون مع الأذان أذينـا
مصر أبى وأبو المـلوك فهل لـكم ياخزر تغلب من أب كأبينـا
هذا ابن عمى فى دمشـق خليفة لو شئت سـاقكم الى قطينـا

وحين نسوق شواهد جرير لانغض من شعر الفرزدق فى هذا الباب .

اذا لاقى بنـو مروان سـلوا لدين الله أسـيافا غضـابا

ويمدح الوليد :

أما الوليـد فان الله أورثـه بعلمه فيه ملكا ثابت الدعـم
خـلافة لم تكن غصبـا مشورتها أرسى قواعدها الرحمن ذو النعم

هذا هو الشعر العربى . نشنيد متواصل ، وقصيد متدفق فى شئون القبيلة ، والدولة ، والجماعة ، رسالة صادقة معبرة ، وصحيفة ناصعة واعية فاذا عرضنا لشاعرنا حافظ ابراهيم وأشرنا الى أنه اتخذ مكانه المرموق من اعزاز القومية العربية والاشادة بمجد وطنه والوقوف الى جواره فى أزماته ومتابعة العدو، ومصاولته، بالقدر الذى كان يتيسر له، اذا عرضنا لشاعرنا هذا ، وأوضحنا فنا من لسانه فى القول ومكانته من الجهاد فاننا نقدم للأدب وللعروبة ، وللشباب صفحة حافلة من صفحات التاريخ سطر فيها هـذا الشاعر لوطنه كل اعزاز واكبار ، وأبان عن عنصره ، وكشف عن نفسه وعن حقيقته بما يخلده أمام التاريخ ويجعلنا نهتف به فى كل عصر ، بأنه شاعر الوطنية العملاق . بل انه لشاعر القومية العربية .

تم الكتاب



١٥٧ شارع عبيد – روض الفرج
تليفون ٤٠٧٥٣ – ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ – ٤٠٨١٤



١٥٧ شارع عبيد ـ روض الفرج

تليفون ٤٠٥٨٨ - ٤٠٧٥٣
٤٠٨١٤ - ٤١٠١٢

العدد ٢٥ الثمن ١٨ قرش